الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة

كليّة الآداب واللّغات
قسم اللّغة والأدب العربيّ

أطروحة

مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه (الطور الثالث ل م د)

القيم الأخلاقية في شعر الصعاليك الجاهليين

تخصص: أدب عام ومقارن

إعداد الطالب: خلاف بوحالة
مدير الأطروحة: موسى مريان

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة
أحسن ثليلاني	أستاذ التّعليم العالي	رئيسا	20أوت 1955 سكيكدة
موسى مريان	أستاذ التّعليم العالي	مشرفا ومقررا	20أوت 1955 سكيكدة
محمد لعور		ممتحنا	20أوت 1955 سكيكدة
فريدة بن عاشور	أستاذة محاضرة (أ)	ممتحنا	20أوت 1955 سكيكدة
محمد اسلوغة		ممتحنا	باجي مختار– عنابة

السنة الجامعية: 2020م–2021م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقرأ باسْمِ ربِّكَ الذي خَلَق* خَلقَ الإنسانَ
من عَلَق* اقرأ وربُّكَ الأكرم* الذي
علَّمَ بالقَلم* علَّمَ الإنْسَانَ ما لمْ يَعْلَم﴾

(صدق الله العظيم) العلق (1-5)

كلمة شكر

أول الشكر لله العلي القدير، الذي أنعم علي بجزيل نعمه وغمرني بواسع رحمته، ووفقني لإنجاز هذا العمل حيث أتوجه بفائق الشكر والامتنان إلى أستاذي المشرف "موسى مريان" الذي كان نعم الناصح المرشد الموجه.

كما أتقدم بالشكر إلى الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة على ما تكبدوه من عناء في قراءة هذه الأطروحة، وحرصهم على إسداء النصح والإرشاد.

كما أتقدم بجزيل الشكر إلى كل من كان له يد العون في إنجاز هذا البحث من قريب أو من بعيد.

إهداء

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

أهدي هذا العمل:

إلى روح والدي الطاهرة، أسكنه الله فسيح جنانه

إلى أمي الغالية، أطال الله في عمرها وغمرها بالسعادة والعافية

غلى كل إخوتي وأخواتي الذين تقاسمت معهم دفء الأسرة كل باسمه

إلى جميع الأقارب والأحباب والأنساب

إلى كل الأصدقاء والأصحاب وزملاء الدراسة من البداية إلى النهاية

إلى كل الأساتذة الذين تعلمت منهم طيلة مساري الدراسي

إلى كل من ساهم في إنجاز هذا البحث من قريب أو من بعيد

إلى هؤلاء أهدي ثمرة جهدي.

مقدمة

مقدّمة

لقد حظيَ العصر الجاهلي –ومازال– بالكثير من الدراسات والأبحاث التي لا تنقصُ من أدبه بل تزيدُه عمقًا ولمعانًا عن ذي قبل، فأدب هذا العصر لا يردُّ قاصدًا، ولا واردًا يريد الارتواء من ينابيعه التي لا تنضَب مع الأيام، خصوصا الشعر الذي هو أشرف فنون الكلام عند العرب في العصر الجاهلي حيث جعلوه جامع أخبارهم، ودستور حياتهم، وشاهد صوابهم، وخطئهم أيضا، ولأن فترة ما قبل الإسلام كانت مرحلة مهمة في تاريخ الأدب العربي عكفَ عليه الدارسون، ولم يتركوا ركنًا منه إلا وأحاطوا به من جميع الجهات، وحاولوا فهم غموضه وكشف مستوره.

والأكيد أن لكل باحث من الباحثين في هذا الأدب اتجاهه في الدراسة يمينًا أو شمالا، ومنهجه في الدراسة أو زاويته التي يرى من خلالها موضوعه وطرحه، حيث قد يتوافقُ مع باحثين آخرين ونظرتهم أو يختلف عنهم ويتعارض مع فكرهم واتجاههم، فليس هناك من الدّارسين من يزعم أنه أحاط بالموضوع تمام الإحاطةِ، أو أنه أجاب عن كل سؤال وسد كل ثغرة فيه، كما أن أصعب شيء على الباحث هو محاولة دراسة قضية من قضايا الأدب –خاصة قضايا العصر الجاهلي– المتشعبة وتحديد أبعادها، وجعلها موضوعًا غير قابل للاختلاف حوله من طرف الباحثين الآخرين، لاسيما إذا ما تعلق هذا الموضوع بالشعر في هذه الفترة، لأن الحياة في هذا العصر غامضة ومتشعِّبة، وصورة الحياة الواقعية ليست مطابقة لما ورد في الشعر بالدقة المطلوبة.

والواضح أنّ الاهتمام الكبير بالأدب الجاهلي عمومًا يعودُ إلى ما في هذا العصر من القيم الفاضلة والصّفات النبيلة، التي حملها بعض الشعراء وتميّزوا بها، فانعكست في أشعارهم وصورت لنا جانبا من أخلاقهم وإنسانيتهم، التي لا يمكن أن نجد مثيلها في أي عصر آخر غير العصر الجاهلي، بل تدلُّ على كمال المروءة في هذا العصر، ونقاوة الطبع، والفطرة السليمة التي فطر عليها العربي الأصيل.

وشعر الصعاليك من بين أهم النصوص الشعرية اللامعة في تاريخ هذا العصر التي لا يمكن أن تُستثنى من بين تلك الأشعار ذات الطابع الأخلاقي والإنساني، حيث يجبُ أن تُزال عنها الغشاوة، ويُكشف عنها الحجب نهائيا، لكي يتسنى للبعض اكتشاف ما يؤكد فعلاً أنه نصٌّ ليس فقط للرفض والتمرد والخروج عن قيم القبيلة التي تؤمن حياة الأفراد في العصر الجاهلي، بل نموذج أيضا للقيم الفاضلة والصفات النبيلة، والذوق الرفيع أيضا لجميع نواحي الحياة الفطرية والبدائية.

والحق يُقال أنه منذ أيامي الأولى في الجامعة كنت معجبًا بموضوع الصعاليك، مفتتنًا بطريقةِ عيشهم وقوة بأسهم، وبعض خصالهم التي تحلّوا بها، وحتى بعض أشعارهم التي كنتُ أحفظُ القليل منها آنذاك، حيث مكَّنني هذا من التقاطِ كل كبيرةٍ وصغيرةٍ عن حياتهم وكل ما يخصهم، فقد وجدتُ أن هذه الطائفة تستحقُّ العناية والدراسة في نفس الوقت، لما يحمله أصحاب هذه الفئة من تلك النزعات الأخلاقية والإنسانية السَّامية، التي تدعو إلى كبح النفسِ عن الأنانيةِ، وتحضُّ على التحلي بمختلف الصفات النبيلة كالكرم إلى حد الإيثار، والشجاعة والإقدام اللازمين، وعزة النفس، والصبر على

الصعاب، ومساعدة الطائفة المظلومة داخل المجتمع والبدل في سبيلها وإغاثتها والوقوف إلى جانبها وقت الضيق، وغيرها من القيم الفاضلة التي كانت تجسّد شخصية العربي الأصيل في العصر الجاهلي.

وصحيح من يرى في شعر الصعاليك تلك الموضوعات المألوفة كالإغارة، والأخذ بالثأر والتشرد والتّمرد على القبيلة، وغيرها من الموضوعات التي جاءت محمَّلة بها أشعارهم، ما جعلها قبلةً الدارسين والنقاد بحثا وتحليلا ونقدًا، لكن في نفس الوقت مخطئٌ من ينزعُ عن هذه الأشعار لبَّها وقيمتها الإنسانية والاجتماعية والأخلاقية في مضامينها، والتي تجعل من شعر الصعاليك إلى جانب الشعر الجاهلي مرجعا أولا، وأصلا جامعًا للعديد من السَّجايا والقيم الأخلاقية الأصيلة في طبع العرب ومواقفهم الثابتة.

ومن هنا كان علينا أن نُنصف هؤلاء الصعاليك ونحاول إبراز الجانب الأخلاقي والإنساني في حياتهم من خلال شعرهم، وأن نؤكد أيضا بأن هذه القيم الأخلاقية التي تحلى بها هؤلاء الشعراء لا ترتبط بزمن دون زمن، أو دين دون آخر، كما أن الاهتمام بموضوعٍ من العصر الجاهلي تذكيرٌ لما في هذا العصر من قيم فاضلة، ولمعانٍ أخلاقيّ قد يجهله الكثيرون من خصوم هذا العصر ودعاة الحداثة -زعموا-، وقد كان للمشرف -رعاه الله- دورٌ هامٌ في اختيار الموضوع، إذ أخبرني بأن هذا البحث جديرٌ بالعناية والإنصاف، ويستحق منَّا كل الاهتمام والجدية في طرق جوانبه الغامضة، فوقع اختيارنا على موضوع "**القيم الأخلاقية في شعر الصعاليك الجاهليين**"، والذي سعينا فيه بكل جدية إلى الإجابة عن إشكال رئيس فحواه: ما هي القيم الأخلاقية التي برزت في شعر هؤلاء الصعاليك؟ كما

قد حاولنا جاهدين الإجابة عن بعض الأسئلة الجوهرية التي يمكن تلخيصها فيما يلي: ماذا نقصد بالقيم الأخلاقية؟ هل هناك علاقة بين بعض القيم وظاهرة الصعلكة؟ من هم أشهر الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي؟ ما هي القيم الأخلاقية التي ثبت عليها هؤلاء الصعاليك ولم يخرجوا عنها؟ ما هي الموضوعات الشعرية التي كتب فيها هؤلاء الصعاليك؟ ماهي الخصائص الفنية لشعر الصعاليك ؟.

وللكشف عن جوانب هذا الموضوع تخيّرنا المنهج التكاملي الذي يلم بحيثيات هذا الموضوع، حيث كان تحليلنا يقوم على تحديد القيمة ثم وصفها وتوضيحها من خلال الاستشهاد بالأبيات الشعرية التي تحمل مضمون تلك القيمة الأخلاقية، كما أنه يتسنّى لنا وفق هذا المنهج الاعتماد أكثر على العديد من المناهج المساعدة التي تستدعيها الدراسة، والتي من خلالها نستطيع تحقق الغاية المرجوة ومعالجة جميع جزئيات هذا البحث من كل زواياه.

أما بالنسبة للبحث فقد قسِّم إلى مقدمة وخمسة فصول رئيسية متبوعين بخاتمة تلخص نتائج البحث فالفصل الأول كان فصلا تمهيديًا ينصبُّ على التعريف بطبيعة الحياة في العصر الجاهلي، خاصة الحياة الاجتماعية والسياسية ومظاهرها العامة التي كانت سائدة، ومبحث يلخص ملامح الحياة الاقتصادية في هذا العصر، بالتطرق إلى القطاعات الثلاثة التي يقوم عليها نظامهم الاقتصادي، كما يحوي مبحث عن القيم الأخلاقية في هذا العصر، فقد كان من الضروري أن نتطرق لبعض القيم الأخلاقية التي كانت سائدة عند العرب في العصر الجاهلي، كالكرم والشجاعة وإباء الضيم ورعاية الجار وغيرها.

وأما الفصل الثاني فنجده تحت عنوان "الأخلاق في الفكر الغربي والعربي الإسلامي"؛ حيث يتطرقُ هذا الفصل إلى التعريف بالقيم، وكذا تعريف الأخلاق، بالإضافة إلى مبحث لحضور الأخلاق عند كبار المفكرين والفلاسفة الغربيين الذين تطرقوا لمبحث الأخلاق في دراساتهم مثل: سقراط وأفلاطون وأرسطو وأبيقور، مع مبحث يتناول الأخلاق في الفكر العربي والإسلامي؛ أي حضور الأخلاق في القرآن الكريم والسنة النبوية، بالإضافة إلى بعض العلماء والأدباء المسلمين ممن تحدثوا عن الأخلاق واهتموا بطبيعتها كالفارابي ومسكويه.

كما نجد الفصل الثالث يتناول "الصعلكة والصعاليك"؛ إذ يتكون من مبحث للتعريف بالصعلكة لغة واصطلاحا، وآخر فيه أشهر الشعراء الصعاليك الجاهليين، ومبحث يتناول موضوعات شعر الصعاليك التي جاء فيها أغلب شعرهم، بالإضافة إلى مبحث آخر يحدد لنا طبيعة علاقة بعض القيم الموجودة داخل المجتمع بظاهرة الصعلكة.

أما الفصل الرابع فهو دراسة لتجليات تلك القيم المستخلصة من شعر هؤلاء الصعاليك وهي: الجود والكرم، والشجاعة والإقدام، والعفة وعزة النفس، وهي قيم أخلاقية رئيسة بدت لنا في صور رائعة جسّدها هؤلاء الصعاليك، هذا بالإضافة إلى فصل خامس وأخير يحتوي قيم أخلاقية أخرى تجلّت في شعرهم وهي: الصبر على الصِّعاب ونصرة الرفيق، والعفة وعزة النفس، كما ختمنا هذا الفصل بمبحث يحدد بعض الخصائص الفنية التي طغت على شعر هؤلاء الصعاليك، ثم في الأخير جاءت الخاتمة تلخص مجمل النتائج المتوصل إليها والتي كانت زبدة الدراسة وهدفها.

ولا يمكننا في هذا البحث أن نتجاهل تلك الدراسات السّابقة التي لامست الموضوع، أو تطرقت إليه من زاوية مختلفة بالبحث والمعالجة أو حتى الإشارة إليه، حيث كانت لي بذلك نعم العون الذي ينيرُ لنا الطريق في بعض المحطات، ومثال أهم هذه الدراسات نجد: كتاب "الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي" لصاحبه **يوسف خليف** والذي يعتبر أول باحث في العصر الحديث- حسب رأي الدكتور عبد الحليم حفنى- يُفرد الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ببحث متخصص، كما نجد كذلك كتاب "شعر الصعاليك منهجه وخصائصه" لمؤلفه **عبد الحليم حفني** والذي هو في الأصل رسالة علمية لم يتحدث فيها عن الشعراء الصعاليك الجاهليين فقط، بل قسمهم حسب الجاهلية والخضرمة والإسلام، وغيرهما من الدراسات التي تناولت موضوع الصعاليك أو أشارت إليه في مباحث أو نتفٍ بين طياتِ الكتاب أو الدراسة.

أما بالنسبة للصعوبات التي واجهتني في هذا البحث فبالرغم من كونها معيقة بعض الشيء، إلا أنها ملح البحث ونكهتهُ التي تضفي عليه طعم اللذة والحلاوة في الأخير، فمن هذه الصعوبات نذكر: قلة المصادر والمراجع الأساسيةِ في الموضوع بصفة مباشرة، أو إن شئت فقل تلك الدراسات المتخصصة في البحث، حيث من يرجع إلى موضوع الصعاليك الجاهليين يجد الحديث عنه كثير، أما الخوض فيه فيصادف الباحث شحًّا في المصادر والدراسات ماعدا تلك الإشارات والنُّتف الموجودة بين صفحات الكتب القديمة، والتي لم يزد عليها الدارسون المحدثون سوى نقل وتصنيف جافين، فهذا من شأنه أن

يعيق مرحلة البحث، ويستدعي وقتا كبيرا لجمع الرؤى والأفكار من بين الدراسات والإشارات المتناثرة في الكتب كما قد أشرنا سابقا.

أما بالنسبة للصعوبات الموجودة على مستوى طبيعة الموضوع فهي تناثر الأبيات الشعرية أو مدونة البحث التي نشتغل عليها بين الكتب، وصعوبة جمعها وذلك حتى في طبيعة تفرق تلك الأبيات الشعرية في مختلف الأغراض الشعرية التي جاءت فيها الأبيات، بالإضافة إلى هذا غموض المعلومات المتعلقة بصحة الشعر المنسوب إلى أصاحبه واختلاف الرواة في عزوِ كل ذي شعر شعره، ففي بعض الأحيان يكون الاختلاف في نسب الشاعر ولقبه هذا من جهة، أما من جهة أخرى فهي بعض الصعوبات المتعلقة بالتعامل مع نصوص من الشعر العربي القديم، وتلك المجهودات التي تُتطلب في سبيل تحقيق ذلك الاقتدار اللغوي لفهم معاني الأبيات الشعرية وشرحها.

وبالرغم من الصعوبات التي واجهتها في إنجاز هذا البحث إلى أنني استفدت من المصادر والمراجع التي تمت بصلة للموضوع وتخدمه، مثل بعض المصادر القديمة وأمّاتُ الكتب، ككتاب "الأغاني "**لأبي الفرج الأصفهاني**، و"العقد الفريد" لصاحبه **ابن عبد ربه**، و"العمدة "**لابن رشيق**، وبعض الكتب أيضا، مثل: "ديوان الهذليين" **لأحمد الزين**، و"المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام "**لجواد علي** وغيرها من الكتب التي لامست الموضوع من قريب أو من بعيد، هذا وقد اعتمدت مجموعة من الدواوين الشعرية المتاحة كديوان "الشنفرى"، بالإضافة إلى ديوان "تأبط شرا"، وكذلك ديوان الشاعر "عروة بن الورد" مع عدم نسيان بعض الدراسات الحديثة التي خدمت الموضوع أو البحث مثل كتاب

"الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي" وكتاب "شعر الصعاليك منهجه وخصائصه"، حيث كانا عونا حقيقيا لنا في إنجاز هذا البحث.

وفي الأخير لا يسعني إلا أن أتقدّم بجزيل الشُّكر وخالص الامتنان لكل من مدّ لي يد العون والمساعدة في إخراج هذا البحث في صورته النهائية، وأخصُّ هنا بالذكر أستاذي المشرف: الأستاذ الدكتور "موسى مريان" لأنني مهما فعلت فأجدني عاجزا عن رد جميله وشكره على ما قدمه لي من تشجيع وتوجيه، فله مني تحية خاصة وجزاه الله خيرا، كما أتوجه بالشكر الجزيل أيضا لكل أعضاء لجنة المناقشة، الذين سهروا على قراءة هذا البحث، ومناقشته وتقويمه.

الفصل الأول:

طبيعة الحياة في العصر الجاهلي

عناصر الفصل الأول:

تمهيد:

أولا – الحياة الاجتماعية والسياسية

ثانيا–الحياة الاقتصادية

ثالثا– القيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي

1– الجود والكرم

2– الشجاعة

3– إباء الضيم

3– رعاية الجار

تمهيد:

لابد لنا من الوقوف أمام لفظة "الجاهلي" قليلا، لأن هذه الكلمة نجدها تحضرُ على لسان بعض الناس كثيرا وتغيبُ عن فهمهم مليا، فهم في أغلب الأحيان يقصدون بها تلك الحقبة الغابرة من الزمان، والتي سبقت الإسلام إلى حيث لا ندري –حسب اعتقادهم–، حيث يعتقدون بخلوِّ هذا العصر من القراءة والكتابة وغيرها من مظاهر التعلم والتحضّر، وذلك لتفسيرهم اللفظة وفهمها فهما خاطئًا على الأغلب.

وقد فسّرها هذا الجمهور من الناس (لفظة الجاهلية) على أنها ضد العلم ونقيضه من الجهل لكن هذا ما لم يعتبره بعض الباحثين صحيحًا، كونها حسب رأي الدكتور شوقي ضيف:« مشتقةٌ من الجهل بمعنى السّفه والغضبِ والنزقِ، فهي تقابل كلمة الإسلام التي تدلُّ على الخضوع والطّاعة لله عز وجل وما ينطوي فيها من سلوك خلقي عظيم»[1]، فهذا المعنى الذي ذهب إليه شوقي ضيف يؤكده الكثيرون ويعتبرونه الأصح والأنسب للفظة، وذلك باعتبار ما وصل إلينا من ثقافة عن هذه المرحلة وحضور بارز لمظاهر القراءة والكتابة.

وهذا ما جعل بعض الباحثين مثل الدكتور "جواد علي" يقدمُ على إبداء رأيه في هذه النقطة بقوله:«الرأيُ عندي الجاهليةُ من السّفهِ والحمق والأنفة والخفّة والغضب وعدم الانقيادِ لحكم وشريعةٍ وإرادة إلهيةٍ وما إلى ذلك من حالات انتقصها الإسلام»[2]، لهذا فحصر كلمة الجاهل كصفة في الشخصِ أو الجماعة لا يكون القصد به أن المخاطب جاهل أميٌّ بالضرورة، ولا يجيد القراءة والكتابة كما هو متعارف عليه عند البعض، وإنما قد يكون المعنى الذي ذهب إليه الباحثان هو الأصحّ والمراد فمصطلح "**الجاهلية**" حينها يكون من منظور ديني أخلاقي فقط لا غير.

[1] الأدب الجاهلي– العصر الجاهلي–، ج01، دار المعارف، القاهرة، ط24، (د/ت)، ص39.
[2] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج01، جامعة بغداد، ط02، 1996م، ص40.

وهذا المعنى الذي نتحدث عنه نجده بالعودة إلى معلقة "عمرو بن كثوم" واضحًا وجليًّا، حيث نجده يقول في معلقته[1] [الوافر]:

ألا لا يَجهلنْ أحدٌ عَلينَـــا فنَجْهَلَ فوقَ جهلِ الجاهلينَـــا

فالمعنى الذي قصده الشاعر كلثوم هنا هو ألاَّ يسفه عليهم أحد، ولا يرتكب معهم حمقًا، كي لا يردّوا عليه بأعظم من سفهه وطيشه وغضبه.

وما يؤكد هذا المعنى ويقويه أيضا هو عودتنا إلى القرآن الكريم فنجد المعنى في سورة "هود" حيث قوله تعالى:﴿إني أعِظُكَ أن تَكونَ من الجَاهِلينَ ﴾[2]، فهذه الآية الكريمة تدلُّ على صفة الجهل الأخلاقي الذي كان أيام الجاهليةِ، من سلوكات وصفات اتّصف وتحلى بها الجاهلي، وليس معناه جهل العلم والقلم كما يتبادر لأذهان البعض.

أما بالنسبة للمدة الزمنية قبل الإسلام والتي يصطلح عليها بالعصر الجاهلي فهي ليست القهقرى قبل الإسلام إلى حيث لا ندري، «ولكن من يبحثون في الأدب الجاهلي لا يتَّسعون في الزمن هذا الاتّساع إذ لا يتغلغلونَ به إلى ما وراء قرن ونصف من البعثة النبوية، بل يكتفون بهذه الحقبة الزمنية وهي الحقبةُ التي تكاملت للّغة منذ أوائلها خصائصُها، والتي جاءنا عنها الشعر الجاهلي»[3]، ذلك أن الفترة التي سبقت الإسلام بقرن ونصف أو قرنين من الزمن على أقصى تقدير إنما تلك من الفترات الغابرة في ثنايا التاريخ والتي لا نعلم عنها شيئا خاصّة في مجال الأدب، بل هي فترة مطعون ومشكوك في صحة ما وصلنا عنها أصلا، يقول عنها يوسف خليف:«وحسبنا أننا لا نكادُ نعرف عنه شيئا منذ بدايته إلى ما قبل ظهور الإسلام بحوالي قرن ونصف القرن، وإنما هي طائفة من الأساطير والأقاصيص، إن تكن ذات قيمة لطائفة من العلماء فإنها عديمة القيمة تقريبا للباحثين في الأدب

[1] الديوان، تح: اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط02، 1996م، ص78.
[2] سورة هود، الآية: 46.
[3] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي- ، ص38.

العربي »[1]، حيث نجد تلك الأخبار والمعلومات المشكوك في صحتها- بطبيعة الحال- والتي تلخّص تلك الفترات البعيدة تتحدث عن مجتمعات بدائية لا تفيد ولا تغني الدارس والباحث في شيء.

والذي يهمُّنا نحن هنا هو الفترة التي يختص بها دارسو الأدب العربي ويهتمون بكل ظواهرها ويقفون وقفة شاملة على كل جوانبها الغامضة، إذ يطلقون مصطلح "الأدب الجاهلي" على أدب هذه الفترة بالذات، والذي كما قلنا يسبق ظهور الإسلام بحوالي قرن ونصف القرن، كما يُؤرَّخُ بها أيضا لبداية الشعر العربي الذي يعتبر ديوانهم، ودستورهم وجامع أخبارهم وملخص أدبهم وحياته، وثقافتهم عامة بكل مظاهرها.

[1] الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، ط03، (د/ت)، ص11.

أولا– الحياة الاجتماعية والسياسية:

من الواضح أن الحياة الاجتماعية والسياسية قبل الإسلام كانت قائمة على أسس النظام القبلي الذي ساد الحياة وغلب طابعهُ عليها كلّها، فبالرغم من التباين الطفيف داخل شبه الجزيرة العربية في نمط الحياة بين المناطق الحضرية والأخرى المدرية إلّا أن كلاهما تحكمهما نفس القيم الاجتماعية والدينية والأخلاقية وحتى السياسية منها، ذلك أنها تساهم في تسيير شؤون الحياة و تسطّر طبيعة حياتهم قبل مجيء الإسلام وتنظّمها، «فعلى الرغم من تشتُّتِ العرب السّياسي في الظاهر ربطت بينهم قبل مجيء الإسلام وحدة معينة في أفكار الديانة والعادات والتقاليدِ وجعلت منهم أمَّة واحدة»[1].

ومن خلال جميع المعطيات التي تقوى الطرح حول طبيعة الحياة في العصر الجاهلي ونمطها الذي كان سائدا؛ «نستطيع أن نقول أن القبيلة كانت الوحدة الاجتماعية التي عرفها المجتمع الجاهلي في باديته ومدنه»[2]، والفارق بين طبيعة الحياتين أن سكان الحضر كانوا يعيشون في ثباتٍ واستقرارٍ دائم يعتمدون فيه على التجارة، والزراعة، وفنون الصناعة أيضا، وهذا مثل ما كان عند بعض مدن الحجاز كمكة والطائف.

وأما حياة البادية فقد كانت حياتهم لا تعرف الاستقرار و المكوث طويلا في رقعة جغرافية واحدة، بل تقوم على التِّرحال الدائم بحثا عن مواطن الكلأ ومنابت العشب ووفرة المياه وغيرها، وعليه فقد «كانت القبيلة تتألف من ثلاث طبقات: أبنائها وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب وهم عمادها وقوامها والعبيدُ، وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة وخاصة الحبشة، والموالي، وهم عتقاؤها، ويدخل فيهم الخُلعاء الذين خلعتهُم قبائلهم ونفتهم عنها لكثرة جرائرهم وجناياتهم ...ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك المشهورة»[3]، وهذا التقسيم الذي يسيطر على المجتمعات الجاهلية ويقسمهم إلى طبقات متباينة إنما يشمل أهل البادية وأهل الحضر معًا، فكل وحدة اجتماعية سواء

[1] كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج01، تر: عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ط05، (د/ت)، ص42.
[2] يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص90.
[3] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي– العصر الجاهلي– ، ص67.

المناطق المدرية أو الحضرية إلا ولها نظامها السياسي والاجتماعي الذي تسير وفقه، فالحر يتصرَّف في حياته كما يشاء لأنه من أبناء القبيلة الصرحاء، بينما العبد مصيره وحريته بيد سيّده، وولي نعمته حتى أن مصير حياته بيد سيده إن شاء أهداه لمن يريد، أو باعه في أسواق النخاسين التي كانت منتشرة في العصر الجاهلي، وإن شاء خلاف ذلك أكرمه وعفا عنه فترك سبيله وعتقه ليكون حرًّا كباقي أفراد القبيلة، يتمتع بحريته وحياته كما يشاء هو، «ونظرا إلى ما كان يعانيه الرقيق من معاملة غليظة شديدة قاسية، ومن قسوة ينزلها بهم أصحابهم عند صدور أي شيء منهم لا يرضي أصحابهم فقد فر كثير منهم من ساداتهم، وخرجوا على أمرهم، فأبقوا مع علمهم بما في الإباق من عقوبة صارمة يدخل فيها قتل الآبق، وانضم بعض منهم إلى الخارجين على عرف قبيلتهم من الضلال والصعاليك والخلعاء وألفوا عصابات أخذت تعتدي على المارة وتغزو العشائر، فتصيب منها مغنما»[1].

وتجدر بنا الإشارة هنا إلى أن هذا التمايز الطبقي في العصر الجاهلي وتلك المعاملة القاسية والغير لائقة التي يُعامل بها الفقراء والعبيد، ممن لا يملكون حظ السادة، ولا دم الصحراء كباقي أفراد القبيلة أن يؤسس هذا إلى ظهور لذا هؤلاء شعور حاد بنفسياتهم المهزومة، وسط ذاك النظام الاجتماعي الذي يؤمن بوحدة جنسه أيما إيمان، ويعترف بصراحة النّسب أشد الاعتراف، «ومع ذلك ومع حرص العربي على الشرف في كلا طرفيه، كان يحدث أحيانا أن يتزوج العربي من أمته، ولكن المجتمع الجاهلي كان يرى في هذا الزواج زواجا غير متكافئ ومن هنا أطلق على ثمرته اسمًا خاصا، فسمي ابن العربي من الأمة "**هجينا**"»[2]، فهذا الزواج الغير متكافئ نتج عنه ما قد يخلّ بوحدة النسيج الاجتماعي ويخلخل استقرار القبيلة وأمنها، فقد يدفع بعضهم إلى التفكير في الخروج والتمرد عن أعراف القبيلة ونظامها السائد نظرا للمعاملة السيئة التي يُعامل بها، وكان أسوأ الناس منزلةً الهجناء أبناء الإماء السود، حيث يسري السواد من الأم إلى أولاده ما يجعل الفرد أضعف من أن يتحمل مسؤولية دمه

[1] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج07، ص467.

[2] يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص109.

ولونه معا، وهذا ما دفع بعضهم إلى البحث عن خروج من هذا العار الذي لحقهم بالتمرد والخروج والتصعلك خارج القبيلة وأعرافها أيضا، ومن الشعراء الصعاليك من كانت أمه أمة سوداء كالسّليك بن السلكة[1] أحد الصعاليك المشهورين في العصر الجاهلي، فكانت بذلك هذه إحدى الأسباب الرئيسية لنشوء ظاهرة الصعلكة في العصر الجاهلي بصفة عامة.

وما يؤكد هذا أن مشكلة الصعاليك في العصر الجاهلي لم تكن تتعلق بقبائلهم، وإنما كانت مشكلة تتعلق بالنظام القبلي نفسه، حيث أدى هذا المعنى الموحد والشعور العام بينهم إلى التضامن الفعلي مع شعور جنيني بأنهم مجتمع مصغر يختلف عن المجتمع العام والقائم داخل القبيلة، وبالتالي تميزوا بفقد الإحساس بالعصبية القبلية التي كانت أساس المجتمع الجاهلي وقوامه[2].

وقد كانت الرابطة القبلية في العصر الجاهلي رابطة قوية يؤمنُ بها جميع أفراد القبيلة الواحدة، أو إن شئت قل عنها إنها أمر مقدَّس، لأن الإيمانَ بهذه الوحدة الاجتماعية قد شكَّل عندهم أسرة واحدة تسعى وراءَ ما يخدم الجميع وتنبذُ ما يضرهم كذلك وفق مبدأ نصُّه :« في الجريرة تشترك العشيرة »[3]؛ هذا المبدأ الذي لطالما عبَّر عن تماسك أفراد القبيلة فيما بينهم وعزَّز إيمانهم بوحدتهم وقوتهم، كما أن هذه العصبيةُ يمكن اعتبارها أساس النِّظام القَبلي (الانتماء القَبلي) الذي كان يحكم حياتهم ويسيرون وفقه في مجتمعاتهم (القبيلة) في العصر الجاهلي، فهي تعتبرُ أمرًا مقدسًا كقوانين السماء، فلا يتجرّأ أحد على المساس بها ومن يفعل ذلك – ممن تخول له نفسه ولو مرة فقط–، فقد عرّض نفسه للطرد خارج القبيلة ويصبح حينها بلا حماية من طرف قبيلته إذا ما واجهته الأخطار المختلفة[4].

[1] ينظر: الأصفهاني: الأغاني، ج18، تح: أحمد الشنقيطي، مطبعة التقدم، مصر، ط01، (د/ت)، ص133.

[2] إحسان سركيس: مدخل إلى الأدب الجاهلي، دار الطليعة، بيروت، ط01 ،1979م، ص200.

[3] الميداني: مجمع الأمثال، ج02، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، ط01، (د/ت)، ص73.

[4] ينظر: عبد الرزاق الخشرم: الغربة في الشعر الجاهلي، منشورات كتاب العرب، دمشق، 1986م، ص23.

ولعل ما يمثل حقيقة هذا المبدأ وانتماء الفرد إلى قبيلته في السراء الضرّاء قول الشاعر دريد بن الصمة[1] في بيته المشهور [الطويل]:

وهل أنا إلاَّ منْ غَزِيةٍ إن غوَتْ غويتُ وإنْ تَرشد غزيةُ أرشُـــــدِ

فالعرب في الجاهلية كانوا متضامنينَ فيما بينهم أشدَّ التضامنِ وأوثقه، متعاونين على شؤون القبيلة وما يحكم أمنها وسلامتها، خاصة من الخطر الخارجي الذي يهددها أو يهدد أحد مصالحها، فمن ذلك كان اختيارهم لشيخ القبيلة الذي يحكمها ويسيرُ أمورها الاجتماعية والسياسية، وفي العادة يكون الأكبر سنًّا وحزمًا وحكمة وروية أيضا، أي ممن يرونه الأليق والأنسب للسيادة، وحفظ الأمن والبقاء وتسيير الأمور السياسية الخارجية مع القبائل الأخرى، «فلم يكن الإنسان في القبيلة جاهلاً لا يعي ماذا يفعل بل كان له الرأي في اختيار زعيم القبيلة، الذي يكون –عادة– من أهل المشورة والرأي حازم الشخصية قوي الإرادة حليما متسامحا كريما جوادا، وإذا ما تم ذلك كان على الفرد الطاعة العمياء للمحافظة على وحدة القبيلة»[2]، وعليه فلا معنى للرئاسة والسؤدد إذا لم يكن شيخ القبيلة مطاعا في أوامره ونواهيه التي يشير بها على قومه، بل نجد يصنع القرار الحكيم دائما لأنه الوحيد من يعرف حق المعرفة أمور القبيلة وما يناسبها ويخدم مصالحها العامة.

وبالحديث عن وحدة القبيلة وانصياع أفرادها لشيخ القبيلة والتعاليم التي تُفرض عليهم في إتباع قوانينها حريٌّ بنا أن نُشير إلى ظاهرة شاعت في المجتمع القبلي الجاهلي، وعُرف بها أكثر من أي مجتمع آخر ألا وهي ظاهرة "**الخَلْع**"؛ والذي يكون طردًا لأحد أفرادها ممن ارتكبوا جُرمًا أو فعلا يسيء إلى سمعة القبيلة بين القبائل الأخرى، فتكون القبيلة حينها أمام حتمية رفع الحماية عن هذا الخليع «فلا تتحمل

[1] الديوان، تح: عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، ط01، (د/ت)، ص62.

[2] هاشم صالح مناع: الأدب الجاهلي، دار الفكر العربي، بيروت، ط01، 2005م، ص43.

جريرة له ولا تطالب بجريرة يجرّها أحدٌ عليه»[1]، ومن هذه الطائفة نجد الشاعر قيس بن الحدادية الذي خلعته قبيلته "**خزاعة**" لأنه اشترك مع جماعة في قتل أحد أفراد قبيلتهم[2].

ولا يجب علينا أن ننسى عادة الأخذ بالثأر داخل المجتمع الجاهلي، والتي تعتبر مظهرًا من مظاهر العصبية القبيلة واعتزاز العربي بنسبه، وقوميته، وسعيه الدؤوب إلى الحفاظ على كرامته التي هي أكثر ما يعتزُّ بها العربي و يفتخر، ففي بعض الأحيان لا يتوقف الأخذ بالثأر بقتل الجاني، بل يجرهم إلى الإسراف في القتل وإلى حروب لا تحمدُ عقباها نظرا لكون الواترِ أقل منزلة من المقتول وغير كفءٍ له مثلا، وهذا ما تجسَّد في "**حرب البسوس**" بين "بكر" و"ثغلب" والتي استمرت أربعين عاما بين كرّ وفرّ، ذلك أن المهلهل بن ربيعة لم يشأ لفتيلها أن يخمد، بعد أن أقسم بحياته أن يبيد سراة البكريين ولا يبقى عليهم أحد كل ذلك بدم أخيه كليب.

يقول في قصيدته المشهورة التي يرثي فيه أخاه كليبا[3] [الوافر]:

خُذ العَهــدَ الأكيدَ عليّ عُمْري بتركي كلَّ ما حــوتِ الدِّيــارُ

وهجـري الغانياتِ وشربَ كأسٍ ولُــبسِي جبّـةً لا تُستعـــــارُ

ولستُ بخالعٍ دِرعي وسَيفــي إلا أن يخلَعَ الليـلَ النّهـــــارُ

إلاّ أن تبيــدَ سراةُ بكــــــرٍ فــلا يَبقى لــها أبدًا أثـــــارُ

وعليه فعادة الثأر والأخذ بدم الآخرين كان من العادات البارزة التي طغت على الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي، كما كانت سببا في اشتعال فتيل الساحة السياسية أيضا بين القبائل، أو قل عنها بأنها إحدى الركائز التي يقوم عليها النظام القبلي، ما جعل دائرة العداوة بين القبائل تتوسع وتطول في

[1] الأصفهاني: الأغاني، ج13، ص02.

[2] للتوسع يُنظر: الأغاني، ج13، ص02.

[3] الديوان، شرح وتقديم: طلال حرب، الدار العالمية، ط01، (د/ت)، ص34.

كل مرة تلك الحروب فلا تترك لحياتهم السكينة والهدوء الدائمين، و مثال هذا أيضا نجده في ما حدث مع الشاعر الصعلوك الشنفرى والذي أقسم ألا يترك "بني سلامان" وشأنهم حتى يقتل منهم مائة بما استعبدوه[1].

ومن العادات السيئة التي انتشرت بينهم آنذاك نجد عادة شرب الخمر والتي كانت متأصلة في نفوسهم حيث نجدهم قد افتخروا بمعاقرتها، وتفنّنوا في الإسراف حول ملذاتها التي تقودهم إلى النشوة والسعادة المثلى، فهذا الشاعر الغلام "طرفة بن العبد" نجده قد جعلها إحدى الغايات الرئيسية التي يعيش من أجلها بقوله[2] [الطويل]:

ومازالَ تَشرابي الخـمور ولذَّتِـي وبيعِـي وإنفاقِي طريفِي ومُتلـدِي

فإن كنتَ لا تسطيعُ دفـع منيَّتي فدعني أبادِرْها بما مَلكت يـَـدِي

ولولا ثلاثٌ هنَّ من عيشةِ الفَتـى وجدِّكَ لم أحفِل متى قامَ عـوَّدِي[3]

فمنهنّ سبقُ العـاذلاتِ بشربـةٍ كميتٍ متى ما تعلَ بالماءِ تُزبِـدِ

فالشاعر في هذه الأبيات نراه ينفقُ جل ماله في شرب الخمر، بمعاقرتها، والاستمتاع بها وبملذات الحياة كلها، ذلك إسرافا منه وبحثا عن كل اللذّات الدنيوية قبل أن تبادره المنية وينتهي أجله الذي سينتهي لا محالة، سواء أسرف في الشرب أم بقي شحيحا ممتنعًا عن الإسراف، كما أن عادة شرب الخمر عند طرفة بن العبد تمثل أيضا إحدى الخصال الثلاثة التي تجعله يعيش لأجلها، وذلك بمحاولة إشباع رغبات نفسه ولذّاتها التي تعطي معنى حقيقيًا لحياته، «وقد أغرم بها العرب متحضّرين، ومبتدين فشربوها وافتخر الشعراء بمعاقرتها، وبذل الأموال في سبيلها»[4]، ذلك أنهم رأوها من بواعثِ الكرم

[1] يُنظر: كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ج21، ص: 88.87.

[2] الديوان، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط01، 2003م، ص:33.

[3] العوّد: جمع عائد، وهو من عاد يعود إذا زار مريضا.

[4] أحمد محمد الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، مطبعة النهضة، مصر، ط02، (د/ت)، ص949.

والجود عند احتسائها، هذا ما جعل هذا الكثير من الشعراء يتفننون في وصفها، ووصف الإحساس الذي تتركه في صاحبها حينما يشربها، فقد جاء في معلقة عَمرو بن كلثوم الثغلبي[1] [الوافر]:

ألا هبِّي بصحنِك فاصبحينـَا ولا تُبقِي خـمورَ الأندرينَـــــا

مشْعشْعةٌ كأنَّ الحُصَّ فيهـــا إذا ما الماءُ خالطَها سَخينَـــــا[2]

تجور بذي اللّبانةِ عـــن هـواهُ إذا ما ذاقـــها حتّى يلينَـــــا

ترَى اللّحِزَ الشّحيحَ إذا أمِرّتْ عليه لمالِـه فيها مُهينَـــــــا[3]

وكثيرة هي النّصوص الشعرية التي ذكرت فيها الخمرة، ووصف ألوان المتعة والسرور والنشوة التي تطال أصحابها عند شربها، بالإضافة إلى مختلف الآثار النفسية والجسمية التي تحدثُها في صاحبها عندما يكون مجالسا أصحابه من الندامى خلال ليالي الطيبات، «فإن كان هناك من رأى في الخمرة وسيلة للهو والمتعة فإن كثيرا من الشعراء من كان يرى فيها وسيلة للهروب من الواقع إلى عالم تصنعه الخمرة في نفوسهم»[4]، وعليه فشربُ الخمر ومعاقرتها والسباحة في عالمها في العصر الجاهلي هي إحدى الحلول التي كان يلجأ إليها الإنسان الفرد هروبًا من مشاكل الحياة الاجتماعية، وقسوة الرقعة الجغرافية، و كذا ضغوطات الحالة النفسية في بعض الأحيان أيضا.

هذا ولا ننسى القمار والميسر اللذين كانا بالإضافة إلى الخمر من أساسيات الحياة في الجاهلية وعنوان المعيشة داخل ذلك النظام القبلي، بعاداته وتقاليده حيث كلّها «كانت عند السّادة نوعًا من أنواع التّرف والنعيم بالحياة، ووسيلة لملء الفراغ الوجودي، من خلال حضرة مصطنعة يواجهون بها

[1] الديوان، تح: إميل بديع يعقوب، ص64.65.

[2] مشعشعة: الخمر التي أرقّ مزجها ، الحص: هو الزعفران.

[3] اللّحز: البخيل.

[4] حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي. قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار، القاهرة، ط01، 2001م، ص233.

إحساسهم بالتناهي والدُّثور»[1]، فهذا ما يجعلهم في كل مرة يتحدثون عن هذه الأشياء بشيء من الاعتزاز والافتخار، حتى أن البعض منهم كان يؤثرُ لعب الميسر ورمي القداح على بقية شؤون حياته المهمّة، بالإضافة إلى أن العرب في العصر الجاهلي كانوا يمتدحون شرب الخمر ولعب الميسر، وذلك لأنهما كانا من سبل الكرم والجود على الآخرين.

وإن كانت الحياة قبل مجيء الإسلام مليئة بالعادات والظواهر الاجتماعية السلبية التي أرتادها الجاهلي فإنها في نفس الوقت حفلت ببعض القيم الأخلاقية والصّفات الحميدة، التي اتصفوا بها وافتخروا ومدحوا من تحلى بها وتميز بها عن غيره، فتغنوا كثيرا بهذه الصفات في أشعارهم وقصائدهم، لأن العربي الأصيل «مثله الأعلى في الأخلاق تركَّز فيما سمّاه"**المروءة**"، تغنّى بها في شعره وأدبه ومن الصّعب أن نحدّها حدًا دقيقًا، ولكن يصحُّ أن تقول: إنها تعتمد على الشَّجاعة والكرم، أما الشجاعة فتتجلّى في كثرة من نازله وقاتله، وفي مواقف دفاعه عن قبيلته، وأكثر من هذا في نجدته، وأما كرمه فيتجلى في نحر الجزور للضيف، وإغاثة البائس الفقير، وفوق هذا يعطي أكثر مما يأخذ»[2].

ولهذا وجب علينا أن نلغي المفهوم القاصر الذي يحكم على الحياة التي سبقت الإسلام عند العرب بأنها ظلامٌ دامسٌ، مليء بالرذائل والصفات السيئة الدنية فقط، بل على العكس فقد عُرف عنهم من الصفات الحميدة كالشجاعة والكرم والإباء وغيرها من الخلال الحميدة ما لم تتصف به أمة من الأمم الأخرى، «ولا شك في أن العرب في جاهليتهم كانت فيهم بقية من ملّة إبراهيم عليه الصلاة والسّلام من مثل تعظيم الصفات الحميدة كالصدق والوفاءِ والجود والحلم والعفةِ، ولم تخل أمة من الأمم في أي جيلٍ من الأجيالِ من مثل هذه الفطرة السّليمة التي فطر الله عليها الخلق»[3]، فهذه الفطرة السليمة التي فُطر عليها العربي تجعله يتحلّى بالشمائل الطيبة، والسجايا التي تنسجم مع أخلاقيات الملة الأولى

[1] المرجع السابق، ص234.

[2] أحمد أمين: فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط10، 1969م، ص10.

[3] هاشم صالح مناع: الأدب الجاهلي، ص53.52.

كما تضمن له أيضا مزيدا من الاستمرار والبقاء صامدًا في مواجهة تلك البيئة القاحلة والقاسية حيث أقل ما يقال عنها أنها بيئة قليلة الضرع والنبت.

وبالإضافة إلى الفطرة السليمة للعربي والتي تقوده إلى مجموع الصفات والخصال الحميدة –كما أسلفنا الذكر– لابد لنا أن نقرَّ بأن للبيئة الطبيعية والمجتمع الجاهلي بجميع خصوصياته له الدور الكبير أيضا في تنمية هاته الصفات في الأفراد، كالشجاعة مثلا، والإقدام، والكرم، وإباء الضيم، وإغاثة الملهوف وغيرها من الصفات التي تفرضها طبيعة الحياة الجاهلية، وحتى طبيعة البيئة الجغرافية التي ينشأ فيها الفرد نجدها تتطلب التحلي ببعض الخصال والصفات؛ كالقوة والشجاعة والإقدام وركوب المخاطر والتجلُّد للمكاره والخطوب، كما قد تستدعي هذه الصفات تلك الحياة المضطربة والتي لا تعرف الاستقرار والهدوء، بل نجدها تعتمد الإغارة والغزو والعداء والكر والفر نمطا للحياة العامة[1].

وجلُّ المعطيات الطبيعية التي ذكرت بالإضافة إلى غياب الأمن والاستقرار في حياتهم يدفعُ الواحد ولا شك إلى نصرة أخيه، وقبيلته والذود عنها داخل ذلك المجتمع الخاضع لقانون القوة ولا غير، إذ من تنصره اليوم وتقف إلى جانبه وتصالحه وتكون درعا له يكون هو الآخر لك سندًا في يوم ضعفك واحتياجك، بالإضافة إلى هذا فإن لقسوة البيئة وجدب الحياة داخل الصحاري العميقة الدور الفعال أيضا في انتشار خصالٍ أخرى كالسماحة، والبذل، والكرم، وغيرها من صفات فرضتها بيئتهم فرضا.

ومن النقاط المهمة التي يجب الوقوف عندها أيضا في العصر الجاهلي نجد "**المرأة**" أو بالأحرى مكانة وحضور المرأة ومشاركتها في الحياة، وكيفية مساهمتها وسط مجتمع يعتمد على الحروب والصراعات اللامتناهية من أجل ضمان البقاء، والاستمرار في غياهب عالم القوة والفقر، والبحث الدائم عن لقمة العيش، وفرض النفس على قسوة الطبيعة والحياة أيضا.

وللوقوف عند هذه الجزئية في العصر الجاهلي وتصوير مكانتها فيه عن قرب نعود إلى أوثق مرجعٍ يقرّبُنا من الصورة ألا وهو القرآن الكريم حيث جاء فيه:﴿وإذا بُشِّر أحدُهم بالأنثَى ظلَّ وجههُ مسودًا

[1] ينظر: يحي الجبوري: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسس الرسالة، بيروت، ط05، 1986م، ص64.

وهو كَظيم، يتوارى من القومِ من سوءِ ما بُشِّر به، أيمسِكُهُ على هونٍ أم يدسُّه في التراب ألا ساءَ ما يحكمون﴾[1]، فالظاهر من خلال هذه الآية الكريمة أن المرأة لم تكن تحظ بمنزلة محترمة، أو حتى متواضعة على الأقل، وإن كان معنى الآية في أصله يشيرُ إلى ظاهرة وأد البنات والتي كانت منتشرة أيام الجاهلية الأولى في بعض القبائل العربية في ذاك العصر.

كما يمكننا أن نضيف أنه على بالرغم من المكانة التي احتلتها المرأة في العصر الجاهلي والاهتمام الذي لقيته من الشعراء الذين أكثروا من وصفها، والتغزل بمحاسنها تارة أخرى وحاجتهم إليها دائما فإننا نلاحظ أن المجتمع الجاهلي قد قام على المتناقضات في نظرته للمرأة، فالجاهليون اعتزوا بأبنائهم على حساب بناتهم دائما، وقد كانوا ينظرون إليهن نظرة احتقار، بل أنفوا وكرهوا من سماع خبر ولادتهن لأنهن لا يجلبن إلا العار والذّل[2]، ومنه تكون الفكرةُ واضحةً بشأن المرأة ومكانتها داخل المجتمع الجاهلي مقارنة بالرجل طبعًا، إذ هي أقل منزلة من تلك التي يحتلها الرجال، لأن الرجلَ عكس المرأة هو فخر القبيلة وفارسها الذي يذود عن حماها وسمعتها، أمّا المرأةُ فهي فقط تجلب الغم والحزن والعار- حسبهم- «ومهما يكن من شيء فإنّ مكان المرأة في المجتمع الجاهلي- وفي غير الجاهلي- دون مكانة الرجل بكثير، والعرب تحبّ الذكور لأنهم جنود القبيلة ورجالها الحماة، أما المرأة فلا تعني في الحرب شيئا، بل تكون غالبًا عبئا على القبيلة لأنها مقصد الأعداء، يريدونها سبيّةً، وسبيُ المرأة عندهم عار لا يسكت عنه، ولا يُقعدُ دونه، إلاّ الوغد الذّليل»[3].

ويمكن لنا أن نلخّص مكانة المرأة مقارنة بالرجل في العصر الجاهلي بقصة رواها الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" أن أبا حمزة الضبي هجر امرأته، وكان يقيل ويبيت عند جيران له، حين ولدت له امرأته بنتا فمرّ يوما بخبائها وإذا هي ترقِّصها وتقول [من الرجز]:

ما لأبي حمزةَ لا يأتينَا يظلُّ في البيتِ الذي يلينَا

[1] سورة النحل، الآية: 59.58.

[2] ينظر: هاشم صالح مناع: الأدب الجاهلي، ص46.

[3] يحي الجبوري: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ص73.

غَضبَانَ ألاّ نَلدَ البنينَـا تالله ما ذاك في أيدِينَـــــا

وإنما نأخذُ ما أعطينـــا ونحنُ كالأرضِ لزارعينـــَـــا

نُنبتُ ما قد زرعوهُ فيـــنَا[1]

وليس حكمنا هذا يجعل من المرأة في العصر الجاهلي وصمة عارٍ واحتقار لمنزلتها أو شخصها، بل هناك الكثير من الشّعراء من أعلى من شأنها، وتغزّل بها وامتدحها خاصة إذا ما تعلّق الأمر ببعض الصفات الأخلاقية التي يعتبرها العربي مبعثا للفخر والاعتزاز، كالحياء والعفة مثلا، فهذا الشنفرى يقول في تائيته المشهورة مادحًا بعض الخصال التي أعجبته فيها بقوله[2] [من الطويل]:

فيا جارتي وأنتِ غيرُ مليمـــــةٍ إذا ذُكرتْ ولا بذاتٍ تقلَّـــتِ[3]

لقد أعجبَتْني لا سقوطًا قِناعهـا إذا ما مشَتْ ولا بذاتٍ تلفَّـــتِ

تبيتُ بُعيدَ النَّومِ، تهدي غَبُوقَها لجارتِها إذا الهديَّـــــةُ قلَّـــتِ[4]

تحلُّ، بمنجاةٍ من اللّومِ، بيتَهـا إذا بيوتٌ بالمـــــذمّةِ حُلَّـــتِ

كأنّ لها في الأرضِ نِسْيًا تقُصُّهُ على أمِّها وإن تكلِّمك تَبلـــتِ[5]

أميمةُ لا يُخزِي نثاهَا حليلَهـــا إذا ذُكِر النّسوانُ عفَّتْ وجلّـتِ[6]

[1] الجاحظ: البيان التبيين، ج01، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط07، 1998م، ص186.

[2] الديوان، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط02، 1996م، ص33.32.

[3] تقلّت: تفعّلت، من القلى وهو البغض، أي أميمة ليست من الموصوفات بالبغض.

[4] الغبوق: هو شراب المساء، ويقابله الصبوح وهو شراب الصباح.

[5] تبلتِ: تقطّع في كلامها أي لا تطيله.

[6] النثا: إخبارك عن الشيء بالحسن أو القبيح، يقول إذا ذكرت أفعالها لم تسوء حليلها لعفّتها.

إن موقف الشاعر هنا هو الإعجاب بخصال المرأة وأخلاقها الرفيعة، لهذا فهو يقوم مادحًا لها بذكره خفرها وحيائها وعفّتها، وكلها من معايير جمال المرأة والصفات المعنوية التي تختلف عن الصفات الحسية التي تغزل بها أغلب الشعراء في العصر الجاهلي ومدحوا المرأة بها.

أمّا في جوانب نشاطها وعملها فهي؛ «تشارك الرجل في شؤون الحياة، فهي تحتطبُ، وتجلب الماء وتحلب الماشية، وتنسج المسكن والملبسَ، وتخيط الثوب، وهي-على الجملة- أقرب إلى عقلية الرجل ولكنها لا تُغني غناءَ الرجل في الحروب، والحروبُ عندهم أساسٌ لحياتهم فانحطّت لذلك منزلة المرأةِ عن منزلة الرجل»[1]، فالمرأة إذًا تقوم بمختلف الأعمال التي تساعد على استمرار الحال حيث تساهمُ بدورها الفعّال في نجاح مشروع استمرار الحياة، لهذا رأينا بأنها كانت تشارك في الكثير من الأعمال الخارجية في سبيل مساعدة الرجل، «فإذا أحدثت الحرب فإنها تخرج - في بعض الأحيان- إلى ميادين القتال، تثير همَ الرجال، وتحرضهم على الاستماتة وتنشدهم الأناشيد الحماسية، وتهيئ لهم النبال وتضمّد الجرحى وتسقي الماء...وكانت سببا في إثارة كثير من المعارك، فتدفع الرجل إلى طلب الثأر وتعيّر القاعدين عن ذلك»[2].

ونستطيع أن نقول بأنّ المرأة في العصر الجاهلي-بصفة عامة- قد عاشت حياة صعبةً داخل نظام قبلي صارم، وواقع معيشي بدائي، يجعل حقوقها تصبّ في خانة الرجل والفارس الذي يحارب في سبيل القبيلة وشرفها، ومع ذلك نجد أن هناك بعض النسوة الحرائر اللاّتي تمتعن بكل حقوقهن الطبيعة، وعشن حياة عادلة في كل حقوقهن، وتصرّفن في مصيرهن بكل حرية خاصة بالنسبة للمرأة التي تمتعت بنسب رفيع داخل مجتمعها أو قبيلتها.

[1] أحمد أمين: فجر الإسلام، ص10.

[2] يحي الجبوري: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ص72.

ثانيا–الحياة الاقتصادية:

إن الحديث عن الحالة الاقتصادية لسكان شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام مربوط بطبيعة البيئة الجغرافية والطبيعية بكل خصائصها الإقليمية التي تميزها عن غيرها من بقاع الأرض، وفي كل زمان ومكان نجد أن الحالة الاقتصادية مرهونةٌ بتفاصيل الرقعة الجغرافية، من مناخ وموقع جغرافي، وتربة وتكوين جيولوجي، وغيرها من العناصر الطبيعية التي تساهم في إنتاج الحضارة واقتصاد البلاد وتطوره.

«وعليه فإن للطبيعة أثرٌ كبير في تحديد خيرات الإقليم وإنتاجه الزراعي والصناعي والحيواني، وقد أثّرت طبيعة الجزيرة العربية في تكييفِ اقتصاد العرب الجاهليين في العصر السابق لظهور الإسلام، وفي تحديد موارده، وفي توجيه العرب الاقتصادي، فاعتمد سكان المناطق الصحراوية بشكل رئيس على الرعي المتنقل لأنعامهم ومواشيهم وعلى التجارة، كما اعتمد سكان المناطق الخصبة على الزراعة ولم يهملوا التجارة، كما كان عندهم إلمام بالصناعة، فكانوا أوفر حظا من البدو»[1]، فتعدد الموارد الطبيعية واختلافها وتنوعها في شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي من منطقة لأخرى، جعل من سكان المنطقة يتعاملون معها حسب معطيات الرقعة نحو تنمية اقتصاد الحياة، فالأرض والمناخ والموقع الجغرافي كلها عناصر طبيعية يستغلها أفراد المنطقة لرفع مستوى المعيشة في وجه ذلك النظام الطبيعي القاسي.

وفي كل الأحوال وباختلاف الظروف الطبيعية والمناخية التي ميزت هذه البيئة في العصر الجاهلية نجد أن العربي قد دُفع دفعًا نحو مجابهة مختلف الصِّعاب والصُّمود في وجهها مقاوما إيّاها، باحثا عن السبل الناجعة التي تضمن له العيش والاستمرار، كالتنقل والهجرة المتتالية نحو المناطق الأكثر رحمة وجودًا كما أن البيئة الصحراوية التي تتميز بالمناخ الحار وندرة واضحة في الموارد الطبيعية المحدودة، نتيجة الكمية القليلة من المياه والتي تجود بها السماء في أوقات متفرقة ومتباعدة وغير منتظمة أيضا، يجعلنا نقول بأن الجفاف والحر والجذب يسيطر على السكان أغلب شهور السنة، فلا يد بذلك لأهل

[1] محمد سهيل طقوش: تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النفائس، بيروت، ط01، 2009م، ص33.

المنطقة في نظام الطبيعة وحكمة الخالق في توزيع نسبة التساقط، فلا يجد أهلها إذا ما اشتدت عليهم إلاّ الهجرة والبحث عن مناطق أخرى أكثر رحمة[1].

وبهذا يكون للوضع الطبيعي أو التركيبة الجغرافية لمنطقة ما تأثير و دور بارز في تأقلم ساكنيها واستمرار نشاطاتهم التي تضمن لهم التأقلم والازدهار، لهذا فالأمر يبدو جليا من خلال التباين المعيشي والاقتصادي لمنطقة على حساب أخرى، حيث لكل رقعة محددة خصائصها التي تميزها عن غيرها سواء بالانتعاش الاقتصادي والمادي، أو بالضمور والجمود الاقتصادي، الذي يدفع بسكان المنطقة إلى الهجرة والضرب في الأرض بحثا عن مستوى معيشي أفضل وواقع وأحسن.

والواضح أن النشاط الاقتصادي في شبه الجزيرة قبل الإسلام قد كان قائمًا على ثلاثة قطاعات أساسية تشكل المورد الأساسي والمؤشر الرسمي الذي تقوم عليه البنية الاقتصادية لسكان شبه الجزيرة العربية، أول هذه القطاعات نجد الزراعة والرعي، فالرعي وتربية الحيوانات قد كان حقا طابعًا أساسيا للعربي في العيش ورفع اقتصاده اليومي والسّنوي، ذلك أنه نشاط يلائم طبيعة الجزيرة العربية وظروفها المناخية، لهذا «فقد اعتمد البدوي في حياته على تربية المواشي كمصدر آخر لمعيشته، ولاسيما الإبل التي تعد من أهمها وأقدمها وأعزّها عند العرب والحليف الأول لرعاة البادية في تنقلهم... ويأتي الغنمُ والخيلُ وسائر المواشي في المرتبة الثانية بعد الإبل، تربَّى الأغنام في أنحاء الجزيرة العربية كافة، ويستفيد العربي من لحومها وصوفها وألبانها وبفعل حاجتها الدائمة إلى الماء والعلف اختص بها أهل الحضر وأصحاب المراعي»[2]، فهذه الأصناف من الحيوانات أو هذه الثروة الحيوانية -إن صح التعبير- قد شكّلت ركنا أساسًا من أركان النشاط اليومي الذي تقوم عليه حياة العربي في تنمية الوضع المادي الاقتصادي، وذلك من خلال الاستفادة من هذه الحيوانات بصفة مباشرة، كألبانها ولحومها وجلودها ناهيك عن استخدامها في التنقل والسفر، وحمل البضائع الموجهة للتصدير، أو توزيع المحاصيل الزراعية التي يقصد بها الأسواق التجارية، أو يُستخدم بعضها في حرث الأرض وخدمتها.

[1] ينظر: يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص74.

[2] سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، ط03، 1974م، ص37.36.

أما بالنسبة للنشاط الزراعي وخدمة الأرض في شبه الجزيرة العربية خلال الزمن الذي سبق ظهور الإسلام فقد كان هو الآخر إحدى الدعائم الأساسية في النهوض بالمستوى المعيشي والاقتصادي لأن خدمة الأرض قد ارتبطت عند جل الحضارات القديمة بالحضارة ومحاولة تطوير الاقتصاد، وذلك حسب طبيعة كل رقعة جغرافية وتركيبتها الطبيعة؛ «فللطبيعة أثر كبير في تحديد خيرات تلك الأمة وفي تكوين سماتها وعاداتها وإنتاجها من ناتج زراعي أو حيواني أو صناعي، ثم في فقرها وغناها...»[1] فالمستوى الاقتصادي المادي للعرب الجاهليين نراه قد ارتبط بالبيئة الجغرافية ارتباطا عضويا، بحيث تعكس طبيعة الإقليم موارد السكان، ومستوى اقتصادهم ومعيشتهم، وذلك حسب كيفية تفاعل هؤلاء السكان مع بيئتهم وثرواتها، وكيفية استغلالهم لموارد البيئة المحيطة بهم.

«ونجد أمامنا معطيات تاريخية كثيرة تشيرُ إلى كثرة عدد الأماكن التي يعمل سكانها في الأرض وينتجون المحصولات الزراعية، التي تفيض عن حاجتهم أحيانا، وتجد طريقها إلى أسواق التبادل المحلية وتتواجد هذه الظاهرة في الجنوب واليمن بشكل خاص، غير أن الحياة الزراعية كمورد اقتصادي أساسي لم يكن قاصرا على القسم الجنوبي من الجزيرة العربية بل شمال الجزيرة كلها»[2]، فالنشاط الزراعي في العصر الجاهلي عند سكان شبه الجزيرة قد ازدهر وتوسّع أكثر خاصة عند سكان بعض المناطق التي تتمتع رقعتها بتربة خصبة تصلح للنشاط الزراعي، ما يجعل الإنتاج والمحصول يفيض عن الحاجة في بعض الأحيان، فيوجه مباشرة إلى أغراض تجارية تسويقية، أو يُتبادل به في بعض الأحيان بسلع ومنتجات أخرى تسد عوز وحاجة سكان المنطقة.

والحق يقال أنه على الرغم من مساحة شبه الجزيرة العربية الشاسعة ألا أننا نجد أن أغلب مساحة هذه الأرض غير صالحة للزراعة، أو إن شئتَ فقل عنها أنها مجرد بوادي قاحلة لا تصلح لممارسة مختلف النشاطات الفلاحية حيث «نشأ عن هذا الوضع ضيقٌ في مساحة الأرضين المزروعة، لشحِّ الماء وعدم كفايته لإرواء الإنسان ولإرواء ماشيته واستقاء أرضين واسعة، ضيقٌ أثّر في شكل تكوين المجتمع العربي

[1] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج07، ص05.
[2] محمد سهيل طقوش: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص38.

فلم يسمح بظهور المجتمعات الكثيفة الكبيرة في شبه الجزيرة العربية ... وهو ضيقٌ صيّر العرب قوما يكرهون الزراعة وينفرون منها»[1]، وللأمانة فقط فإن العرب في العصر الجاهلي قد انتشرت عندهم أنواع عديدة من النشاطات والمحاصيل الزراعية التي تميزت بها بعض المناطق مثل: النخيل و بعض الحبوب والأعناب وغيرها من المحاصيل كلٌّ حسب مناخه وبيئته التي يصلح بها.

أما التجارة فقد اعتمد عليها سكان شبه الجزيرة بصفة كبيرة في تحقيق حوائجهم اليومية، من مأكل ومشرب وملبس وكل ضروريات الحياة بتبادل السلع والمنتجات أو بيعها، فقد كانت هذه الحركة التجارية استثمارا لرؤوس الأموال عبر الأسواق المحلية وحتى الموسمية، «فقد كانت متاجرهم مع فارس والحبشة واليمن إلى الشام إلى العراق ومصر، وأشهر مدنهم التجارية كانت أم القرى (مكة) والطائف ويثرب ومدين، وهذه في الحجاز، ثم دومة الجندل في نجد وسواها»[2]، فكل هذه المناطق وغيرها من المراكز التجارية قد كانت تشهد نشاطًا تجاريا واسعا، كما تشهدُ تبادلا لمختلف السّلع الزراعيةِ والصناعية المتاحة خاصة بالنسبة لمختلف المناطق التي تقع على مقربة من الطرق التجارية التي تمرُّ من خلالها القوافل المحمّلة بالسلع والبضائع، «لهذا كان من المعقول أن يمارس كثير من العرب التجارة رجالا ونساء وخاصة الذين تقع بلادهم قريبة من هذه الطرق، ومن لم يتاجر منهم أفاد من التجارة بالواسطة فعمل في هذه القوافل إما دليلاً وإما سائقًا وإما منتظما في جملة حماتها الذين يؤجرون أنفسهم وسلاحهم ودوابهم فيها»[3]، وعليه فإنّ أرباح هذه الحركات التجارية والقوافل المعبئة بالسلع كانت تعودُ بالربح والفائدة على سكان البوادي أيضا، حيث مرور القوافل عبر الطرق القريبة من هذه المناطق يضمن لسكان القرى فرص العمل من حماية القوافل أو توجيهها.

وقد كانت الأسواق المشهورة والمناطق التجارية نقطةً مهمةً في اقتصاد المنطقة التي تنتمي إليها، أو تقع تحت نفوذها، فهذه الأسواق ليست مناطق لعرض السلع فقط، بل هناك من كانت منبرًا للشعراء

[1] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج07، ص07.
[2] عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط04، 1981م، ص65.
[3] سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص17.16.

والخطباء خلال المواسم المشهورة، يأتون إليها من كل حدب كي يتعاكظون الشعر أمام الحشود الكبيرة ويلقون خطبهم أيضا، «وكان من أعظمها وأحفلها سوق عكاظ، وهو نخل بين نخلة والطائف، يتقاطر إليها العرب من كل جهة في شوال وقيل في ذي الحجة، فيقيمون السوق نحو شهر يبيعون ويشترون ويقضون أمورهم، وكان الشعراء منهم في تلك المدة يغتنمون فرصة اجتماع القوم ... فينشدون القصائد على مسمع من الجماهير المحتشدة»[1].

و الأسواق والمراسم في الجاهلية كانت تساهم بشكل كبير في ازدهار الحركة التجارية، والاقتصادية والدينية، وخاصة الأدبية واللغوية، كونها ملتقى لجميع الناس من مختلف القبائل والأقطار، «فلا يقلُّ شأنا عن النشاط التجاري في أسواقنا تلك، أثر هذا الاختلاط في اللغة والدين والعادات، فإن قيام قريش عليها الأعوام الطويلة قبل البعثة، مكنها من أن تتبوأ في اللغة المكان الأعلى، لأن لغات القبائل عامة يمنيّها وعمانيّها وشاميّها وعراقيّها ونجديّها وتهاميّها، تطرقُ مسامعها على الدوام فتختار منها ما يحسن وتنفي ما يقبح، وقامت على هذا الاصطفاء زمنا كافيا حتى خلصت لها هذه اللغة الممتازة وتهيأت لينزل بها القرآن الكريم على أفصح وجه وأبلغه وأتمه، كمالا وسلاسةً وجمالاً»[2]، هذا ما يجعل تلك الأسواق محطات هامة يغشاها الناس لمآرب مختلفة ومتنوعة كل وغايته التي ينشدها، فنجد فيها تبادل السلع والمنتجات باختلاف العادات والآداب والثقافات أيضا، والعرب في ذلك العصر ما أحوجهم إلى وحدة سياسية تضمن بقاءهم وتقوي شوكتهم وتوحد لغتهم.

أما بالنسبة للصناعة في هذا العصر عند العرب فهي الأخرى قامت بدور مهم في تنمية المستوى الاقتصادي للمدن والقرى، وتوفير بعض الحاجيات الأولية للسكان، وكذلك تساعد في توفير المواد الأولية التي تساعد في تطوير العمل وازدهار اقتصاد المنطقة.

[1] أفرام البستاني: الشعر الجاهلي نشأته –فنونه– صفاته، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، (د/ط)، (د/ت)، ص9.8.
[2] سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص207.206.

وقد انتشرت الصناعات والحرف في أرجاء شبه الجزيرة كل منطقة حسب صنَّاعها وصناعاتها التي تُشتهر بها وحسب إمكانياتها أيضا، «كما ظهرت صناعات جديدة إلى جانب ما كان قائما منها وأدخلت بعض التقنيات على وسائلها وطرقها بهدف زيادة الإنتاج وتحسين نوعه، ومعنى ذلك أن الحرفة تجاوزت طور العمل الصناعي المنزلي لتلبية حاجات التبادل»[1]، فهذه المرحلة إنما تعتبر مرحلة جديدة يخطوها المجتمع في تطوير صناعاته، وإمكاناته في مختلف أشكال العمل الإنتاجي الصناعي والذي يساهم هو الآخر حينها في تطوير وتفعيل الحركة التجارية، وترويج مختلف تلك المنتجات الصناعية الموجهة نحو الأسواق ومراكز التبادل التجاري، فقد أشارت العديد من المصادر والدراسات إلى بعض الصناعات اليدوية التي كانت منتشرة في ذاك العصر والتي كانت توجه مباشرة إلى أسواق التبادل التجاري لهذا لا يمكن عدها أو حصرها .

ويمكن لنا أيضا أن نشير إلى وجود العديد من الصناعات المتنوعة في بلاد العرب كالأسلحة كالسيوف والدروع بالإضافة صناعة البرود والأقمشة، كما عرفوا نحث التماثيل والآلهة من الحجارة والرخام كذلك كما قد عرف العرب أيضا صناعة الخزف "السراميك" والأختام المنقوشة، كما اتخذوا الكثير من المناجم في الجزيرة العربية، واستغلوها أحسن استغلال باستخراج مختلف المعادن الثمينة كالذهب والفضة وغيرها من المعادن التي يحتاجونها للحلية وسك النقود مثلا[2]، فبالإضافة إلى هذه الصناعات يمكن أن نضيف بعضها من الصناعات والحرف كصناعة الجلود، وبعض الصناعات المتعلقة بالخياطة والطرز، مثل صناعة بعض المنسوجات الحريرية والكتّانية وحتى الصوفية، «وفي يثرب قامت بعض الصناعات التي تعتمد على الإنتاج الزراعي مثل صناعة الخمور من التمر والقِفَفْ من سعف النخيل والنجارة من شجر الطرفاء والأثل»[3].

[1] محمد سهيل طقّوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص57.

[2] ينظر: ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، مطبعة التضامن، بغداد، ط02، 1969م، ص154.

[3] عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د/ط)، (د/ت)، ص13.

والحق يقال أن العرب كما وصفهم ابن خلدون: «أبعد النّاس عن الصّنائع»[1]، إذ أنهم كانوا يعتمدون على الزراعة والتجارة أكثر في عملية إنعاش اقتصادهم، وزيادة إنتاجهم، وفي تلبية حاجاتهم، ومختلف الصناعات المحلية السابقة الذكر قد كانت ترتكز في المناطق الحضرية أكثر أين تتوفر للسكان المواد الأولية لممارسة هذه الحرف والصناعات البسيطة والأولية، وخاصة تلك التي يحتاجون إليها في حياتهم اليومية كصناعة الأسلحة وبعض الصناعات الأخرى المتعلقة بالإنتاج الزراعي كما أشرنا سابق.

[1] المقدمة، تح: عبد الله محمد الدرويش، ج02، دار الهداية، دمشق، ط01، 2004م، ص79.

ثالثا– القيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي:

إن ما لا شك فيه أن القيم الأخلاقية والفضائل الإنسانية تحضر بكثرة في الشعر العربي خاصة القصيدة الجاهلية، وذلك ليس لأن بحثنا يدور في تلك الحقبة بالذات أو تزكية منا لهذا العصر ولما يحمله من شتى القيم والمبادئ الحسنة، وإنما لكون القصيدة الجاهلية أو الشعر الجاهلي عمومًا يعتبر الأصل الأول لمختلف الطباع والسجايا العربية التي ذكرها الشعراء في أشعارهم وتفننوا في ذلك «فالشاعر يضع القيم والمبادئ والأخلاق في مقدمة اهتماماته»[1]، وشعر كل شاعر إنما هو المرآة الصادقة للمجتمع، ومختلف المواقف الاجتماعية التي تعكس ثقافة وفكر وعقيدة كل مجتمع من المجتمعات البشرية.

والمتأمل للشعر الجاهلي والمطلع على حياتهم وآثارهم الأدبية يلفت بوضوح نوعا من التفكير الأخلاقي يتمثل في أبيات حكمية تدعو لمكارم الأخلاق، ومحاسن الصفات الإنسانية يستهل بها الشاعر قصيده أو يختم بها في غالب الأحيان، وذلك ليس غريبا لأن في الجاهلية ليس كل الناس سفهاء أو فسَّاق بل فيهم من لا يشرب الخمر، ولا يقطع الطريق، ولا يعبد الأوثان أيضا، «ففي الجاهلية أفرادٌ متحنِّفون كثر عددهم قبيل ظهور الإسلام... هؤلاء المتحنِّفون أو الحنفاء كانوا يبنون أعمالهم الخاصة والعامة على الأخلاق الكريمة وما يقضي به العقل العملي في الحياة، وكانوا لا يشركون قومهم في حياتهم الجاهلية، إن هؤلاء كانوا قد حرَّموا على أنفسهم الخمر وهجروا الأوثان (على قلتها في بلاد العرب) وتركوا الثأر والغزو ويبدوا أنهم اعتقدوا بالله وحده وبحياة بعد الموت »[2]، فمادام هؤلاء الأفراد كانوا في العصر الجاهلي فالأمر ينطبق على الشعراء ويشملهم أيضا، هذا ما يتيح لنا فرصة الاصطدام بالقصائد والأبيات التي تدعو إلى محاسن الأخلاق وأنبل الصفات التي اتصف بها العربي في هذا العصر.

[1] حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص37.
[2] عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج01، ص61.

وعليه سنحاول أن نكتشف بعض الخصال والفضائل التي تميز بها العربي، من خلال بعض الأبيات الشعرية التي تصحح النظرية الخاطئة التي جاءت بها مختلف الدراسات الأدبية والتاريخية القائلة بأن الإنسان الجاهلي يتميز بالسفه والجهل فقط، وأنه إنسان بعيد عن مجمل الصفات الأخلاقية الحميدة «وقد يعود السبب في تلك الأحكام القاسية إلى الانطلاق من مواقف مسبقة تعتمد التفسير الخاطئ للفظة الجاهلية، أو تحكم على العربي من خلال الصحراء الجافة والقاسية، والحكم الصحيح في رأينا هو الذي ينطلق من الشعر الجاهلي، الذي يعتبر خير معبر عن الأخلاق العربية الأصيلة المتمثلة في الكرم العربي والشجاعة، وقد بدت لنا جملة من الصور الرائعة عن الكرم العربي الذي يتميز بأنه كرم من أجل الكرم، والشجاعة البعيدة عن كل تهور، والتي تعني الصدق مع النفس ومع الآخرين، وهي الفضائل التي أكدها الإسلام فيما بعد»[1].

وحقيقة أننا نجد بعض التفكير والنظرة الساذجة التي خيّمت على بعض الدارسين باعتبارهم الفترة التي سبقت الإسلام فترة متخلفة وجاهلة في كل نواحي الحياة، وأن العربي شخصٌ لديه شخصية فريدة إذ ينظر إلى الحياة بنظرة جامدة، بعيدة عن كل الصفات المعنوية فقد قال أحد الباحثين بأن: «العربي ينظر إلى الأشياء نظرة مادية وضيعة، ولا يقومها إلا بما تنتج من نفع، يمتلك الطمع مشاعره، وليس لديه مجال للخيال والعواطف، ولا يكترث بشيء إلا بقدر ما تنتجه من فائدة عملية »[2]، وعليه فأحسن رد على أصحاب هذه النظرة والحكم الضيق أن نستحضر مجموعة من الأبيات الشعرية التي تفند رؤيتهم السطحية، وتؤكد في نفس الوقت حكمنا باختيار العصر الجاهلي مجالا لدراسة القيم الأخلاقية وكيفية حضورها عند بعض الشعراء، وإلا فأين هي إذا حكمة زهير، وجود وكرم عروة بن الورد وحاتم، وشجاعة وإقدام عنترة ... الخ؟، أم أنهم عاشوا الجاهلية بكل صفاتها ومميزاتها وصوّروا الإسلام في أحسن صورة؟ !.

[1] صالح مفقودة: القيم الأخلاقية من خلال الشعر الجاهلي، مجلة العلوم الإنسانية، ع01، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2001م، ص182.

[2] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج01، ص165.

1- الجود والكرم:

من الفضائل التي ارتبطت بالإنسان الجاهلي أشد الارتباط نجد الجود والكرم، فطبيعة الحياة القاسية والمجذبة ولَّدت لديه نفسية نبيلة تعطفُ وتجودُ على الغير وتبذلُ في سبيله وقت الضيق، بغية استمرار الحياة على طبيعتها والمحافظة على الأحساب والأنساب أيضا، كما أن هذا التضامن والتآزر بين الأفراد يذاعُ على مستوى القبائل الأخرى، مما يهيِّئ للصيتِ الحسن الذي كانت العرب في أحوج ما تكون إليه.

وعند الحديث عن الجود في العصر الجاهلي لابد لنا أن نستعرض المثل الشهير الذي يعكس جود الفرد وكرمه في تلك الحقبة الزمنية، وهو ما جاء في المثل: "أجود من حاتم"[1]، حيث حاتم الطائي هذا كان في العصر الجاهلي مثالا في الكرم، والسخاء، وكثرة العطاء، والبذل في سبيل الآخرين أيضا، وهو بشخصيته تلك يجسّد حقيقة المعنى الفعلي للجود والكرم، في وقت لا توجد فيه دساتير إلهية تنظم عاداتهم وتقاليدهم، أو ترسم لهم الطريقة الصحيحة في تلك المعاملات الإنسانية الراقية، فقد جاء في بيت شعري له قوله[2] [الطويل]:

يقولونَ لي: أهلكتَ مالك فاقتصِدْ وما كنتُ لولا ما تَقولون سيِّـدًا

فالشاعر هنا في ها البيت بالرغم من لوم العذَّل مستمر في إسراف ماله على الفقراء والمحتاجين، وهذا العطاء والبذل الذي جسّده "حاتم" هو ما جعله سيّدا في قومه، ورمزا من رموز الفضيلة والعطاء وبالإضافة إلى هذا فإن الكرم والسخاء من صفات الملوك في العصر الجاهلي، وهو أيضا من أبرز الخصال التي يجب أن يتحلى بها من أراد سيادة قومه أو قبيلته، ومن ساد قوما دون أن يكون كريما سخيا بقى في أعين قومه مبغضا ساقطا.

[1] الميداني: مجمع الأمثال، ج02، ص182.

[2] حاتم الطائي: الديوان، دار صادر، بيروت، (د/ط)، (د/ت)، ص41.

وفي موقف آخر نجد حاتم يرد على زوجته التي دائما ما تلومه على إسرافه الشديد، وكرمه الزائد مع الغير بصورة منقطعة النظير في السخاء والعطاء، حيث يقول[1] [الطويل]:

ذريني يكـنْ مــالي لعرضِي جنَّـــةً يَقي المــالُ عرضــي، قبل أن يتبدَّدَا

أريني جوادًا مـــــاتَ هزلاً، لعلَّــني أرى ما ترينَ، أو بخيلاً مخلّـــــدَا

وإلاّ فكفّي بعض لومـــك، وارجعي إلى رأي من تَلحينَ[2]، رأيك مسنــدَا

فلعل أبهى وأروع صور الكرم في العصر الجاهلي تظهر لنا في هذه الأبيات واضحة جليةً يدعو الشاعر فيها حليلته للتوقف عن لومه في إسراف ماله، في حين هو يريد بذلك صيانة عرضه من الذم وكسب الثناء فدوام الحال من المحال –حسب الشاعر–، والمالُ إن لم تنفقه في إعانة الآخرين ذهب هباءً منثورا وبلا فائدة، كما تظهر فلسفة حاتم في العطاء والجود هنا في صورة راقية تجعل الجواد بجوده وكرمه ينعمُ بالحياة ولا يقتله ذلك العطاء والمنح الغزير، وأن البخيل الذي يدخرُ ماله لن يستطيع أن يخلده ذلك المال.

ونجد عند العربي كذلك في العصر الجاهلي إكرام الضيف واستقباله أحسن استقبال تحت مظلة الكرم والسخاء الذين هما من تمام الضيافةِ وكمالها، لا يتراخى المضيف بضيفه، ولا يحسِّسُه بثقل الزيارة، لأن ذلك لم تكن من خصال النفس الإنسانية العربية، يقول عروة بن الورد[3] [الطويل]:

فراشِي فراشُ الضعيفِ والبيتُ بيتُه ولم يلـــهني عنه غـــزالٌ مقنَّعُ[4]

أحـــدِّثه إن الحَديثَ مــن القِـرى وتعلمُ نَفسي أنَّه سوفَ يَهجَـــعُ

[1] المرجع السابق، ص41.

[2] تلحين: تلومين.

[3] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص83.

[4] غزال مقنع: أراد بذلك زوجة جميلة.

فعروة هنا يتقاسم فراشه مع الضّيف ويجعل من البيت بيته، فهو بهذا يرفع من صورة الكرم لدرجة الإيثار بحيث يكون فيه حب الخير للغير قبل النفس، كما نجد الشاعر كذلك يراعي الحالة النفسية للضيف وذلك بالحديث معه، وعدم الانشغال عنه ولو كان هناك زوجة أو امرأة تشبه الغزال في جمالها.

ولقد تفنّن الشعراء القدامى وشكّلوا صورًا بديعة في ممدوحيهم ممن اتصف بهذه الصفة حتى بالغوا في ذلك، كما قدموا صورا شعرية جميلة في سبيل تعظيم شأن هؤلاء الأجواد والكرماء الذين يغدقون على الآخرين من المحتاجين بما يحتاجونه، فها هو الشاعر الحكيم "زهير ابن أبي سلمى" يمدح ذات مرة "حصن بن حذيفة بن بدر" حيث يقول[1] فيه [الطويل]:

وأبيض فيَّاضٍ يداهُ غمَامَـــةٌ عــلى معتفيهِ ما تُغبُّ فواضِلُـه[2]

أخي ثقةٍ لا تُتْلفُ الخمرُ مالَـه ولكنَّه قـد يُهْلكُ المـالَ نائلُـه

تراهُ إذا مـــا جئتَه متهَـــلِّلاً كأنّك تُعطيه الذي أنتَ سائِلُـــه

وذي نَسبٍ ناءٍ بعيـدٍ وصلتـه بمـالٍ ومَـا يَدْري بأنَّكَ واصِلُـه

فزهير بن أبي سلمى هنا يشبه لنا ممدوحه (حصن بن حذيفة بن بدر) بسحابةٍ غزيرة العطاءِ لا تنقطع أبدا، واستخدام زهير صفة البياض هنا يرمز لنقاء هذا الرجل من العيوب، كما أن الشاعر أيضا قد جعل ممدوحه غير مسرف في الملذات (الخمر) مما يهدد ذلك بإتلاف ماله، لكنه دائم العطاء والنوالِ على المحتاجين مما قد يهلك ماله هذا الإسراف.

[1] زهير بن أبي سلمي: الديوان، اعتنى به وشرحه: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، ط02، 2005م، ص53.54.

[2] أبيض: كل رجل خالي من العيوب، فياض: ذو الجود الكثير، المعتفون: هم الطالبون العفو والعطاء.

وقد صور لنا الشاعر زهير في البيت الأخير صورة العطاء لأجل العطاء دون انتظار الرد، ودون رياء أيضا، فالممدوح يغيدُ على السائلين في خفية وتستُّرٍ حتى أنهم لا يعلمون من أين استرزقوا وتموَّلُوا، لهذا فالصورة البديعة في قوله[1] [الطويل]:

تَراه إذا مـــا جئتَهُ متهَلِّلاً كأنك تُعْطيهِ الذي أنتَ سائِلُه

جعلت الكثير من النقاد القدماء ودارسي الشعر الجاهلي يصنِّفون هذا البيت كأمدح بيت قالته العرب على الإطلاق، ومن أجمل ما قيل في مدح الكريم المعطاء أيضا.

ومن صور الكرم في العصر الجاهلي نجد ما ذكره لنا الشاعر "امرؤ القيس" في معلقته الشهيرة وما دار بينه وبين عنيزة والعذارى في ذلك اليوم المشهور، الذي خلده في معلقته والمسمى بيوم "دارة جلجل" حيث نجد الشاعر يقول في معلقته[2] [من الطويل]:

ويوم عقرتُ للعذَارى مَطيَّتي فيا عَجبًا مـن كورِها المتحمِّـلِ

فظلَّ العذارَى يرتمينَ بِلحمِهَا وشحْمٍ كهُدَّابِ الدّمقسِ المفتَّـلِ

فهذا اليوم الذي يسمى "**دارة جلجل**" من الأيام الخالدة في ذاكرة الشاعر، كما أنها قصة مشهورة وذائعة عند كل دارسي الأدب الجاهلي، لأن الشاعر قد استعمل جميع الوسائل الممكنة بغية تخليد تلك اللحظة مع حبيبته "عنيزة"، كما أن هذه الواقعة لا يمكن أن تلغي حقيقة مفادها أن الحادثة تعتبر مظهرا من مظاهر الكرم والسخاء عند الإنسان أو الفرد في العصر الجاهلي، فالشاعر قد نحر ناقته لهن كي يأكلن ما طاب لهن دون بخل أو شح منه، كما أن الإنسان الجاهلي له كرم وسخاء لا يمكن أن يحرم الواحد الآخرين شيئا يمكن أن يجود به، يقول طرفة بن العبد[3] [الرمل]:

[1] المرجع السابق، ص54.

[2] امرؤ القيس: الديوان، اعتنى به وشرحه: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط02، 2004م، ص26.27.

[3] طرفة بن العبد: الديوان، ص51.

نحنُ في المشْتاةِ ندعوا الجَفَلَى لا تـرى الآدِبَ منّا ينَتقِـــــر[1]

فهذا البيت أيضا لطرفة بن العبد يبدي لنا صورة الكرم والجود في أبهى صورة وأقوى مشهد، حيث في فصل الشتاء الدعوة عامة إلى الطعام، لجميع الناس دون استثناء وهذا أيضا يعتبر من مظاهر الكرم الحقيقي الذي تميز به الإنسان العربي الأصيل في العصر الجاهلي.

2- الشجاعة:

إذا رجعنا إلى حياة العربي نجد أن أشد ما يفتخر به الشجاعة والإقدام، فهي قد ولدت معه وتسري في عروقه مجرى الدم، فالإنسان العربي منذ القدم نجده حريصٌ على تعويد أبنائه منذ الصغر الشجاعة والإقدام وعدم الضَّعن، لأن في ذلك مذلة وخضوع تهددان سمعة الفرد مستقبلا، وحتى سمعة القبيلة مع القبائل الأخرى أحيانا أخرى.

«ولقد بلغ من شدة حبهم للإقدام أنهم كانوا يمتدحون الظُّلم أحيانًا، والتعجل بالحرب والذي لم تكن لديه هذه الأعمال يمكن أن يكون عرضةً لظلم الآخرين»[2]، فالشجاعة إذا والإقدام سلاحٌ يُتّخذ ضد الطامعين من الأعداء، وهذا «كقول العرب: الشجاعة وقايةٌ والجبنُ مقتلةٌ»[3]، ومن يحرص على الإقدام والشجاعة وعدم الخوف من الموت والمهالك توهب له حياة طويلة حسب قانون العرب في الجاهلية طبعا، لذا فالعربي حريص على تصوير شجاعته وبسالته وافتخاره أيضا بقوة بطشه بالخصوم دون خوف أو تردّد، يقول الشاعر "المهلهل بن ربيعة"[4] [البسيط]:

لو كنتُ أقتُلُ جنَّ الخابليْنِ كمَا أقتلُ بكرًا لأضْحَى الجنُّ قدْ نَفدَا[5]

[1] المشتاة: فصل الشتاء، ندعوا الجفلى: الدعوة تعم الناس جميعا دون استثناء، ينتقر: من النقرى وهي عكس الجفلى.

[2] صالح مفقودة: القيم الأخلاقية للعربي من خلال الشعر الجاهلي، ص191.

[3] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج01، ص91.

[4] المهلهل بن ربيعة: الديوان، ص28.

[5] الخابلين: الخابل، الشيطان، والخابل المفسد، والخابلان الليل والنهار لأنهما لا يأتيان على أحد إلا خبلاه بهرم وهو المقصود هنا.

كما يقول "عمر بن كلثوم التغلبي" في معلقته[1] [الوافر]:

أبا هندٍ فلا تعجَلْ علينَا وأنظِـرنَا نُخبِّــرُك اليَقينَـا

بأنَّا نوردُ الرَّاياتِ بيضًـا ونُصْدرهنَّ حمـرًا قد رَوينَا

فالشاعر "عمر بن كلثوم" هنا يخاطب الملك "عمر بن هند"، حيث يخبره بألاّ يتعجّل بحكمه على قوم الشاعر الذين تملؤهم الشّجاعة والبطولة وعزة النفس، حيث أنهم يوردون رايات الحرب بيضاء ثم يرجعونها حمراء من دماء الأعداء والأبطال.

وتظهر قيمة الشجاعة كذلك واضحة عند العربي في تلبية النداء ومساعدته لقومه وقت الحاجة، يقول "طرفة بن العبد" في معلقته[2] [الطويل]:

إذا القومُ قالوا من فَتًى؟ خِلتُ أنَّني عُنِيْتُ فلـم أكسَلْ ولم أتبلَّـــدِ

ولسْتُ بحلاَّلِ التِّلاعِ مخـــــافَةً ولكــنْ متَى يَسترفِدِ القومُ أرفـدِ[3]

فالشاعر نجده في استعداد دائمٍ لتلبية طلب قومه وتقديم المساعدة والعون لهم وقت الحاجة، لذا ينفى أن يكون ممن يقصدون التِّلاع مخافة وخشية من دفع الشر، ما يجعله دائم الحضور وقت ما يستنجدون به ويطلبوه ولا يقف عاجزًا دون طلبهم أبدا.

وفي فلسفة "طرفة بن العبد" في الحياة نراه يجعل إغاثة الملهوف هي إحدى الأمور التي يحرص عليها أشد الحرص حيث يقول[4] [الطويل]:

ولوْلاَ ثلاثٌ هنَّ مـــنْ عيشةِ الفَتَى وجدِّكَ لم أحفـلْ متى قامَ عـوَّدِي

[1] عمر بن كلثوم: الديوان، ص71.

[2] طرفة بن العبد: الديوان، ص31.32.

[3] التلاعَ: جمع تلعة، كل ما ارتفع من مسيل الماء وانخفض عن الجبال، يسترفد: أي يطلب الرفد، وهو العون.

[4] المرجع نفسه، ص33.34.

فمنهـنَّ سبـقِي العــاذلاتِ بشُربـةٍ كميتٍ متـى ما تُعْلَ بالمــاءِ تُزبــدِ

وكـرِّي إذا نَادَى المضَــافُ محنَّبًـا كسِيدِ الغضَـــا نبّهتَه المتــورّدِ[1]

وتقصيرُ يوْم الدّجْنِ والدّجْنُ معجِبٌ ببهكنةٍ[2] تحت الطرافِ المعمّــدِ[3]

فإغاثة الملهوف عند طرفة بن العبد هي فضيلة تجعله يعيش لأجلها كقيمة إنسانية وأخلاقية تمكنه من مساعدة الآخرين والتعاون معهم وقت الحاجة، كما أن الشَّجاعة عند الشاعر فضيلةٌ وقيمة نترجمها بإقدامنا على مساعدة الآخرين دون تقاعس أو تخاذل، فالموت في نظر الشاعر هو القدر المحتوم ولا مفر منه، لذا فالإقدام والشجاعة لا يعجِّلان حياة الفرد أو يقرِّبان أجله، وفي نفس الوقت التمتع بملذات الحياة لا تجعل المرء خالدًا، يقول[4] في هذا السياق [الطويل]:

ألا أيّها اللائمِي أحضـرُ الوَغَـى وأن أشهدَ اللذات هل أنتَ مُخلِـدِي؟

فإن كنتَ لا تسْطِيعُ دفعَ منيَّتِي فدعني أبادِرُها بمـــا ملَكتْ يَـدِي

وإذا كانت الشجاعة التي نتحدَّث عنها هي البسالة والفروسية ومواجهة الصعاب والمخاطر دون فزغ فإن "عنترة بن شداد" أحسن مثال في هذا المقام، كيف لا وهو من استردَّ حريتهُ بشجاعته وقوته في الفتك، حتى أصبح يضرب به المثل في ذلك، وللشاعر شعر كثير يشهد على حكمنا هذا حيث نجده في معلقته يخاطب حبيبته "عبلة" بقوله[5] [الكامل]:

هلاَّ سَألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلَـــمِي

[1] المضاف: المذعور، محنبا: الذي في يده انحناء، السيد: اسم من اسماء الذئب، الغضا: نوع من الأشجار.

[2] البهكنة: المرأة الحسنة.

[3] الدجن: اليوم المطير.

[4] المرجع السابق، ص33 .

[5] عنترة بن شداد: الديوان، ص17.

يُخبرُكِ مـــنْ شهدَ الوقيعةَ أنّنِي أغشَى الوغَى وأعِفُّ عند المغنَمِ

فصورة "عنترة" في الحرب هي ذاك البطل المقدام الذي يرعب قلوب الأبطال، ويغشى الكريهة دون خوف أو تردد، كما أن هذه الشجاعة عند الشاعر نجدها ممزوجة بصفات الفارس النبيل التي تجعله يعف عن الغنيمة من المال، وهذه ميزة يمتلكها الفرسان الأقوياء والأبطال الحقيقيين الشرفاء، حيث يقول أيضا[1] [البسيط]:

كم ليْلةٍ سرتُ في البيـــــداءِ مُنفَرِدًا واللّيلُ للغربِ قدْ مَالت كَواكِبُـــهُ

سيفِي أنيسِي ورُمحِي كلَّــما نهمتُ أسْدُ الدّحَالَ إليْهَا مَــالَ جانبُــهُ[2]

وكــمْ غديرٍ مزَجتُ المـــاءَ فيه دمًا عند الصَّباح وراحَ الوحـشُ طالبُـهُ

يا طامِعًا في هلاكِي عُــد بلا طمَــعٍ ولا تَردِ كأسَ حتــفٍ أنت شاربُــهُ

فها هي صورة عنترة البطل المقدام الذي يجوب الفيافي ليلا منفردًا، لا يملك سوى رمحه وسيفه اللذين بهما يفتكُ بالوحوش على موارد المياه، فأي فرد يمتلك الشجاعة كي يواجه عنترة أو يريد اعتراض طريقه؟، أو قل من ذا الذي يريد تعجيل أجله كي يواجهه؟!.

أما "السموأل بن عادياء" فيقول في وصف الشجاعة في الحرب وحسن الخاتمة بقوله[3] [الطويل]:

ومـــا ماتَ منا سيّدٌ حتفَ أنْفِـــه ولا طُلَّ منَّا حيثُ كـــان قَتِيْـــلُ[4]

[1] المرجع السابق، ص71.72.

[2] نهم: أي أفرط في الشهوة، الدّحال: جمع دحل، ثقب ضيّق ثم يتسع أسفله حتى يمشي فيه.

[3] ديوانا عروة والسموأل: تح: كرم البستاني، دار بيروت، بيروت، (د/ط)، (د/ت)، ص91.

[4] حتف أنفه: مات فلان حتف أنفه، إذا مات على فراشه.

تسيلُ على حدِّ الظُّباتِ نفُوسنَا وليسَتُ على غيرِ الظُّباتِ تسِيْلُ[1]

فصورة الشجاعة عند "السموأل" هي الموت تحت ظلال السيوف وسط المعارك، وليس الموت الذي يسمونه "حتف الأنوف"؛ وهو الموت الذي يكون على الفراش داخل البيت في إشارة إلى الفرق بين النهايتين، فالأولى هي موتة العظماء والشجعان، أما الثانية فهي موتة الجبناء، أو على الأقل من يبقون في البيوت ولا يخرجون للمعارك ولا يواجهون الصعاب – حسب معنى ومقصد الشجاعة عند الشاعر في هذا البيت– .

والمعنى نفسه نجده عند "الحصين بن الحمام المري"[2] في قوله[3] [الطويل]:

تأخَّرتُ أستبقِي الحياةَ فلَمْ أجِـــد لنَفْـسي حياةً مثْلَ أن أتقدَّمَـــا

فلَسنَا علـى الأعقـابِ تُدْمى كُلُومُنـا ولكـــن على أقدَامِنَا تقطُرُ الدِّمَـا

فالحياة هي الشّجاعة والإقدام، والموت هو الخوف والإدبار والفرار، فكل ذي مروءة يجب أن يكون شجاعا مقدامًا، لا يتحلّى بصفة من صفات الغدر أو الجبن، فقول الشاعر هو أنه وقومه لا يفرُّون من القتال، فلا يقع الطعن إلا في نحورهم لهذا تسيلُ الدماء على أقدامهم لا على أعقابهم.

3– إباء الضيم:

إن العربي بطبعه يأبى الضيم ولا يؤمن بحياة الذُّل ولا يقيم عليها بتاتا، فهو ذلك المخلوق الحر الذي يظهر أكثر مما يبطن، عزيز النفس، كريم الخصالِ، شجاعٌ وعفيف، يملئ الكبرياء نفسيته، أقل ما يمكن أن نقول عنه أنه مثال للمروءة الكاملة.

---

[1] الظّبات: جمع ظبة، وهي حد السيف.

[2] هو الحصين بن الحمام المرّي بن ربيعة، كان سيد بني فهم ومقدمهم، وقد لقب ' مانع الضيم' وكان من أوفياء العرب...الخ، للتوسع ينظر: عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج01، ص265.

[3] المرجع نفسه، ص267.

«وقد كانت أخلاق العرب لاسيما البدو منهم وليدة الصحراء والحالة البدائية، فالبادية التي كانت حصنَ البدوي ومعتصمه دون هجمات الطامعين والفاتحين علّمته أن يكون طليقاً ينزع أبدًا إلى الحرية ولا يطأطئ رأسه أمام نير أجنبي »[1]، فتلك البيئة الصحراوية القاحلة وطبيعتها البدائية علّمت العربي أن يكون حرًّا طليقا، يتمتع بكل حرياته الطبيعية التي وُهب إيّاها وفُطر عليها، حتى أنه لا ينقاد لأي نظام أو قانون مسلّط يكبتُ نزعته التحررية، هذا ما مكنه من الحفاظ على كل تقاليده وأخلاقِه الحميدة من فكرة الضيافة وصبره على الشدائد وشجاعته وكرمه...الخ، «زد على ذلك كلّه ما كان للبدوي من إباء الضيم، وحرص على الحق إلى جنب استحلال القوي لغصب الضعيف »[2]، فعقيدته هي نبذ فكرة الخضوع، وتشرّب الهوان والذل على أيدي المتسلطين والطغاة ممن يزعمون القوة والبطش بالضعفاء والمساكين.

يقول"عمر بن براقة"[3] [الطويل]:

متَى تجمَعِ القلبَ الذَكيَّوصَارمًا وأنفًا حميًا تجتنبْكَ المظَالــمُ

فلا أسلم للمرء -كما قال ابن براقة- من التّحلي بالفطنة والشجاعة وعزة النفس، وكل صفات المروءة التي لا تقبل الذل والضيم كي تجتنبها المظالم، فالأنفة والعزة يجعلان المرء بعيدًا عن مطامع الظالمين، كما أن الذل والهوان عند العرب هو مجلبةٌ للاحتقار والازدراء، حيث نجد أبياتا للمتلمس[4] يقول فيها[5] [الطويل]:

أعاذلُ إنّ المـــــرْءَ رهْــنُ مُصيبَــةٍ صَريعٌ لعافِي الطيرِ أو ســوفَ يُرمــسُ

[1] حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص85.

[2] المرجع نفسه، ص85.

[3] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج21، ص114.

[4] هو جرير بن عبد المسيح، من بني ضبيعة، وأخواله بني يشكر، كان ينادم عمر بن الهند ملك الحيرة، وهو الذي كتب له إلى عامل في البحرين مع طرفة بن العبد...الخ، للتوسع ينظر: كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة، تح: أحمد محمد شاكر، ج01، ص117.

[5] المتلمس الضّبعي: الديوان، تح: حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية، (د/ط)، (د/ت)، ص110. 113.

فلا تقبلنْ ضيمًا مخافَـــــةَ ميتةٍ ومـــوتَنْ بها حُـــرًّا وجلْدُك أمـلسُ[1]

فمِنْ طلَبِ الأوتارَ مـــا حـزَّ أنفـهُ قصيرٌ وخاضَ الموتَ بالسَّيفِ بيهَـسُ[2]

ومـــا النَّاسُ إلاّ مـــا رأوا وتحدَّثـوا وما العَجزُ إلا أن يُضاموا[3] فيجلِـــسُوا

فالصورة عند الشاعر واضحة جلية تدعو إلى رفض الذل والهوان وركوب الإباء ودفع الضيم، والمرء مرهون بمنية ولا خلاص ولا مهرب له منها، فإمَّا أن يموت موت أنفه فيُقبر أو يموت في معركة فيترك لعوافي الطيور والسباع فعلى المرء أن يختار ويفضل الموت العزيز، والجملة التي استخدمها الشاعر "جلدك أملس" كناية على كون المرء نقيا لم يلحقه عار ولا دنس يشوه سمعته وشخصيته، كما أن دعوة الشاعر إلى موتة الأحرار والأبطال واضحة وعدم الخوف من الموت لما قد يلحق به من العار.

وهذه الفلسفة القائمة على دفع الضيم عن النفس، والموت موتة الأحرار، والحفاظ على سمعة الشخصية من العار الذي قد يلحقها، نجدها في موضع آخر تتجلى في تجنّب المحيط الفاسد كي لا يلحق النفس العار والبغض من الآخرين ممن قد يلحقونه بضرهم، فهجر الناس أفضل من تحمل أذيتهم، يقول "الشنفرى"[4] [الطويل]:

وفي الأرضِ منأَى للكريمِ عَن الأذَى وفيها لمـــنْ خافَ القِـلى متعزَّلُ[5]

ويقول أيضا 'عنترة بن شداد'[6] وقد خرج غضبان عن قومه [البسيط]:

ولا تجاورْ لئامًا ذلَّ جارهُم فخلِّهم في عراصِ الدَّارِ وارتحِلِ

[1] أملس: النقي العرض، والأصل هو الذي لا جرب فيه.

[2] الأوتار: جمع وتر وهو الثأر، قصير: رجل قام بقطع انفه، يضرب به المثل في الأخذ بالثأر، بيهس: رجل قتل له سبعة إخوة خاض حربا لأجل إخوته لإدراك ثأره.

[3] يضاموا: يذلّوا.

[4] الشنفرى: الديوان، تح: ايميل بديع يعقوب، ص58.

[5] القلى: البغض والكراهية.

[6] عنترة بن شداد: الديوان، ص154.

فالشعر عنترة يدعو إلى الهجر وترك المجتمعات التي تقبل الهوان والخنوع والذل في ساحتها أو في ساحة جيرانها، فقومه بحالهم هذه قد اضطروه إلى المغادرة وتركهم لذا وجب الذود عن الحمى ورفض حياة الذل مهما كان، ولأن الشاعر تملؤه الشهامة وعزة النفس لم يستطع المكوث في وضع يحسسه بمرارة وقسوة حياة الذل في نفسيته الأبية.

يقول أيضا[1] [الكامل]:

لا تسقِني ماء الحياةِ بذلَّةٍ بل فاسقني بالعزِّ كأسَ الحنظَلِ

ماءُ الحياةِ بذلَّةٍ كجهنَّمِ وجهنَّمُ بالعـــــز أطيبُ منزلِ

فعنترة خلُقه الإباء والكرامة، ولا يتنفس إلا نسمات الحرية التي رضع لبانها من تلك الحياة التي علمته كل مستلزمات الحرية والكرامة الشخصية، وإلا لما استخدم هذا التعبير بالذات فيفضّل عز جهنّم على ذل الحياة ونعيمها- حسب قوله-، كما أن زاد المرء هو كرامته وعزة شخصيته وعنفوانه، حيث نجد "زهير بن أبي سلمى"يقول[2] [الطويل]:

ومن يغتربْ يَحسبْ عدوًا صديقه ومن لا يكــرِّم نفسَه لا يُكــرَّم

أو كما قال "حاتم الطائي"[3] [الطويل]:

فنفسك أكرِمها، فإنَّك إن تهن عليك، فلن تلفى لك، الدّهر مُكرِمَا

فهكذا كانت عقلية العربي صاحب الأنفة والشرف يأبى كل طرق الضَّيم، يتملَّكُه الكبرياء والغيرة على الشَّرف، لا يخضع لأي كان، لا يخضع خضوع تملك وإنما خضوعه يكون خضوع عصبية تجاه قومه وقبيلته فقط.

[1] المرجع السابق، ص: 157.
[2] زهير بن أبي سلمى: الديوان، ص: 70.
[3] حاتم الطائي: الديوان، ص: 80.

4- رعاية الجار:

لعلّه من الغريب عند البعض أن نتحدث عن حماية ورعاية الجار في العصر الجاهلي، لكنّه في الحقيقة منطقي جدا أن نجد ميزة أخلاقية كهذه عندهم، هذا وبالإضافة إلى مجموعة من المبادئ التي أسَّست ونظّمت حياته، وجعلتها لحمة واحدة أمام الظروف القاسية التي كان يعيشها، فجميع الظروف التي كانت تحيط بحياتهم ومبدأ الحياة القائم على الكر والفر لم يقف عائقا أمام فرض أفراد القبيلة لمنطق حماية الجار من الأعداء والأخطار الخارجية التي قد تهدده، وعليه، «فإن أفراد القبيلة كانوا متضامنين أشد ما يكون التضامن وأوثقه، وهو تضامن أحكم عراه حرصهم على الشَّرف، وقد تكونت عندهم مجموعة من الخلال الكريمة...من مثل الحلم والوفاء وحماية الجار وسعة الصدر والإعراض عن شتم اللئيم والغض عن العوراء »[1]، ففي الوقت الذي كانت حياتهم مليئة بالمخاطر من مختلف الأعداء المغيرين في أي لحظة أو جماعة اللّصوص التي تعتمدُ النّهب والسّلب مبدأ الحياة، نجد أفراد القبيلة يلتفّونَ حول بعضهم البعض ذرأً لأي خطر يتربص بهم.

فالجار في الجاهلية مقدّر معزّز عند جارهّ، مبدأ يتشرَّبُه كل أفراد القبيلة كما تشربوا العصبية القبلية في نظامهم القبلي، لذا نجد شيخ الجاهلية وحكيمها "زهير بن أبي سلمى" يتحدث عن حق وعهد الجار بقوله[2] [الوافر]:

فلم أر معشرًا أســـرّوا هديًّا ولم أرَ جـارَ بيتٍ يُستَبَـــاءُ[3]

وجار البيتِ والرَّجلُ المنادي أمام الحـيِّ عقدهما سَــواءُ[4]

[1] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي-، ص67.

[2] زهير بن أبي سلمى: الديوان، ص14.

[3] هديًا: الهدي من القوم هو الرجل الذي له حرمة فيهم، يستباء: أي تسبى زوجته.

[4] المنادي: هو الرجل المجالس للقوم.

فلا أصدق من صورة كهذه تجعل الجار في مأمن وصون من جاره الآخر حتى يصبح الجار والصديق المجالس للقوم واحد.

أما عند الشاعر الكبير "الأعشى" فنجد الأمرَ يتجسَّدُ في شكل وصيةٍ أوصاه بها أبوه قبل أن يرحل عنه وتوافيه المنية بقوله[1] [البسيط]:

إن الأعـــــزَّ أبانَا قـــــالَ لنـا أوصيكـــــــم بثلاثٍ إنَّني تِـفُ[2]

الضّيفَ أوصيكُـــم بالضيفِ إنَّ له حقًّا عليًّا فأعطـــــــيه وأعتـــرفُ

والجار أوصيكُم بالجار إنَّ لـــــه يومًا من الدَّهر يثنيه ثم ينصـــرفُ

وقاتلوا القوم إنَّ القتل مكرمـــــةٌ إذا تلوَّى بكف المُعصِمِ العُـــرُفُ[3]

فوصية الأب لأبنائه هنا شملت أعز وأشد ما يفتخر العرب به من خصال وصفات، من كرم وجود وإقراء الضيف والاعتناء به، فهو له حق على المضيف- في نظر الشاعر-كما أنه يتوجب حماية الجار والدفاع عن حرمته، والشجاعة والقتال هي أحسن وسيلة للمرء للدفاع عن شرفه وعرضه من الخدش والاغتصاب من طرف الآخرين.

والحق يقال أننا لو لم نكن على علم بعصر الشاعر لقلنا إنها وصية تشبعت بتعاليم الإسلام أو على الأقل سمع صاحبها قوله تعالى:﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانًا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار الجنبِ وابن السبيل وما ملكت أيمانكم، إنّ الله لا يحبُّ كل مختالٍ فخور﴾[4].

[1] الأعشى: الديوان، اعتنى به وشرحه: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط01، 2005م، ص309.

[2] التلف: تلف من التلف أي الموت، أي أقر بحقه علي.

[3] العرف: عرف الفرس ، شعر ناصيته.

[4] القرآن الكريم: سورة النساء، الآية:36.

وتبقى هذه الأمور هي شيم البطولة النفسية في العصر الجاهلي تجمع بين مختلف الفضائل الإنسانية من كرم وشجاعة ورعاية الجار، كما أن نص الوصية مثلا لا نراه يحمل إشارة واحدة تدل على الحقبة الجاهلية وما ينسب لهذه الفترة، من صفات السفه والطيش والجهل ببعض فضائل النفس البشرية !.

ويقول "عمر بن الأهتم" يوصي ابنه[1] [الوافر]:

لقد أوصيتُ رِبعيَّ بن عمـــــرو إذا خزبت عشيرتكَ الأمــورُ

بأن لا تفسِدنْ ما قَــد سَعينــا وحفظُ السورةِ العـليا كبيــرُ[2]

إنّك لـــــن تنال المجدَ حتى تجـودَ، بما يضنُّ به الضـميرُ

وجـــاري لا يهينَنْهُ، وضيفـــي إذا أمسى ورَاء البيتِ كــورُ[3]

فوصية الأب للابن في هذه الأبيات واضحة تتمثل في الحفاظ على صورة المجد التي تركها الآباء والأجداد، أو الزيادة عليها من الأفعال والخصال الحميدة التي تجلب الثناء والرفعة، كالجود والكرم واحترام الجار وغيرها من الصفات، لذا فمضمون الوصية هنا هو دعوة صريحة لحفظ وإكرام الجار في الوقت الذي لا يُحفظ فيه جارٌ ولا يُقرى فيه ضيف.

أما "عروة بن الورد" أمير الصعاليك كما يلقبونه، فهو تمثال المروءة والإنسانية في العصر الجاهلي إذ يقول[4][الطويل]:

وإن جارتي ألوت رياحٌ ببيْتِها تغافَلتُ حتى يستُر البيتَ جانبُه

[1] المفضل الضبي: المفضليات، تح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط06، (د/ت)، ص 409.410.

[2] السورة: المجد.

[3] الكور: كور الرحل، وهو خشبه وأداته.

[4] ابن السكيت: شرح ديوان عروة بن الورد العبسي، ص153.

فهذه هي قيمة الجار ومكانته عند جاره، فأخلاق الشاعر لا تسمح له بأن ينظر إلى بيت جارته بعد أن ذهبت به الريح وألقته بعيد فانكشف كل شيء، فلا ينظر عروة إلاّ بعد أن يستُر البيت جانبه وعليه فإننا نجد أن حماية الجار واحترامه والذود عن حماه من أهم الشمائل والصفات المعنوية التي كانت العرب تعتز بها، وتحرص عليها أيما حرص، يلقنها الكبير للصغير، ويوصي بها الأب للابن في العصر الجاهلي.

الفصل الثاني

الأخلاق في الفكر الغربي والعربي الإسلامي

عناصر الفصل الثاني:

تمهيد:

أولا– تعريف القيم :

1– لغة

2– اصطلاحا

ثانيا – تعريف الأخلاق:

1– لغة

2– اصطلاحا

ثالثا – الأخلاق في الفكر الغربي:

1– الأخلاق عند سقراط

2– الأخلاق عند أفلاطون

3– الأخلاق عند أرسطو

4– الأخلاق عند أبيقور

رابعا– الأخلاق في الفكر العربي الإسلامي:

1– الأخلاق في القرآن الكريم

2– الأخلاق في السنة النبوية

3– الأخلاق عند الفارابي

4– الأخلاق عند مسكويه

تمهيد:

يعد موضوع الأخلاق من المباحث التي نجدها تحضر في شتَّى فروع العلوم الإنسانية، كالأدب والفلسفة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وغيرها من الميادين التي راحت تتناول هذا المبحث وتعطي له تفسيرا وتعريفا وفق مرجعيات كل علم من هذه العلوم، كما أن كل ميدان من هذه الميادين نجده يتناول النظرية الأخلاقية من زاويته التي يرى من خلالها هذه المسألة.

وليست النظرية الأخلاقية وليدة اليوم أو الأمس، بل نجد الاهتمام بها ضاربًا في جدور التاريخ والحضارات، ونخص هنا تحديدا الحضارة الإغريقية التي كانت ميدانا خصبا لنشوء مبحث الأخلاق وتطوّره بين مختلف التيارات الفلسفية، وعند جل فلاسفة اليونان باختلاف المذاهب و المدارس التي ينتمون إليها، حيث قلّما نجد فيلسوفا معروفًا لم يدرس النظرية الأخلاقية في دراساته، أو لم يُفرد لها مباحث مهمة في أبحاثه التي تناولها.

وليست النظرية الأخلاقية حكرا على الفلاسفة الإغريق فقط؛ بل هناك الكثير من العلماء والفلاسفة المسلمين من نهجوا نهج أسلافهم اليونان في تناول هذا الموضوع، كلٌّ حسب مبدئه ومنظوره وثقافته التي توجّهه وتصنع له رؤيته المحددة في مناقشة هذه المشكلة – إن صح التعبير–، والتي أطلق عليها علم الأخلاق.

وفي هذا الفصل من البحث ارتأينا أن نخصص مباحث تتناول هذه النظرية الأخلاقية، من تعريف للأخلاق، وكيفية حضورها في الثقافة الغربية وعند أشهر الفلاسفة اليونان، وأيضا حضورها في الثقافة العربية الإسلامية.

أولا– القيم لغة واصطلاحا:

1– لغة: عند التَّمعن في الجذر اللغوي للفظة "**القيمة**" فإننا نجد أنها مأخوذة عن الأصل الثلاثي "**قَوَمَ**"، فالأصل إذا الواو لا الياء، فقد جاء في الصِّحاح: «القيمة واحدة القيم وأصلُه الواو لأنه يقوم مقامَ الشّيء، ويقالُ قوَّمتُ السِّلعةَ... وقوَّمتُ الشَّيء، فهو قَويم، أي مستَقيم»[1]، ومنه تقويم الشيء أي تعديله وإزالةُ اعوجاجِه وجعله مستويًا، ففي هذا السّياق المستخدم للفظة نجد قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وذلك دينُ القيّمة﴾[2]، أي بمعنى دينُ الاستقامة، والقوامُ: العَدْلُ كقوله تعالى أيضا:﴿وكان بين ذلكَ قوامًا﴾[3]، فكل هذه الاستعمالات للفظة نجدها تدور حول الاستقامة والاعتدال وكذلك الثبات على حال واحدة، فقد جاء في القاموس المحيط أيضا:«والقِيمة بالكسر واحدة القيمِ وما له قيمةٌ إذا لم يدم على شيء»[4].

ونجد أن اللفظة أيضا تستخدم في تقويم السِّلعة وغيرها كما ورد في لسان العرب ذلك؛ «والقيمة ثمن الشيء بالتقويم، تقولُ تقاوَموه فيما بينهم... ويقالُ: كم قاومت ناقتكَ؟ أي كم بلغتْ، وقد قامت الأمةُ مائة دينار، أي بلغت قيمتها مائة دينار...»[5]، فهذا النوع الثاني من الاستخدام نجده في قيمة الشيء وثمنه، فقولنا قوّم السلعة أي قدّرها وجعل لها ثمنا وقدرًا محدودًا، كما أنه في هذا المجال من السياق المستخدم أيضا حول تقييم وتقويم السلعة لا نجد أيّة فرق حول كتابتها بالواو أو الياء فالتقييم والتقويم واحد ويراد به نفس المعنى.

ومما سبق نستنتج أن مادة "قوم" كما جاءت في مختلف المعاجم اللغوية قد تستخدم في عدة معاني وسياقات مختلفة فمنها:

[1] الجوهري: ج05، دار العلم للملايين، القاهرة، ط04، 1990م، ص2017.

[2] القرآن الكريم، سورة البينة، الآية: 05.

[3] القرآن الكريم، سورة الفرقان، الآية: 67.

[4] الفيروز آبادي: ج04، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط03، 1979م، ص165. 166.

[5] ابن منظور: تح: عبد الله علي الكبير، دار المعارف، القاهرة، ط01، (د/ت)، ص3783.

أ/ الاستقامة والاعتدال.

ب/ قيمة الشيء وثمنه.

ج/ الثبات والدوام على حال (الاستمرار).

ومنه يمكن لنا أن نشير في هذا المقام إلى أن معنى قيمة الشيء وثمنه في مادة "قوم"- مثلا- لا تهمنا في موضوعنا هذا، وهي بعيدة نوعا ما عن مقصدنا وغايتنا، ما يجعلنا مباشرة أمام مهمة البحث عن معنى اللفظة وسياقاتها في المجال العرفي الاصطلاحي.

2- اصطلاحا:

من المفاهيم التي ركّز عليها الباحثون وأفرطوا في الاهتمام بها وشرحها نجد مفهوم القيمة، هذه اللفظة التي يكسوها الكثير من الغموض والإبهام المكتَسب (في نظر الدارسين)، من تعدد المجالات التي تستخدم فيها كالفلسفة، وعلم النفس، والاقتصاد، وعلم الأخلاق وغيرها، هذا الأخير إنما ميداننا وغايتنا في هذا البحث، حيث سنحاول أن نتعرف على معنى القيمة في مجال الأخلاق والمعاملات الإنسانية، وماذا يقصد بالقيم الأخلاقية التي تعتبر عماد وأساس بناء كل مجتمع قوي؟.

تحدث "رالف بارتون بيري" عن القيمة بقوله: «كل شيء له قيمة، أو يعتبر قيّمًا...أو أي شيء هو موضوع اهتمام ونفع أو شغف من أي نوع»[1]، فالمعنى هنا الذي حدّده صاحبه يُشير إلى غاية أو شيء يُحدد يكون قيّمًا في ذاته بإصلاح النّاس-طبعا-، أي حول أهميته ونفعه للبشرية، فهي تخضع إلى معايير عقلية منطقية مسلَّم بها ومتّفق عليها، «فكلمة القيمة إذن اسم جيِّد ... تشير في نفس الوقت إلى تلك الناحية من الحياة الإنسانية التي تعودنا أن نستعمل لها الكلمات المباركة، وهي تشير إلى دلالات أخرى وتستعير المعنى البراق للصفات مثل: "الخيّر" و"الأحسن" و"الحق" و"الموجوب" وأسماء مثل "السعادة" و"الرفاهية" و"الحضارة" وهي تشير إلى اسم مشترك لما تسمِّيه هذه

[1] آفاق القيمة (دراسة نقدية للحضارة الإسلامية)، تر: عبد المحسن عاطف سلام، المركز القومي للترجمة، (د/ت)، (د/ت)، ص13.

الكلمات»[1]، ولهذا تكون القيمة اسم جامل لمجموع الصفات الجميلة والراقية، التي نستطيع تسميتها بالمبادئ التي يسعى إلى تحقيقها كل فرد.

وعند ربطها بالأخلاق تكون القيم الأخلاقية مجموعة المثل والقواعد التي تجعل صفة الفعل خيّرة، ومنه وجب علينا تطوير هذه القيم وتصنيفها مما هو مقدوح ومنبوذ لأن في معناها اللغوي أصلا دلالة على الأشياء الثمينة ماديا كالذهب، والألماس مثلا، ومعنوية كمبدأ العدل والحب وغيرهما، «كما أن تنمية القيم الخلقية تعتمد على فطرة الإنسان وما زُوِّد به من استعدادات، ولابد هنا من الإشارة إلى الفكر الإسلامي وتعاليم الإسلام الحنيف تلفت نظرنا إلى أن النفس الإنسانية هي مناط التربية الخلقية وتلفت نظرنا أيضا إلى أن هذه النفس تتسم بسمات متعددة مثل: الهوى، والشهوة، والحاجات والدوافع والشعور ليصبح سجية لها»[2]، فعملية التربية والممارسة السّلوكية لمختلف القيم في حياتنا اليومية تُنمَّى عن طريق مختلف المصادر والاستعدادات الفطرية والغير فطرية، والمتمثلة في مختلف القيم التي من وضع البشر بغية ضمان تعايش المجتمعات واستمرارها، لأنه «مثلما يتكلم الناس كافة في جميع لغاتهم بالنثر أسلوبًا يمارس النّاس كافة القيم سلوكًا»[3]، لهذا فأساس وأصل القيم جميعها هو واقعها الذي تُمارس فيه ولا وجود ولا أصل لها بعيدة عن واقع الممارسة.

ونستطيع أن نحدد تعريفا بسيطا في الختام للقيم بقولنا: هي مختلف الصفات والأفعال التي نمارسها وتصدر وفق معايير وأصول توجهنا نحو تحديد نوع الأفعال المرغوب فيها والمرغوب عنها.

[1] المرجع السابق، ص13.

[2] صالح بن عبد الله بن حميد و عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن ملوح: نضرة النعيم في مكارم الأخلاق الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم)، ج01، دار الوسيلة، جدة، ط01، 1998م، ص78.

[3] عادل العوّا: العمدة في فلسفة القيم، طلاس، دمشق، ط01، 1986م، ص09.

ثانيا– الأخلاق لغة واصطلاحا:

1– لغة: تدور الدلالة اللغوية للفعل "**خلق**" حسب ما جاء في المعاجم اللغوية حول طبيعة الإنسان وسجيَّته التي خُلق عليها، يقول "ابن منظور": «الخَلْقُ، بضم اللام وسكونها: وهو الدين والطبع والسَّجية، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها»[1].

فالخلق وجمعها أخلاق وصف لهيئة الإنسان وصورته الباطنة التي خُلق عليها وقدِّر على نحوها، كما أن صاحب القاموس المحيط يجعل الخَلق هو التقدير في مادة (خ ل ق) بقوله: «الخَلْقُ، التَّقديرُ والخالقُ في صفاته تعالى المبدعُ للشّيء المخترع على غير مثالٍ سَبَقَ، وصانعُ الأديمِ ونحوه وخلقَ الإفكَ افتراهُ كاختلقَهُ وتخلّقَهُ»[2].

والمعنى كذلك في قول "الراغب الأصفهاني": «الخلقُ أصله: التقديرُ المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصلٍ ولا احتذاء»[3]، فمعناه الخلق والإبداع الأول، حيث نجده في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿خَلقَ السّمواتِ والأرضَ﴾[4]، أي أبدعهما وخلقهما أول مرّة وأحدثهما بعد أن لم يكن لهما وجود مسبق، وأيضا قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿ويخلقكم في بطون أمهاتكم خلقًا من بعد خلقٍ في ظلماتٍ ثلاثٍ﴾[5]، فالله عز وجل في هذه الآية هو الموجد والمبدع الأول الذي أحدث شيئا معدومًا لم يكن له وجود مسبق كما أشرنا في الآية التي سبقتها، "فسبحان الله أحسن الخالقين".

[1] لسان العرب، ص1245.

[2] الفيروز آبادي: ج03، ص221.

[3] الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن واشتقاقها، تح: صفوان عدنان الداودي، دار العلم، بيروت، ط01، 1922م،ص296.

[4] القرآن الكريم، سورة الأنعام، الآية01.

[5] القرآن الكريم، سورة الزمر، الآية: 06.

وإلى جانب هذه المعاني يورد صاحب "مقاييس اللغة" معنى يؤكد به مجال اللفظة والسّياق العام الذي تدور فيه بقوله:«ومنه الخُلُقُ وهي السّجية، لأن صاحبه قد قدِّر عليه، والخلاقُ النّصيبُ؛ لأنه قد قدّر لكل أحد نصيبه»[1].

وبالعودة إلى الشعر العربي القديم نجد فيه حقيقة ما يدعم هذا المعنى ببيت شعري لزهير بن أبي سلمى يقول فيه[2] [الطويل]:

فلأنتَ تَفْري ما خَلقتَ وبعـ ضُ القومِ يخلُقُ ثمَّ لا يفْــرِي

فكلمة "**يَخلُقُ**" في سياق البيت الشعري هنا نراها قد استعملت في معنى التقدير، حيث من يخلق كمن يبدع شيئا من غير أصل ويحاول القيام به.

ويمكن اعتبار "الخلق" مجموعة من القواعد والصفات التي تحدِّد للشيء ماهيته وصفته من طرف خالق ونجد في هذا المعنى أيضا –تقدير الشيء– يقول الأزهري: «وفلانٌ خليقٌ بكذا أي جديرٌ به، وقد خُلقَ لذلك بالضَّم، كأنه ممن يقدر فيه ذلك وتُرى فيه مخائله»[3]، فهنا تكون اللفظة دالة على الصفات الباطنة والكامنة في النفس البشرية، و التي اكتسبها الإنسان وأصبحت كأنها خُلقت معه.

«والخلْقُ والخُلُقُ في الأصلِ واحد، كالشُّرب والشَّربِ، والصّرمِ والصُّرمِ، لكن خُصَّ الخلْقُ بالهيئات و الأشكال والصّور المدركةِ بالبصر، وخُصّ الخُلُقُ بالقوى والسَّجايا المدركة بالبصيرة»[4]، فالخلْقُ والخُلُقُ إذا عبارتان تستعملان معا، حيث يرادُ بالأولى مجمل الصور الظاهرة التي نراها بالعين المجردة، أما الثانية فيراد بها الأشياء والصور الباطنة التي لا نراها بأعيننا وإنما ندركها بأنفسنا وعقلنا، سواء كان ذلك خيرًا أو شرًا، فإن قيل مثلا هذا الشخص حسنُ الخلْق والخُلُق فإن المراد بذلك هو جمال شكله

[1] ابن فارس: تج: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت،(د/ط)، (د/ت)، ص214.
[2] الديوان، ص32.
[3] الصحاح، ج01، ص1471.
[4] الراغب الأصفهاني: المفردات، ص297.

ونفسه أيضا، أي ظاهره وباطنه، كما أن هذه الشاردة الأخيرة من التعريف إنما تقودنا نحو التعريف الاصطلاحي للأخلاق، حيث استعمالاتها على النطاق المتواضع عليه من خلال حضور القيمة الخلقية في القرآن والحديث النبوي، وبعض المعاجم الفلسفية التي تناولت باب الأخلاق.

2- اصطلاحا:

يوجد العديد من الأقوال والتعريفات التي اهتمت بالأخلاق وحددت ماهيتها وموضوعها على مرِّ العصور قديما وحديثا، حيث اهتم بموضوع الأخلاق الكثير من الفلاسفة والمفكرين سواء من الغرب أو من المسلمين، إذ نراهم يخصصون فصولا ومباحث واسعة في تحديد ماهية الأخلاق، وموضوعها وهدفها، وغايتها.

وعليه فقد قيل بأنها: «حالة للنَّفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا رويَّة، وهذه الحالة تنقسم إلى قسمين منها ما يكون طبيعيًا من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب، ويهيج من أقل سبب، ومنها ما يكون مستفادًا بالعادة والتدرب وربما كان مبدؤه بالرؤية والفكر ثم يستمر عليه أولا فأولا حتى يصير ملكةً وخلقًا ...»[1]، وهذا معناه أن الأخلاق هي حالة للنفس تصدر عنها الأفعال بكل سهولة ويسر من غير تكلفٍ زائد وجميع الأفعال الغير راسخة في الإنسان ليست بأخلاق، حيث مثلا نصادفُ غضب الحليم فجأةً أو جبن الشجاع، فذلك يدخل تحت التخلق أو التكلُّف لما لا تنطوي عليه نفسيته مثلا، لهذا فهي ليست صفات راسخة متأصلة في أصحابها وإنما صدرت عن أصحابها صدفة أو بعسر وتكلف زائد عن اللزوم، ويقول صاحب كشاف اصطلاحات الفنون: «الأخلاق في عرف العلماء، ملكة تصدرُ بها عن النفس الأفعال بسهولة من غير تقدّم فكر وروية وتكلّف، فغير الراسخ من صفات النفس كغضب الحليم لا يكونُ خلقًا، وكذا الراسخ الذي

[1] ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تح: حسين تميم، دار مكتبة الحياة، لبنان، ط02، 1989م، ص13.

يكون مبدأ للأفعال النفسية بعسر وتأمل كالبخيل إذا حاول الكرم، والكريم إذا قصد بإعطائه الشهرة»[1].

ويضيف "الطاهر بن عاشور" في هذا السياق قوله: «والخلق في اصطلاح الحكماء: ملكة (أي كيفية راسخة في النفس أي متمكنة من الفكر) تصدر بها عن النفس أفعال صاحبها بدون تأمل، فخلق المرء مجموعة غرائز(أي طبائع نفسية) مؤتلفة من انطباع فكري: إما كسبيٌّ ناشئ عن تمرُّن الفكر عليه وتقلّده إياه لاستحسانه إياه عن تجربة نفعه، أو عن تقليد ما يشاهده من بواعث محبة ما شاهد...فإن استقر وتمكن من النفس صار سجية له يجري أعماله على ما تمليه عليه وتأمره به نفسه بحيث لا يستطيع ترك العمل بمقتضاها»[2]، فجل هذه التعريفات السالفة تتفق في أن الأخلاق تصدر عن النفس بسهولة ويسر دون أيما تكلف، كما تتفق أيضا في مصدر هذه الأخلاق والسَّجايا حيث هناك ما يكون منها في طبيعة النفس وفطرتها التي جبلت بها، أو ما يكون منها مكتسبًا عن طريق العادة، أو الميول، أو التقليد الذي يجعل الصفة تتأصل في صاحبها حتى لتصير سجية طبيعية تقوم بها النفس بعفوية ولا تترك العمل بمقتضاها أبدا، لهذا يمكن شرح هذا التعريف بأن المقصود منه هو جميع السجايا والصفات الخلقية التي لا يمكن لها أن تتغير- على الأقل بسهولة واضحة-.

«وقد يطلق لفظ الأخلاق على جميع الأفعال الصادرة عن النفس محمودة كانت أم مذمومة فتقول فلان كريم الأخلاق، أو سيِّء الأخلاق، وإذا أطلقَ على الأفعال المحمودة فقط دل على الأدب لأن الأدب لا يطلق إلا على المحمود من الخصال»[3]، فالأخلاق إذن قد تطلق على جميع الأفعال الصادرة عن النفس، الفاضلة منها والمنحطة، الخيرة والشريرة، الحسنة والقبيحة، ففي محكم التنزيل قوله تعالى حين خاطب رسوله الكريم وأراد أن يصور لنا صفة خلقه وأفعاله قال: ﴿وإنّك لعلى خلقٍ عظيم ﴾[4]

[1] التهانوي: تح: رفيق العجم وعلي دحرج، مكتبة لبنان، لبنان، ط01، 1996م، ص762.
[2] الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، الدار التونسية النشر، تونس، (د/ط)، 1984م، ص172.
[3] جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج01، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د/ط)، 1982م، ص49.
[4] القرآن الكريم، سورة القلم، الآية: 04.

أي أنت يا محمد لعلى أدب عظيم من الصفات الحسنةِ والأخلاق الرفيعة، لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) حقيقة كان خلقه القرآن.

وتطلق لفظة "خليق" على وزن "فعيل" على الصفات الطبيعية في المرء التي تولد معه أو تتأصل فيه وتكون من طبعه، كما قال الشاعر "زهير بن أبي سلمى"[1][الطويل]:

ومهما تَكنْ عند امرئٍ من خليقةٍ وإن خَالها تُخفَى على النَّاسِ تُعلـمِ

فالخليقة هنا يريد بها الشاعر الأخلاق التي تكون طبيعة في المرء ومن فطرته وسليقته الأولى، كما نجد فالشاعر الآخر "عي بن زيد" يقول في بيت شعري له[2][الطويل]:

إذا ما تكرَّهتَ الخليقةَ لامرئٍ فلا تغشَها واجلدْ سِواها بمجلـــــدِ

والبيت الثاني في الحماسة "واقصد سواها بمقصد"، فالخليقة في المرء إذن هي الصفة المفطور عليها والتي تميّزه عن غيره ويصعب التخلي عنها بسهوله، لهذا نجد الشاعر يدعو إلى قصد غيرها وعدم المحاولة معها، وهناك «فكرتان يتحدَّد بهما معنى الخلق وجمعه أخلاق، الأولى الرسوخ بمعنى الثبات والدوام، والثانية التلقائية (هيئة راسخة من غير تكلف) والملاحظ أن الخلق بهذا غير السلوك، فهو ملكة، أو هيئة في النفس تصدر عنها الأفعال: فهي منبع السلوك وهذا شيء لابد من استحضاره لدراسة النصوص القديمة... فالسلوك في الحقل الثقافي العربي القديم هو ممارسة الفعل وليس الفعل ذاته... فالكرم خلق للنفس أما إكرام هذا الضيف أو ذاك فهو سلوك، والفرق هو أن الكرم صفة راسخة في النفس، أما سلوك مسلك الكريم فهو فعل صادر عن تلك الصفة»[3].

وما يمكن استنتاجه في الأخير أن لفظة 'خلق' وجمعها الأخلاق قد تأتي على عدة استعمالات منها:

[1] زهير بن أبي سلمى: الديوان، ص70.

[2] عدي بن زيد العبادي: الديوان، تح: محمد جبار المعيبد، شركة دار الجمهورية للنشر والطباعة، بغداد، (د/ط)، (د/ت)، ص108.

[3] محمد عابد الجابر: العقل الأخلاقي العربي (دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط01، 2001م، ص33.

1- قد تأتي للدلالة على الهيئة الموجودة في النفس والتي تعطينا أفعالا دون روية أو فكر وهذا يتوافق مع ما نسميه الفطرة والطبع والسجية "caractère".

2- قد تأتي للدلالة على الحالة المكتسبة بالعادة أو التقليد والممارسة، حتى يصير الإنسان خليقا بها فتصبح من مزاجه وطبعه.

3- تأتي كلمة خلق مقرونة بصفة حسن أو سيء للدلالة على الهيئة الراسخة في الإنسان إن كانت حسنة أم سيئة.

ثالثا– الأخلاق في الفكر الغربي:

يختلف جمهور العلماء والفلاسفة بصفة خاصة في تحديد ومعرفة المقاييس الأخلاقية، وذلك باختلاف زوايا النظر وكذا المذاهب الفلسفية التي تؤسس لكل واحد منهم رؤيته وفكره النظري، الذي يصبح فيما بعد مذهبا أو تيارا فلسفيا يقوم بقيام أصحابه ورواده، فنرى مثلا نزاعات حول مختلف المذاهب كالنفعيين، والرواقيين، والحدسيين، والعقليين، والماديين والحسّيين، وغيرهم من المذاهب التي راحت تتحدث بإسهاب في تعريف الأخلاق وغايتها وميدانها.

فقد تعددت القضايا التي تناولتها فلسفة الأخلاق بتعدد الرؤى، فمن ذلك إشكالية طبيعة الأخلاق هل هي ذاتية أم موضوعية؟، فذاتية الأخلاق بمعنى أنها من وضع العقل واختراعه كما أقر بذلك مجموعة من الفلاسفة الوجوديين أمثال "جون بول سارتر" وغيره من الفلاسفة الآخرين ممن يؤيدون هذا الطرح.

أما موضوعية الأخلاق فهو وجود القيم الأخلاقية بمعزل عن العقل، حيث لها وجود مستقل خارج عن الذات الإنسانية، و"أفلاطون" هو أحد رواد هذا الطرح الذي يقرُّ بموضوعية الأخلاق، لذلك يرى بأن الأخلاق موجودة حقيقة في عالم المثل، (عالم ما قبل الحسي أو المادي حيث تكون فيه الأشياء حقيقية تتصف بالكمال عكس العالم المحسوس الذي يكون صورة مستنسخة فقط لهذا العالم) الذي يعتبر عنده وجود مثالي مختلف هذا الوجود الذي نحياه ونعيشه نحن الآن.

وبالإضافة إلى ذاتية وموضوعية الأخلاق نجد كذلك السؤال القائل هل الأخلاق نسبية أم مطلقة؟ لهذا «فالقانون الخلقي عند جمهرة أتباع السعادة عام مطلق وهو عند اللّذيين نسبي متغير لأنه يقوم على الحساسية ولا يستند إلى العقل، وطاعته مرهونة بنتائج الفعل وآثاره وهي عند أتباع السعادة مقطوعة الصلة بالنتائج موقوفة على البواعث والمقاصد»[1]، وعليه فإن القانون الخلقي عند أتباع اللذة نسبي متغير لأنه يقوم على ما يتركه لنا الفعل من منفعة شخصية، والقانون الخلقي يستمد شرعيته

[1] توفيق الطويل: مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط01، 1953م، ص35.

عند أتباع مذهب اللذّة من الجزاءات التي تخلفها الأفعال، أما عند أتباع السعادة فإن الأخلاق أو القانون الخلقي مطلق ثابت لأنه يحمل الجزاء في بواعث مقصدية الفعل في حد ذاته، فأصحاب الرأي أو المذهب الأول «يجعل الناس لا يحكمون على عمل إلا بعد حساب لذائذة وآلامه»[1]، وهذه الرؤية تعجز عن ملامسة لب القيم الأخلاقية التي تتميز بجمال وقداسة في حد ذاتها.

وبهذا سنقوم باستعراض بعض آراء الفلاسفة اليونانيين حول موضوع الأخلاق أو النظرية الأخلاقية:

1- الأخلاق عند سقراط[2]: (469ق.م- 399ق.م).

يعتبر سقراط خصما عنيدًا للسّفسطائيين الذين هدموا البحث الموضوعي بسلوكهم وتفلسفهم الزائد حيث جعلوا مكانه بحثا ذاتيا هو الأساس الذي يشيدون عليه نظريتهم الأخلاقية وقواعد العلوم لديهم، فقد كانت نظرة "سقراط" ونتائجه في البحث تختلف تماما مع ما تلك التي وصل إليها السفسطائيون؛ «لأن السُّفسطائيين كانوا مجادلين مغالطين وكانوا متجرين بالعلم، أما الجدل فقد وقفوا عليه جهدهم كله خرجوا من مختلف المدارس الفلسفية لا يرمون لغير تخريج تلاميذ يحذقونه، وكانوا يفاخرون بتأييد القول الواحد ونقيضه على السواء، وبإيراد الحجج الخلابة في مختلف المسائل والمواقف، ومن كانت هذه غايته فهو لا يبحث عن الحقيقة»[3]، لهذا كانت رؤية سقراط مغايرة تماما لنظرة السفسطائيين الذين يزوقون المحادثات ويلقون خطبًا مسهبة من أجل استمالة الجمهور وخداعه بمختلف التعابير المنمَّقة التي تستميل الضعفاء والجهّال من الناس.

يعتبر العقل عند "سقراط" هو أساس المفاهيم الأخلاقية كلها، فهو بهذا «يضع المعرفة كلها في المفاهيم إنما يجعل العقل أداة المعرفة وهذا متعارض على خط مستقيم مع مبدأ السفسطائيين الذين وضعوا المعرفة كلها في الإدراك الحسي، ولما كان العقل هو العنصر الكلي في الإنسان فإنه سيترتب

[1] أحمد أمين: الأخلاق، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط03، 1931م، ص58.57.

[2] فيلسوف يوناني، ولد في الوبكية بآتيكا، كان أبوه نحاة يدعى سوفرونيسكوس، وأمه قابلة تدعى فينارته، من الرجال العظماء الذين طبقوا مبادئهم وأفكارهم بالرغم من أنها كلفته حياته...(للتوسع ينظر، معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي: دار الطليعة، بيروت، ط03،2006م، ص365).

[3] يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، هنداوي للنشر، القاهرة، (د/ط)، 2012م، ص61.

على التوحيد بين المعرفة والمفاهيم أن سقراط إنما يستعيد الإيمان بالحقيقة الموضوعية الصادقة بالنسبة للجميع ومدمرة للتعاليم السفسطائية القائلة أن الحقيقة هي ما يختاره كل فرد على أنه حقيقي»[1] فنظرية المعرفة عند "سقراط" تتعلق بمعايير موضوعية بعيدة عن دواتنا، فهي مستقلة عنا وليست كما يزعم السفسطائيون بأنها تتعلق بإحساسات الفرد وميولاته، فما نراه حقا وفضيلة فهو كذلك، وما لا نراه فهو غير ذلك.

ولأن نظرة وقراءة "سقراط" مؤسَّسة وبنّاءة «فقد ذهب إلى أنه لا فضيلة إلا المعرفة يريد بذلك أن معرفة الإنسان على الشر ليس له من سبب إلا الجهل بنتائجه، فلو علم الإنسان نتائج الشر علما جازمًا صحيحا لم يقدم عليه، فكل الشرور ناشئة من الجهل ولو علم المرء أين الخير لعمله حتما وعلَّل ذلك بأن كل إنسان يقصد بطبيعة الخير لنفسه، فما يصدر عن الإنسان من الخطأ إنما منشؤه الجهل بما يعقب العمل من نتائج أو الشك فيها»[2].

فمن خلال هذا القول نخلص إلى أن سقراط يرى بأن لا فضيلة إلا واحدة وهي المعرفة فمعرفة المرء هي من تحمله على التحلي بالقيم الأخلاقية الراقية، كالشجاعة، والعفة والعدل...الخ، وأن جهله وقصوره عن معرفة عواقب الأفعال يؤدي به إلى الأفعال الشريرة، ولهذا نرى "سقراط" قد «آثر النظر في الإنسان وانحصرت الفلسفة عنده في دائرة الأخلاق باعتبارها أهم ما يميز الإنسان، وهذا معنى "شيشرون": إن سقراط أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض؛ أي أنه حوّل النظر من الفلك والعناصر إلى النفس، وتدور الأخلاق على ماهية الإنسان»[3].

وبهذا نجد أن "سقراط" قد بنى منهجه على رؤية عقلية استنباطية تدعو إلى التأمل والتدقيق في الأشياء وماهيتها من خير وشر، وشجاعة وجبن، وحب وكره وحكمة وجنون، فهو دائم البحث في حد

[1] والتر ستيت: تاريخ الفلسفة اليونانية، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، (د/ط)، 1953م، ص126.
[2] أحمد أمين: الأخلاق، ص133.
[3] يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، ص70.

الأشياء وماهيتها بطرح مختلف التساؤلات التي توصله إلى معرفة الأشياء وإدراك كنهها، لأن معرفة تلك الأشياء على طبيعتها تجعل الفرد يقوم بما هو صائب وأخلاقي في نظره.

2- الأخلاق عند أفلاطون[1]: (427 ق.م- 347 ق.م).

يعد أفلاطون من كبار الفلاسفة اليونانيين الذين خُلّدوا عن طريق نتاجهم الفكري الفلسفي في مختلف المجالات وشتى المباحث، وقد تناول أفلاطون الجانب الأخلاقي بالذات في أغلب دراساته وأعطاه قيمة كبيرة، لأنه بالنسبة إليه جانب مرتبط بشدة بمباحث الفلسفة تحت باب أبحاث في النفس الإنسانية بكل ما تحمله من فضائل وسلوكات.

«إن غاية السلوك الأخلاقي لابد أن تقع داخل نطاق العقل الإنساني نفسه لا خارجة أعني أن الأخلاق لابد أن يكون لها قيمة ذاتية أو قيمة في ذاتها لا قيمة خارجية حسب، وبمعنى آخر: أننا يجب أن نفعل الخير لا من أجل شيء آخر، بل أن نفعل الخير لأنه خير وبالتالي تكون الفضيلة غاية في ذاتها»[2]، فما يفهم من القول أن أفلاطون قد رفض وعارض بشدة النظرية السفسطائية التي تنصُّ بجعل غاية الأخلاق خارج نطاق الأخلاق، فالفعل الخلقي وسيلة تحقق لنا اللذة فقط، أما أفلاطون فقد بنى نظريته الأخلاقية على العقل، «لهذا نستطيع القول بأن أفلاطون نفسه بنى فلسفته الأخلاقية كلها على مقولة أستاذه سقراط؛(أعرف نفسك)، إن معرفة الأشياء إذن تبدأ حين يعرف الإنسان قدر نفسه، علينا أن نكون يقِضيْ العقل، ونحكم على أنفسنا بأنفسنا بما فيه من خير وشر...وعليه فأفلاطون يلح على إخضاع النفس للعقل»[3]، فالعقل عند أفلاطون هو سلطان عادل ولا يمكن أن نبني قانوننا الأخلاقي على المنفعة الفردية التي تزول بزوال تلك اللذة التي تعقب الفعل مباشرة والتفلسف الأفلاطوني مبني على العقل والتفكير السليم، «إن هدف التفلسف السقراطي الأفلاطوني

[1] فيلسوف يوناني، ولد بأثينا، تتلمذ على يد سقراط وفلسفته تقسم إلى ثلاث أقسام هي: الجدل والطبيعة والأخلاق...(ينظر: الموسوعة العربية الميسرة،ج01، دار الجيل، بيروت،(د/ط)، 2001م، ص342.

[2] حسين حمزة شهيد: الأخلاق في فكر أفلاطون الفلسفي، مجلة جامعة الكوفة، 2008م، ع10، ص262.

[3] ناجي التكريتي: فلسفة الأخلاق بين أرسطو ومسكويه، دار دجلة، عمان، 2012م، ص12.

ليس أن يفقد المرء سيطرته على عقله بل أن يصل إلى حالة من الوضوح الكامل يقوم على وعيه بذاته وعيا يطبق الحكمة المعروفة: «أعرف نفسك بنفسك »[1]، فمن خلال هذا المنطلق يعمم أفلاطون فكرته التي ترفض أن تقوم الأخلاق على أساس ما هو موجود عند الناس كلٌّ حسب رؤيته ومنفعته وذوقه الشخصي، فالأخلاق قائمة على العقل وحده ولا دخل للمشاعر والأذواق الفردية.

3- الأخلاق عند أرسطو[2]: (384ق.م- 322ق.م)

لاشك في أن أرسطو من كبار الفلاسفة الذين كتبوا في جميع فروع المعرفة، فقد كان ذا اطلاع واسع على التراث اليوناني، مطَّلعا على كتب أستاذه "أفلاطون" خاصة، فقد أولى أرسطو للدراسات الأخلاقية اهتماما بالغا مما جعله يؤلف في علم الأخلاق أكثر من كتاب أشهرها؛ "علم الأخلاق إلى نيقوماخوس" أو كما يسمى هذا الكتاب "الأخلاق النيوماخية".

ينظر أرسطو إلى الأفعال الأخلاقية الممارسة مع الغير بأهمية كبيرة فهو «يرتضي أن يكون علم الأخلاق نظريًا فحسب، بل أن العلم يراد لأجل العمل، وأن على الأخلاق هدفه أن يصيِّرنا فضلاء لابد من إتباع العقل في العمل، ليكون تصرفنا تصرفا أخلاقيا وكي نكسب ملكتنا الحميدة»[3] فأرسطو إذن يرفض فكرة علم الأخلاق النظري المجرَّد من العمل والسلوك، لأن الممارسة تكسبنا فضائل أخرى جراء العادة ومواصلة السلوك في اتجاه معين، الأمر بعيد عن هذا بالنسبة للفضائل فإننا لا نكسبها إلا بعد أن نكون قد مارسنها قبلاً وحاولنا القيام بها في الواقع المعاش تطبيقيا، فالحال فيها إنما هو كالحال في جميع الفنون الأخرى التي نتعلمها، لأنه في الأشياء التي لا يمكن فعلها إلا بعد تعلمها نحن لا نتعلمها إلا بممارستها، فمثلا نجد البناء يصبح كذلك بعد أن يمارس البناء، ويصير

[1] عزة قرني: أفلاطون في السفسطائيين والتربية (محاورات بروتاغوراس)، دار قباء، القاهرة، (د/ط)، 2001م، ص48.

[2] فيلسوف يوناني، ولد في اسطاغيرا (تعرف اليوم باسم ستافرو)، وتوفي في خلقيس، يعتبر من أعظم نوابغ النظر العقلي في تاريخ الفلسفة اليونانية، (للتوسع يُنظر: معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، ص52.)

[3] ناجي التكريتي: فلسفة الأخلاق بين أرسطو ومسكويه، ص58.

وموسيقيا بعد أن يمارس الموسيقى كذلك، كما يصير المرء حكيما بممارسة الحكمة، وشجاعا باستعمال جميع مظاهر الشجاعة أيضا[1].

وعليه فالأخلاق والفضائل عند أرسطو تنمو وتتطور من خلال الممارسة، لذا نراه يعطينا أمثلة حية في مختلف الفنون المختلفة التي يمارسها الفرد، فكلما واصل الفرد أو الفنان عمله كلما اكتسب خبرة وأبدع أكثر في عمله وإن تكاسل يكون نتاجه رديئا.

ومهما يكن من الأمر فإن تعدد الرؤى عند الفلاسفة اليونانيين لا يمكن جعل الأخلاق عندهم خارجة عن نطاق السعادة، «وشبيه في كثير من الوجوه يمكن أن يقالَ أن أرسطو وموقفه من النفعية إذا اعتبر الخير الأقصى سعادة، ورأى أن الفعل الخلقي يقترن عادة بوجدان من المتعة الذاتية، فشابه من المحدثين في أن السعادة عندهم تضمن وجدان المتعة ولكن بينها فارقا ملحوظًا، إن الفعل الخلقي عند أرسطو لا يكون خيرا لأنه يحقق متعة، بل إنه يحقق متعة لأنه خير»[2]، فأصحاب النفعية الحديثة تعتبر المتعة أساس القيمة الخلقية، في حين نجد "أرسطو" يقر بأن المتعة تنشأ عن القيمة الخلقية فالقيمة عنده غاية وليست هدف.

ونجد أن أرسطو يجعل للفضائل الأخلاقية طريقا واحدا ألا وهو الوسط أو الاعتدال والوسطية في كل شيء؛ «فالوسط الأخلاقي إذن هو الكمال الذي لا يوجد إلا في الفضيلة والفضيلة هي الوسط الذي نطلبه بلا انقطاع»[3]، والكيفية التي تجعل الإنسان فردا صالحًا هي تلك الوسطية حيث لا إفراط ولا تفريط، «فالشجاعة عنده وسط، أما الإفراط فيها فهو تهور، والتفريط فهو جبن، الاعتدال هو الوسط في ممارسة اللذات التي لا يلحق بها ألم، أما الإفراط في اللذات فهو الفجور والتفريط هو الخمود والتصرف بالأموال فإن الوسط هو السخاء والإفراط هو الإسراف، أما التفريط فهو البخل»[4].

[1] ينظر: أرسطو طاليس: علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، تر: أحمد لطفي السيد، ج01، دار الكتب المصرية،(د/ط)، 1924م،ص227.
[2] توفيق الطويل: مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، ص31.
[3] ناجي التكريتي: فلسفة الأخلاق بين أرسطو ومسكويه، ص61.
[4] المرجع، نفسه، ص62.

وعليه فإن مبدأ الوسط أو الاعتدال هو أهم ما يميز فلسفة أرسطو الأخلاقية وبالتالي اختيار الوسط لا يكون عشوائيا أو سهلا في متناول الجميع، بل يتأتى لأصحاب العقول النيّرة السليمة وأصحاب النفوس القوية كذلك.

4- الأخلاق عند أبيقور[1]: (341ق.م- 270ق.م) (الأبيقورية .epicurisme).

تتمحور الأطروحة الأساسية في فلسفة "أبيقور" الأخلاقية حول اللذة إذ تعتبر الخير الأسمى الذي يسعى إليه الإنسان وهي غاية الحياة السعيدة؛ «فقد قال أصحاب هذا المذهب: إن كل إنسان يجب أن يبحث وراء لذائذه هو وسعادته، ويعمل ما يوصله إلى ذلك، والعمل الذي يوصله إلى تلك الغاية أو يقربه منها يكون خيرا»[2]، فالصورة واضحة إذن عند أصحاب هذا المذهب فالإنسان لا يجب أن يتردد في القيام بعمل معين بل ينظر إلى لذائذه ونتائجه فإن كانت لذائذه أكبر كان العمل خيرًا وعلى هذا الأساس يصبح الإنسان رافضا لكل ما من شأنه أن يسبب له ألما وضررا لنفسه، والحكيم هو من يستطيع إثبات رغباته الضرورية بالطريقة الكافية المثالية.

«ويعنينا من ممثلي هذا الاتجاه في ذلك العصر الفيلسوف "أبيقور" كونه يمثل اللذّة الفردية التي هي الخير الأسمى، وأن الألم هو الشر الأقصى، ولكن أبيقور عدّل مدلول اللذة وجعله أرحب مما كان عند القورينائية[3]، فشمل على يديه لذات الحس ولذات العقل والروح جميعا»[4]، فمن خلال هذا القول نفهم بأن اللذة عند "أبيقور" والتي هي أساس العمل الخلقي ليست نفسها اللذة عند القورانيين، فهو (أبيقور) نجده «يرى بأن الحكيم هو الذي يعمل على ضبط نزعاته، ويعرف ما يستحق الإشباع وما يستحق القمع وإذا كان الجسم يتعرض للألم ولا يستطيع أن يتفاداه فإن العقل يستطيع أن يخفف من

1 Epicurisime الأبيقوري هو المنسوب إلى أبيقورس، ويطلق على أنصار مذهبه، أو على ما يتعلق بهذا المذهب، والأبيقورية مذهب أبيقورس القائم على إسعاد الذات بلذة معنوية لا يعقبها ألم- ينظر: الدكتور جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ص34.

[2]أحمد أمين: الأخلاق، ص36.

[3]تنسب إلى "أرستيوس" منشئ هذا المذهب، حيث تعتبر اللذة عندهم الخير الأقصى، وهي معيار جميع القيم الخلقية، إلا أن القورينائيين يقرون كذلك بأن الحكمة والمعرفة من أفضل ما يمتلك الإنسان، فالحكيم من يتبصر الحكم على الأشياء عندهم- (ينظر: كتاب مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق لتوفيق الحكيم).

[4]توفيق الطويل: مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، ص51.

حدّة الألم الجسماني بما يهيئه الإنسان من قدرة على تذكر اللذة الماضية وتوقع اللذة المقبلة، من هنا نشأت التفرقة بين كيف اللذات عند"أبيقور"، ووضّح الخلاف بين مذهبه من ناحية والمذهب الحسي الدارج كما يبدو عند القورينائية من ناحية أخرى»[1].

فأسمى اللذات عند "أبيقور" ما كان عقليا معنويًا يحقق لنا الطمأنينة وراحة البال، حيث يصرح بقوله: «إن خير اللذائذ هُدوءُ البالِ وطمأنينة النفسِ، وأن سعادة الإنسان تعتمد على حالته النفسية أكثر مما تعتمد على الظروف الخارجية ...واللذائذ الجسمية الطاهرة ليست محرّمة ولا مرذولة ولا ضرر على العاقل من أخذ حظه منها من غير إفراط»[2]، فأبيقور قد ركز على اللذة العقلية الروحية السامية مثل راحة البال والطمأنينة، فهو قد ضبط بشكل واضح مفهوم اللذة وحدد لها معايير واضحة في فلسفته الخلقية الخاصة، وهذا التحديد الذي وضعه "أبيقور" للذة هو أساس التفرقة بينه وبين القورينائيين الذين يرون بلذة الجسد قبل لذة الروح والعقل.

ويقرُّ "أبيقور" بأن العقل هو وحده من يستطيع أن يتصور ما هو خير وما هو شر، وكل ذلك نجده مقترن بالحواس بطبيعة الحال، فالعاقل منا يجب أن يرفض لذة وقت ما يجد أخرى أكبر منها، ولهذا فضّل اللذة العقلية على اللذة الجسمية لأن هذه الأخيرة سريعة الزوال في نظره إذا ما قيست بتلك اللذة الباقية.

ومنه نستطيع في الأخير أن نحكم على هذا المذهب بأنه مذهب شُوِّه وفُهم بالخطأ فكما قال أحمد أمين: «لقد غلط بعض الناس ففهموا أن مذهب "أبيقور" يدعو إلى الانهماك في اللذّات الجسمية والجري وراء الشهوات، حتى أطلقوا كلمة "أبيقوري" على الفاجر المنهمك في شهواته، مع أن تعاليم أبيقور بعيدة عن ذلك، وقد ندّد هو نفسه في بعض كتبه بمن يفهم من قوله هذا الفهم السَّقيم»[3].

[1] المرجع السابق، ص51.52.
[2] أحمد أمين: الأخلاق، ص37.
[3] المرجع نفسه، ص38.

فالأبيقورية إذن تدعو إلى الانغماس في اللذات العقلية الدائمة والابتعاد عن اللذات الجسمية الحسية الزائلة، والقيمة الخلقية عند أنصار هذا الاتجاه هي تحقيق أكبر لذة ممكنة للنفس الإنسانية.

رابعا– الأخلاق في الفكر العربي الإسلامي:

لقد قدمنا في المبحث السابق بعض الرؤى والنظريات الأخلاقية كنماذج من الفكر اليوناني وفلاسفته المنظِّرين، وقد تباينت الرؤى باختلاف المذاهب والاتجاهات الأخلاقية حول مصدر الفعل الأخلاقي حيث نجد "سقراط" مثلا يرى في المعرفة أساس الفعل الأخلاقي، أما "أبيقور" فيرى في اللذة والمنفعة الشخصية الهدف الرئيسي، كما نجد كذلك نظرة أفلاطون وتلميذه "أرسطو" التي تزيد من الهوة حول الاختلاف في النظرة الأخلاقية بحسب كل فلسفة وكل اتجاه.

أما في حضارتنا ومع الفكر العربي الإسلامي فنجد أن الدين الإسلامي قد وضع كل القواعد والمبادئ الأخلاقية متكاملة ومتناسقة في أحسن صورة يمكن أن تكون عليها، محققة للإنسان أحسن السبل نحو نيل السعادة في الدنيا والآخرة، «فغاية السّلوك الخلقي القيمي في الفكر الإسلامي هو سعادة الإنسان في الدنيا والفوز في الآخرة، فهما مرتبطان ارتباطا وثيقا بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر»[1]، وبهذا نجد أن مجمل القيم الأخلاقية السليمة التي وضعها الشرع الإسلامي واجب على كل فرد ينتمي إلى هذا الشرع الالتزام بها، وإتباعها في أحسن صورة كما نص عليها القانون الشرعي والذي يسعى إلى تحقيق أعلى درجات السعادة والراحة والنظام داخل المجتمع الواحد.

ويتمثل المصدر الرئيسي للقيم الأخلاقية في الفكر الإسلامي في القرآن الكريم (الدستور المشرع) أولا والسنة النبوية الشريفة ثانيا، والمكملة لشرع الله ممثلة في أفعال وأقوال خير خلق الله محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم).

[1] مانع بن محمد بن علي المانع: القيم بين الإسلام والغرب(دراسة تأصيلية مقارنة)، دار الفضيلة، الرياض، ط01، 2005م، ص69.

1- الأخلاق في القرآن الكريم:

يعتبر القرآن الكريم أصل القيم الأخلاقية الإسلامية جمعاء، فهو الدستور المشرع الذي يحوي كل صغيرة وكبيرة نحتاجها في حياتنا وأخرانا، ذلك لأنه كلام رب العزة الكريم وليس للإنسان يد في نصه الذي أعيا الدارسين والباحثين ممن يهتمون بالثقافة الإسلامية ومصدر شرعها الثابت، لذا فالقيم الأخلاقية التي جاء بها القرآن الكريم ثابتة راسخة لا تتغير بتغير الأزمنة ولا الأمكنة.

والقرآن الكريم قد جاء مهذِّبا ومصححًا لمسار الحياة الجاهلية التي حوت أبشع وأشنع الصفات والقيم التي تتنافى مع تعاليم الشّرع الإسلامي، لهذا «فمن الناحية الأخلاقية نجد القرآن ينبذُ كثيرا مما تواضع عليه الجاهليون من معايير خلقية، فبعد أن كانت أسس الأحكام الخلقية تستند إلى آلهة وثنية أصبحت تسمو على ذلك وتتخذ لها نصوص من الكتاب المقدس سندًا، هذا إلى استهجان القرآن لعادات العرب الذميمة كشرب الخمر والزنا ولعب الميسر ووأد البنات»[1].

وعليه فالقرآن قد جاء بأحسن القواعد الخلقية المتكاملة التي تقود المجتمعات الجاهلية إلى أحسن ما يجب أن تكون عليه، كما أنه سيبقى مصدر التعليم الأخلاقي ما بقى البشر على هذه الأرض «فالقرآن من حيث كونه حافظا لما سبقه، واستمرارًا له قد تميز بذلك الامتداد الرحب الذي ضم فيه جوهر القانون الأخلاقي كله ... ولعل هذا الجانب هو السمة البارزة من سمات القرآن، وإن لم تكن أثمن صفاته»[2]، فهذا النص السماوي المبارك قد صحح وغيّر القانون الخلقي الذي كانت تسير عليه البشرية، كما سجل تاريخها الذي كانت تقضيه تحت سلطة الجهل والسّفه، كما أن القرآن الكريم قد صوَّر لنا أحسن تصوير تلك الدروس المختلفة عن العصور الماضية، مما يجعله يزداد أصالة من حيث تعاليمه الأخلاقية، والإنسانية التي جاء محملا بها.

[1] محمد أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعرفة، الإسكندرية، (د/ط)، (د/ت)، ص39.

[2] عبد الصبور شاهين: دستور الأخلاق في القرآن، دار البحوث العلمية، القاهرة، (د/ط)، (د/ت)، ص08.

والمتفق عليه أننا لا نكاد نحصي عدد الآيات التي تدعو إلى مكارم الأخلاق وإلى السبيل الذي رسمته الشريعة الإسلامية (القرآن)، فعظمته تبرز أكثر في تلك التوجيهات والأساليب الإعجازية التي تحثُّ على العبادة، والتّحلي بالقيم الأخلاقية الراقية، قال تعالى: ﴿إن الله يأمر بالإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾[1]، فهذه الآية الكريمة- مثلا- تدعو إلى الإحسان إلى المحتاجين، وإعانة الضعفاء، كما تنهى عن الأخلاق الذميمة التي من شأنها أن تحدث البغضاء بين المسلمين، كما تخاطب الإنسان وشعوره الداخلي داعية إياه إلى التحلي بالأوصاف الفاضلة والأخلاق الحسنة، ذلك لأن الأمة الإسلامية والمجتمع الإسلامي يقوم على مبادئ وأسس الحياة الفاضلة الداعية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[2]، فالأمة الإسلامية هي أمة أخلاق مادام القرآن الكريم دستورها ودليلها القويم الذي يُهتدى به إلى حسن التخلق، ويدعو إلى التحلي بجميع القيم الفاضلة، «فإن كانت العقيدة للمسلم بمثابة الثمار للشجرة فإن الثمار هي الأخلاق»[3]، وهذه القيم الراقية هي زبدة وثمرة الشريعة الإسلامية، وقرآنها هو المصدر الأول الذي تُستاق منه أحسن وأفضل هذه القيم.

ومادام الأمة الإسلامية تستمد نظامها الأخلاقي من النص القرآني والوحي الإلهي فإن نظرتها للقيم الأخلاقية تختلف عن زاوية نظر أصحاب الفكر الفلسفي، الذي نراه في بعض الأحيان في فوضى بسبب تعدد الآراء والمذاهب الفكرية بين الفلاسفة والمفكرين، والقرآن الكريم يمثل أعظم مرجع لأسمى القيم الأخلاقية، فالله تعالى قد أمر عباده بأن يتخلّقوا ويتمثّلوا على هيئة ما أمرهم وعلمهم في كتابه الكريم، قال جل في علاه: ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرةِ مثل السوءِ الأعلى ولله المثلُ الأعلى وهو العزيزُ الحكيم﴾[4]، والله تعالى هو من أهدى وأرشد ولطف ورحم برحمته أمته جمعاء، والصحابة الكرام كانوا

[1] القرآن الكريم: سورة النحل، الآية: 90.

[2] القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية: 110.

[3] مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، 2004م،ص09.

[4] القرآن الكريم، سورة النحل، الآية: 60.

أول من آمن بصدق الرسالة المحمدية وآمنوا بها إيمانا عميقا، «فهي تهذيب للنفس وسمو بها إلى عالم الأمن والسلامة والإسلام، ترسم لها أسلوب التعامل مع ذاتها، وتوضح لها أطر العلاقة مع الخلق الذين هم عيال الله وهي تهذيب للمجتمع حتى لا يُفرِط ولا يُفرِّطَ ... وهي التي تحدد العلاقة بين الخالق والمخلوق بأسلوب علمي واضح»[1].

وقد جاءت الأخلاق في النص القرآني على جوانب متعددة مست جوانب الحياة الظاهرة والباطنة كيف لا ورسالة الخالق هي إقامة دولة لا تزول بزوال أشخاص، ولا يختلف شرعها باختلاف الأقطار والبقاع إنه تجسيد لمعنى العالمية بمعناها الإيجابي والمثالي، عالمية مبنية على أساس أخلاق رفيعة متينة ففي سورة قرآنية واحدة نجد برنامجا خلقيا يجمع بين المحمود والمذموم كقوله تعالى :﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم وإياهم إن قتلهم كان خطأ كبيرا، ولا تقربوا الزِّنا إنه كان فاحشةً وساءَ سبيلا، ولا تقتلوا النَّفس التي حرّم إلا بالحق ومن قُتِل مظلومًا فقد جعلنا لوليِّه سلطانًا فلا يُسرف في القتل إنه كان منصورا، ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه وأوفوا بالعهدِ إن العهدَ كان مسؤولًا وأوفوا الكيل إن كلتُم وزنوا بالقسطاس المستقيم، ذلك خير وأحسن تأويلا، ولا تقفُ ما ليس لك به علم، إن السّمع والبصر والفؤادَ كل ذلك كان عنه مسؤولا ولا تمشي في الأرض مرحًا إنّك لن تخرق الأرض ولن تبلغَ الجبال طولاً، كل ذلك كان سيّئه عند ربك مكروها﴾[2].

فهذه الآيات الكريمة قد ذكرت أنماطا خلقية شتى في جميع المجالات، منها ما هو متعلق بالجانب الأسري والتربوي كالنهي عن قتل الأبناء خشية الفقر أو عدم القدرة على الإنفاق عليهم، كما تنهى عن اقتراف الكبائر من الذنوب كالزنا وقتل النفس بغير حق، ومنها ما هو متعلق بأموال المال والتجارة كالنهي عن الاقتراب من مال اليتيم (السحت)، وكذلك نجد فيها دعوة صريحة إلى العدل في الميزان عند الكيل والمعاملات الاجتماعية، كما فيها دعوة إلى عدم اشتغال الناس بما نُهوا عنه والدعوة إلى إيقاف النفس عند قدرها، مع النهي عن التكبر والمشي في الأرض مرحا وخيلاء، فهذا

[1] الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج01، حسين سليم أسد الدّاراني، دار المأمون للتراث، بيروت، (د/ط)، (د/ت)، ص08.
[2] القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية: 31-38.

هو الإسلام وهذا هو القرآن الكريم وإنّه ليحمل قواعد أخلاقية عظيمة تؤمّن للفرد حياة آمنة ومطمئنة لا تزوغ إلا بالخروج عن هذه القواعد الأخلاقية التي سطرتها الشريعة الإسلامية، وأساس بناء الحضارات دائما هو التمسك بجميع القيم الأخلاقية الحسنة، وتغيير العادات السيئة إلى عادات جيدة ومرغوبة.

2- الأخلاق في السنة النبوية:

لا أحد ينكر أن جميع الناس سواء كانوا عارفين أم بسطاء يجمعون ويتفقون في أن السنة النبوية تعدُّ مصدرا ثانيا بعد القرآن الكريم في نشر تعاليم هذا الدين القويم، كيف لا والقرآن نفسه يدعو المؤمنين أن يتبعوا سنة نبيهم -صلى الله عليه وسلم- يقول تعالى: ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه﴾[1]، فإتباع السنة النبوية هو إتباع لشرع الله أيضا، والصلة إذن بين الأخلاق والسنة النبوية صلة جوهرية لأن الأخلاق في الإسلام هي أداء للواجبات الإلهية والإرشادات السنية «فنصوص القرآن الكريم ونصوص حديث النبي صلى الله عليه وسلم كلها، إنما هي الأخلاق سواء منها ما يتعلق بالأصول والفروع بالعقيدة أو بالشريعة، وسواء منها ما يتعلق بالمعاملة مع الله الخالق سبحانه، أو مع المخلوقين، أو مع النفس...»[2].

وعليه يمكن لنا أن نقر بأن نصوص الكتاب والسنة في الأخلاق لا حدود لها، ذلك أن الأخلاق في الإسلام لا تقوم على معايير متغيرة بتغير البيئة والعوامل ولا مجرد آداء وتوجيهات مذهبية تميل مع الأفراد حسب رؤيتهم النفعية و مصالحهم الفردية، بل رؤية الشريعة مطلقة تهدف إلى جعل الإنسان خير خلق الله تعالى في الأرض، وذلك بإتباع مكارم وأخلاق الشريعة التي نص عليها الكتاب والسنة.

والسنة النبوية قد وضعت قواعد أخلاقية نظرية تقودنا إلى ما هو أحسن وأكمل، إنما نطلق عليه صفة الكمال بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، إنها تجسّد الخير والفضيلة في أبهى صورها شريعة لا يؤمن

[1] القرآن الكريم، سورة الحشر، الآية:03.

[2] عبد الله بن ضيف الله الرحيلي: الأخلاق الفاضلة قواعد ومنطلقات لاكتسابها، ج01، مطبعة سفير، (د/ط)، (د/ت)، ص39.

الفرد حتى يحب للآخرين ما يحب لنفسه، فعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسِه»[1]، فالرؤية الأخلاقية إذن حسب السنة النبوية لا تعتمد على المصلحة الشخصية ولا المنفعة الخاصة كما تحكي المذاهب الفلسفية التي راحت تتشعب وتتفرع في تأويل النظرية الأخلاقية وتفسيرها كلّ حسب رؤيته وفهمه لهذا الوجود، بل تهدف إلى إرساء نظام عادل وقيم ثابتة تسهّل على الناس وتريحهم وتنفعهم في الدنيا والآخرة.

وتبرز القواعد الأخلاقية في السنة النبوية بشكل واضح المعالم في مجموعة من الإرشادات والوصايا الأخلاقية فتعزز بذلك الرسالة السماوية والغاية من البعثة المحمدية، فقد جاء في موطأ مالك أنه قال: أخبرنا أبو مصعب، قال: حدثنا مالك، أنه بلغه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق»[2]، فهذا النبي الكريم قد جاء مكملا لمكارم الأخلاق التي تشغل حيزا كبيرًا ومجالاً واسعًا في السنة النبوية والدين كلّه، ولو لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم أخلق الناس لما أرسل إلى أمته بشيرا ونذيرا يقول الله عز وجل في كتابه العظيم واصفا عبده ورسوله بقوله: ﴿وإنّك لعلى خُلقٍ عظيم﴾[3]، فالرسول عليه أفضل الصلاة قد اتصف بمحاسن الصفات وأكملها، وهو أكبر داع للشمائل والأفعال الحميدة والأقوال الصادقة، هذا ما جعل منه القدوة الأعظم للبشرية جمعاء فهو أتقى الناس لرب الناس وأكرم من على هذه البسيطة، وكل الأخلاق مجتمعة في أوامره ونواهيه وأقواله وفعاله، ومن وافق سنته فهو محمود وما خالفها فهو مذموم منبوذ.

وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم المثال الأعلى والنموذج الأسمى للقيم الأخلاقية فيجب على العباد أن يكون أحب شخص إلى قلوبهم كما يمتثلون إلى أفعاله وأقواله والسّير على هدي سنته، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن عبد- وفي حديث عبد الوارث: الرجل- حتى

[1] البخاري: صحيح البخاري، (باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه)، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، ط01، 2002م، ص13.

[2] الإمام مالك: الموطأ، ج02، (باب لما جاء في حسن الخلق)، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د/ط)، 1991م، ص 75.

[3] القرآن الكريم، سورة القلم، الآية: 04.

أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين»[1]، ومعنى الحديث أنه لا يمكن أن يكتمل إيمان أحد من البشر حتى يكون رسول الله أحب إليه من نفسه والناس أجمعين، ويكون ذلك بإتباع أوامره ونواهيه الأخلاقية قولا وعملا لا إقرارا شفويا فقط.

والنبي صلى الله عليه وسلم قد رفع من قيمة وشأن الأخلاق في حياة البشرية لذا فهو دائم الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، والتحلي بها ما من شأنها أن تقرب المرء من ربه، في حين الأخلاق السيئة نفَّر وحذَّر منها كونها لا تستقيم والشريعة الإسلامية، فعن عبد الرحمـن بن الحارث المخزومي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الله يحب مكارم الأخلاق ويكره دقيقها وسفسَافَها»[2]، فالله يحبُّ أن يتصف عبده بمكارم الخصال وأحمدها في حين يكره الأمور الحقيرة الدنيئة التي تفسد العبد وتجعله فاسد الطبع.

والأخلاق في السنة النبوية من أهم المباحث التي اهتمت بها وعملت على تثبيت نظريتها بضوابط شرعية تنظم حياتهم وتضمن لهم أخراهم، فلا أحد يترك في هواه يفعل ما يراه خاطره وضميره، بل الدستور الشرعي هو من يحسن ويقبح لأفعال والأعمال، لذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم حريص على تبليغ رسالته على أكمل وجه، والنبي المصطفى هو من يعير الأخلاق الحسنة من القبيحة، فما أمرنا به فهو حسن وما نهانا عنه فهو قبيح لا جدال في ذلك، وأنجح الناس من اقتدى بنبيه أحسن اقتداء، فعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مجلس: «ألا أخبّركم بأحبِّكم إليَّ وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة ثلاث مراتٍ يقولها، قلنا بلى يا رسول لله قال: أحسنكم

[1] الإمام مسلم: الصحيح، ج01، (باب وجوب محبة الرسول صلى الله عليه وسلم)، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د/ط)، (د/ت)، ص67.

[2] ابن وهب: الجامع، ج01، (باب العزلة)، تح: مصطفى حسن حسين محمد أبو الخير، دار ابن الجوزي، الرياض، ط01، 1995م، ص595

أخلاقًا»[1]، فالنبي الكريم قد أمر بحسن الخلق، وأقرب الناس إليه يوم القيامة هم أصحاب الخلق الحسن الجامعين للأخلاق الجميلة الحسنة بأنواعها.

وإن كانت الأخلاق الحميدة كالصدق، والأمانة والحياء والعدل والأناة والمروءة والعفة والوفاء والكرة والشجاعة والقناعة، وغيرها من الصفات التي يبتغي بها الفرد رضى الله ورسوله فإنه كذلك كان أشدّ ما يتعوذ به سوء الأخلاق، فعن عمرو بن عثمان، حدثنا بقيّة حدثنا صبارةُ بن عبد بن أبي السّليك عن دويد بن نافع، حدثنا أبو صالح السّمَّان، قال: قال أبو هريرة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو يقول: «اللّهم إنّي أعوذ بك من الشّقاق، والنفاقِ، وسوءِ الخُلقِ»[2]، فسوء الخلق توجبُ غضب الله وسخطه، في حين أن الأخلاق الحسنة هي أخلاق النبي (صلى الله عليه وسلم) فهي الثابتة المطلقة التي تقود إلى النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، ونبيّنا ورسولنا هو البشير والنذير المبلغ لرسالة ربّه أحسن تبليغ، يحمل أعظم الصفات والسلوكات النابعة من صميم الدين الحنيف، كما يعتبر الناظم الرئيسي لمختلف السلوكات كمصدر ثابت نستطيع من خلاله أن نبني مجتمعا خالي من المشاكل والانحرافات الإنسانية والأخلاقية التي نراها تتعدد وتختلف حسب اختلاف وتعدد المذاهب الغربية –للأسف–.

3– الأخلاق عند الفارابي (260هـ– 339هـ):

يعتبر "أبو نصر محمد الفارابي" أشهر الفلاسفة المسلمين الذين تناولوا النظرية الأخلاقية على الإطلاق كيف لا وهو صاحب لقب "المعلم الثاني" وذلك نسبة للمعلم الأول " أرسطو" حيث يعتبر الفارابي أول من قام بشرح مؤلفات أرسطو المنطقية، وهذا ما يؤكد إطلاع الفارابي على العلوم والنظريات اليونانية بصفة عامة وخاصة محور الأخلاق منها، وعليه فتأثير الفكر اليوناني نراه قد تجاوز حدود الثقافة اليونانية إلى مختلف الأقطار والديانات الأخرى ومبحث الأخلاق في الفلسفة إنما استقاه

[1] ابن حيان: الإحسان في تقريب صحيح ابن حيان، (باب ذكر البيان بأنه من حسن خلقه كان في القيامة)، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، ط01، 1988م، ص235.

[2] أبو داوود: السنن، ج02، (باب في الاستعاذة)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية – صيدا– ، بيروت، (د/ط)، (د/ت)، ص91 .

الفارابي من الفلاسفة اليونانيين باعتباره متأثرا أشد التأثر بكل من أفلاطون وأرسطو وغيرهما من الفلاسفة الآخرين.

جاء في كتاب "تحصيل السعادة" أن «الفارابي يعترف بأنه يقتفي أثر الفلاسفة اليونانيين ويأخذ عنهم لأنهم وضعوا مبادئ الفلسفة ومهَّدوا طرقها، وهو يعتبر أفلاطون وأرسطو مؤسسي تلك الفلسفة... ولم يكن الفارابي مبدعا أو أصيلا في بحثه هذا لشدة إعجابه بأفلاطون وأرسطو ولاعتقاده بأنهما بلغا غاية الكمال في علم الفلسفة...»[1]، فالفارابي إذن قد بنى نظرياته على الفكر اليوناني وفلاسفته خاصة أفلاطون وأرسطو ولهذا لا عجب أن نجد نظرته للأخلاق مرآة عاكسة لرؤية أحد الفلاسفة اليونانيين، «لهذا تستمد نظرية الفارابي في الأخلاق أصولها من النظرية اليونانية الأخلاقية بصفة عامة تلك التي ترى في السعادة الخير الأقصى للحياة الإنسانية بكافة أنشطتها، كما أنها تنبع بصفة خاصة من موقف أرسطو الأخلاقي، فالأخلاق عند كل من الفارابي وأرسطو علم عملي، أي أنه يقوم على ممارسة الأفعال المحمودة وإتباع القدوة الصالحة لاكتساب ملكة الأفعال الخلقية، فكل إنسان حاصل على القدرة على فعل الخير ولكنه ينميها بالفعل والممارسة»[2]، فالغاية من الأخلاق عند الفارابي هي تحصيل السعادة كما هي عند الفلاسفة اليونانيين، و أن الفعل الأخلاقي بالنسبة للفارابي نولد ونحن مزودون به ولكن نحتاج إلى الممارسة الفعلية في الحياة اليومية لكي ننمِّي تلك القدرات الفطرية الخلقية لأن اللذات الحسية حسبه سهلة المنال عكس العقلية منها.

ولقد سار الفارابي على نهج "أفلاطون" و"أرسطو" في اعتبار الأخلاق الغاية منها هي اكتساب الفضائل، وتحصيل السعادة الدائمة لنفسه، فكل فرد يبحث عن تحقيق سعادته وغايته المنشودة يقول الفارابي: «السعادة هي غاية ما يتشوقها كل إنسان، فإنما يتشوقها على أنها خير ما، فهو لا محالة مؤثر ولما كانت الغايات التي تشوق على أنها خيرات مؤثرات كثيرة، وكانت السعادة أجدى الخيرات المؤثرة وقد تبين أن السعاة من بين الخيرات أعظمها خيرا، ومن بين المؤثرات أكمل كل غاية يسعى

[1] الفارابي: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط01، 1995م، ص22.23.
[2] محمد أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي، ص348.

الإنسان نحوها»[1]، فالإنسان أو الفرد حسب الفارابي دائم الطلب للسعادة كونها تعدُّ إحدى الكمالات الإنسانية التي يسعى إليها كل فرد، فالسعادة تعد أعظم الغايات قدرا ومنزلة فهي الخير الأقصى الذي يطلبه الإنسان ويسعى إلى بلوغه بشغف دائم.

ونجد الفارابي يحذو حذو أفلاطون الذي يقر بوجود ما يسمى بالمدينة الفاضلة والتي يسودها التعاون والتآزر بين أفراد المجتمع الواحد لتحصيل السعادة، فهذا التعاون يجعل المدينة والأمة كلها فاضلة «والمدينة التي تحقق فيها السعادة على هذه الصورة هي المدينة الفاضلة، وما يصدق على المدينة يصدق على غيرها من المجتمعات الكاملة: فالأمة التي تتعاون مدنها على ما تنال به السعادة هي الأمة الفاضلة والمعمورة الفاضلة هي التي تتعاون أممها كلها على بلوغ السعادة»[2]، فالفارابي هنا يظهر لنا مدى ارتباط نظريته الأخلاقية المتمثلة في المدينة الفاضلة بترابط أفراد المجتمع الواحد وتعاونهم على تحقيق ما يسمى بالسعادة، لتصبح بذلك غاية الفرد هي غاية المجتمع ككل.

وقد شبّه لنا الفارابي المدينة الفاضلة بقوله: «والمدينة الفاضلة في تعاون أفرادها على تحقيق السعادة للمجموع تشبه البدن الصحيح الذي يتعاون أعضاؤه كلها على حفظ حياته، وهي تشبه كذلك في مراتب عناصرها وأهميتها بعضها بالنسبة لبعض، ففي البدن عضو رئيس وهو القلب تخضع له سائر الأعضاء وتختلف مراتبها بالنسبة له»[3]، فهذه المدينة الفاضلة تشبه البدن الصحيح الذي تتعاون أعضاؤه في الحفاظ على سلامته واستمرار حياته، كما أن اختلاف أعضاء البدن الواحد وتفاضلها فيما بينها بالنسبة للقلب الذي يعد الرئيس فكذلك المجتمع وأفراد المدينة الفاضلة الذين تتفاوت مراتبهم ومنازلهم بقربهم من الرئيس الذي يحكم المدينة كلها وهو من يقوم بالتأديب والتعليم بغية تحقيق السعادة التي تبقى هي أعلى ما يتمنى كل فرد الوصول إليها، يقول الفارابي عن السَّعادة، «إنا

[1] المرجع السابق، ص349.

[2] عبد الواحد وافي: المدينة الفاضلة للفارابي، نهضة مصر، القاهرة، (د/ط)، (د/ت)، ص41.

[3] المرجع نفسه، ص42.

نرى أنها [أي السعادة] إذا حصلت لنا لم نحتج معها إلى شيء آخر غيرها»[1]، فالسعادة عند الفارابي هي الخير الأسمى والأقصى للحياة الإنسانية، في ظل رؤيته الأخلاقية المستمدة من النظرية اليونانية التي ترى السعادة غاية تؤثر لذاتها، والأشياء التي تؤثر لذاتها إنما هي الأشياء التي تطلق عليها صفة الكمال.

4- الأخلاق عند مسكويه (320- 421هـ):

لقد اشتهر أبو علي أحمد بن محمد الملقب "مسكويه" شهرة لا مثيل لها في مجال الدراسات الفلسفية والأخلاقية حتى أنه ليعتبر عند البعض رائدًا للدراسات الأخلاقية وذلك بما ناله كتابه الشهير " تهذيب الأخلاق " من شهرة واسعة في هذا المجال، ولما قصده المؤلف في كتابه من غاية سامية تتمثل في توضيح الطريق المستقيم للسلوك الأخلاقي، فقد جاء في مقدمة الكتاب عن صاحبه يقول: «في هذا الكتاب أن نحصّل لأنفسنا خلقا تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة يكون ذلك بصناعة وعلى ترتيبٍ تعليمي في هذا الكتاب أن نحصّل لأنفسنا خلقًا تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة وتكون مع ذلك سهلةً علينا لا كلفة فيها ولا مشقة يكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمي »[2]، فغاية المؤلف واضحة تتمثل في تهذيب النفوس وتطهيرها من السموم والصفات الذميمة والخصال المشينة، وذلك يتضح انطلاقا من عنوان الكتاب "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق".

وعليه فإنه لم يكن الكتاب الوحيد الذي ألفه "مسكويه" في الأخلاق بل ألَّف كتبًا أخرى تجمع بين الفلسفة، والأخلاق، وقد أحصاها الدكتور "على إمام عبيد" في دراسة نقدية بعنوان "فلسفة مسكوية الطبيعية والإلهية" فذكر منها: كتاب "السعادة أو ترتيب السعادات" وكتاب " الهوامل والشوامل" وهي عبارة عن أسئلة لغوية وخلقية جمعها "أبو حيان" لمسكويه وأجاب مسكويه عنها، بالإضافة إلى كتاب

[1] الفارابي: رسالة التنبيه على سبيل السعادة، تح: سحبان خليفات، الجامعة الأردنية، عمان، ط01، 1987م، ص60.
[2] مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق، ص02.

"تهذيب الأخلاق" وهو أشهر كتبه على الإطلاق[1]، لأن هذا الكتاب طبع عدة طبعات وفيه تفصيل وإلمام بآراء "مسكويه" في فلسفة الأخلاق.

ويمكن القول بأن فلسفة "مسكويه" الأخلاقية لا تختلف عن نظرة "أفلاطون" و"أرسطو" من الفلاسفة اليونانيين، كما أنها لا تتجرد من أصلها الإسلامي من قرآن وسنة نبوية بالإضافة إلى آراء بعض الفلاسفة المسلمين مثل: "الكندي" (ت252هـ)، و"الفارابي" وغيرهم ممن سبق "مسكويه" إلى علم الأخلاق.

يقول "ناجي التكريتي" في كتابه "فلسفة الأخلاق بين أرسطو ومسكويه"؛ «أما "مسكويه" فهو نتاج الحضارة العربية، وكتاباته الأخلاقية مزيج من التأثر بالفلسفة اليونانية وما أنتجته الثقافة العربية، أنه قد أزدهر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، حيث كان النشاط الفلسفي مزدهرا، وخلاصة لما خلفه الفلاسفة السابقون مثل الكندي والرازي والفارابي»[2]، فمسكويه إذن قد أفاد من النبعين اليوناني والعربي وأسس لفكره الأخلاقي، حيث الفكرة الفلسفية تخضع للفكر الإسلامي، ثم تعقد بينهما نقطة التقاء وبعدها تصبح فكرة سديدة عنده، كما أن "مسكويه" حتى وإن كان متشبعا بالفلسفة اليونانية إلا أنه لا يترك فكرة إلا وأخضعها للقرآن أو الحديث النبوي.

إنّ النفس عند "مسكويه" بعيدة عن الأمور الحسية التي تتعلق بالبدن والتي يُكشف عنها بالحواس الخمس، فالنفس أشرف وأرفع من أن تتغدى على اللذات الجسمية، فجوهر النفس أشرف من جوهر الجسم أو البدن، لأن الأولى تتطلع إلى الأمور العقلية والثانية تتجه إلى اللذات والأمور الحسية الجسدية، «وعلى الرغم من أن جوهر الجسم يبقى محصورا في إيثار اللذات الجسمانية نرى أن جوهر

[1] علي إمام عبيد: فلسفة مسكويه الطبيعية والإلهية (دراسة نقدية)، الدار الإسلامية، مصر، ط01، 2010م، ص34.38.
[2] ناجي التكريتي: فلسفة الأخلاق بين أرسطو ومسكويه، ص23.

النفس يحرص على معرفة حقائق الأمور الإلهية، ويميل دائما إلى الأمور التي هي أفضل من الأمور الجسمانية وانصرافه تماما عن اللذات الجسمية...»[1].

ومن هذا الأساس يمكن اعتبار النفس عند "مسكويه" أشرف بكثير من الجسم، فالنفس هي التي تتطلع إلى الأشياء الجوهرية العقلية التي تحقق لنا السعادة والطمأنينة في الحياة، أما الجسم فلا يستند إلاّ على الحواس التي تخدعنا في بعض الأحيان، «إن على الإنسان الذي يخاف على نفسه من المكاره أن يتجنب سبب حدوث المكاره وذلك بترك الذنوب والمكاره، وألا يقدم على عمل إلا إذا آمن شره وحتى ولو وقع المكروه على الإنسان فيجب عليه أن يتجمل فيحسن عيشه كي تطيب له الحياة»[2].

ومما تقدم يمكن القول بأن "مسكويه" يدعو إلى التمسك بالقيم الروحية الفاضلة، والمواعظ الأخلاقية الخيرة كي تتحقق له الراحة النفسية الراقية، والتي يسعى الإنسان دائما إلى تحقيقها وفي المقابل يجب عليه أن يبتعد عن الأمور الرديئة، ومختلف الذنوب التي تخرج النفس عن حالتها الطبيعية.

[1] المرجع السابق، ص41.
[2] المرجع نفسه، ص49.

الفصل الثالث

الصعلكة والصعاليك

عناصر الفصل الثالث:

تمهيد:

أولا: تعريف الصعلكة:

1- لغة

2- اصطلاحا

ثانيا: أشهر الشعراء الصعاليك

1- تأبط شرا

2- عروة بن الورد

3- الشنفرى

4- السليك بن السلكة

5- أبو الطمحان القيني

6- قيس بن الحدادية

7- عمر بن براق

8- صخر الغي

ثالثا: موضوعات شعر الصعاليك

1- الفقر والجوع

2- التشرد والضياع

3- وصف المغامرات

4- وصف الأسلحة

5- التوعد والتهديد

6- الافتخار بسرعة العدو

رابعا: علاقة بعض القيم بظاهرة الصعلكة

تمهيد:

لا يمكن لأي دارس أو مهتم بالعصر الجاهلي أن يتجاهل موضوع الصّعلكة أو الشعراء الصّعاليك في هذا العصر، تلك الطائفة الاجتماعية التي ظهرت في المجتمع الجاهلي القبلي وترعرعت في بيئته، حيث تطورت وأصبحت قطعة من تراثه التاريخي والأدبي، وباتت حجرًا مهما في بناء أدب هذا العصر أيضا، كما يمكن أن نقول بأن هذه اللفظة (الصعلكة) قد أصبحت تمثل اسم العصر نفسه، وذلك لما تحمله من معاني تخص هذا العصر، وتجسّده بكل حيثياته وجزئياته الصغيرة التي تجعله عصرا متميزًا عن بقية العصور.

وقد كثرت الإشارات التي لامست موضوع الصعلكة في العصر الجاهلي كإشارات ونتف متناثرة في مختلف الكتب والدراسات، لكن كم هي قليلة تلك الأبحاث المتخصصة في هذه الشريحة المعزولة عن المجتمع الجاهلي قديما، والتي عزلت في مجال البحث والدراسة حديثا أيضا، لهذا فالحق يقال أنها لم تنل حظا وافرا من الاهتمام والاستقصاء اللازمين.

والسبيل الأنسب لنا ولكل المهتمين بموضوع الصعاليك الجاهليين لفهم هذه الظاهرة التي شاعت في العصر الجاهلي وفهم أيضا علاقة هؤلاء الشعراء ببعض القيم الأخلاقية، وبعض الصفات النبيلة التي اتصفوا بها هو وجوب التطرق إلى عدة نقاط مهمة في هذا الموضوع تخص هذه الشريحة بالذات كالتعريف اللغوي والاصطلاحي للفظة الصعلكة، بالإضافة إلى التعريف بهؤلاء الصعاليك ونسبهم والوقوف على شعرهم، وطبيعته، وموضوعاته التي جاء فيها، كما يجب ربط هذه الظاهرة ببعض القيم التي كانت سائدة داخل المجتمع، لهذا سنحاول في هذا الفصل أن نتطرق إلى مجموعة النقاط المهمة في هذا الموضوع، ونحاول أن نزيل الغبار عنها بحول الله.

أولا– مفهوم الصّعلكة:

1– لغة:

يدور المعنى اللغوي لمادة "**صعلكة**" في المعاجم اللغوية والقواميس حول الفقر، ففي القاموس المحيط نجد «صَعْلَكَهُ: أفقرهُ ... والصّعلوك كعصفور، الفقير وتَصَعلكَ افتقرَ والإبلُ طرحتْ أوبارها»[1] فالمعنى المباشر هنا هو الفقر، والتجرّد من المال عمومًا بمعنى الافتقار.

وفي لسان العرب لِـ"ابن منظور" جاء التعريف كالآتي: «الصّعلوكُ: الفقيرُ الذي لا مالَ له وزاد الأزهري: ولا اعتمادَ، وقد تصعلكَ الرّجلُ إذا كان كذلك، قال "حاتم الطائي" [الطويل]:

غنينَا زمانًا بالتّصعلُكِ والغِـنَى فكلاًّ سقانَاهُ، بكأسيهِما الدَّهْـرُ

فما زادنَا بغيــا عن ذي قرابةٍ غِنانا ولا أزرى بأحسابِنَا الفَقْـــرُ

وتصعلكتِ الإبلُ: خَرجتْ أوبارَها وانجردَت وطرحتها...وصعلكَ الثّريدَة جَعَلَ لها رأسًا»[2]، ومنه نستنتج بأن التَّصعلك في الرّجل يكون بالافتقار والتجرُّد من الغنى والمال، أما في الإبل فيكون التّصعلك بتجرُّدها من أوبَارِها، أما الثَّريدَةُ فهو أن تجرَّد من الضَّخامةِ، «ويمكنُ رد كل هذه الاستعمالات إلى معنى الفقر أو آثارهُ من ضمورٍ وهزالٍ ونحو ذلك»[3]، فالرجل يفتقر ويصبحُ صعلوكًا إذا فقد ماله وثروته، أما البعير فيمكن اعتبار وبره هو ثروته وماله الذي يحميه.

أما بالنسبة للصحاح فجاء تعريف **الصّعلكة** مدعِّمًا المعنى المباشر كذلك حيث: «الصّعلوكُ: الفقيرُ وصعاليكُ العرب ذؤبانُها، وكان عروة بن الورد يُسمَّى عروة الصَّعاليك، لأنّه كانَ يجمعُ الفقراء في

[1] الفيروز آبادي: ج03، ص300.

[2] ابن منظور: لسان العرب، ص2451.2452.

[3] عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط01، (د/ت)، ص17.18.

حظيرةٍ فيرزقهم مما يغنِمُه»[1]، فالشاعر عروة يجمع الصعاليك والفقراء في حظيرة ويفرّق عليهم ما يغنمه من مال وطعام وغير ذلك مما يجودُ به عليهم فيسد حاجَتهم.

فالفقر وما يتَّصل به من حرمان هو الأصل اللغوي للفظة "**صعلكة**"، وبصفة أدق التجرُّدُ من الشيء هو أصل التصعلك، وقد زاد صاحب لسان العرب جزئية مهمَّة أثناء تناوله لهاته الكلمة في قوله: «زاد الأزهري ولا اعتماد»[2]، والمعنى هنا ألا يكون للمرء شيء يعتمدُ عليه، «وعلى هذا نستطيع أن نقول أن الصعلوك في اللغة هو الفقيرُ الذي لا مال له يستعينُ به على أعباء الحياة، ولا اعتماد له على شيء أو أحد يتكئ عليه أو يتكل عليه ليشقّ طريقه فيها، ويعينه عليها»[3]، ومنه فالصعلوك هو الذي لا يملك شيئا يعتمدُ عليه في مواجهة مشاق ومتطلبات الحياة، فلا يملك حلاً بل قد جرِّد من جميع وسائل وسبل العيش، كما قد جرِّد أيضا من ماله الذي يظهره ضامرا هزيلا من شدة الفقر والحاجة.

وبالنظر إلى تعريف الأزهري نجد بأن كلمة "**ذؤبانها**" والتي لم تمر معنا في التعريفين السابقين أنها إشارة غير سابقة نحو المعنى العرفي والاصطلاحي للصَّعلكة، لأن هذه اللفظة حسب ورودها في كتب الأدب القديمة إنما تدل على من يقوم بأعمال النَّهب، والتلصص، وقطع الطريق، وغيرها من الأعمال التي تتصل بمعنى التصعلك، وليس فقط كونهم فقراء فقط جردتهم الحياة من غناها.

[1] الجوهري: ج04، دار العلم للملايين، القاهرة، ط04، 1990م، ص1595.
[2] ابن منظور: لسان العرب، ص2451.
[3] يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي،ص23.

2- اصطلاحا:

إن المعنى اللغوي لمادة "**صعلكة**" المتمثل في الفقر والحرمان ليس وحده المعنى الذي تتردَّدُ فيه اللفظة وتنحصر، بل نجدها أحيانا تُستعمل في سياقات أخرى لا تتفق والمعنى اللغوي بالدقة المطلوبة أو قل هي معاني تتسع لها الكلمة وتشملها أيضا.

فقد اتسعت معاني هذه اللفظة في كتب الأدب وأخبار العصر الجاهلي بصورة واسعة حتى لنجد المعنى بعيد كل البعد عن المعنى اللغوي، فمثلا هذا "عمر بن براق" يغير على إبله رجل من "مراد" فيذهب بها فيأتي عمر فيغير على "المرادي" فيستاق كل شيء له، ويقول[1] [الطويل]:

تقول سُليمى لا تعرَّضْ لتلفـــةٍ وليلُكَ عن ليلِ الصَّعاليكِ نائِـــمُ

وكيفَ ينامُ اللَّيل من جلُّ مالِـه حُسامٌ كلوحِ الملحِ أبيضُ صـــارِمُ

ألم تعلمي أنَّ الصَّعاليكَ نومهُم قليلٌ إذا نامَ الخـليُّ المسالـــــمُ

فمن خلال سياق الأبيات نفهم بأن الصّعاليك هنا لا يُراد بهم الفقراء وغيرهم ممن جُرِّدوا من الغنى وإلاَّ فما معنى النصيحة التي وجِّهت للشاعر من طرف زوجته التي بدت خائفة عليه من الخطر الذي قد يلحقه من جرَّاء مجابهته للصعاليك، حيث- حسب تعبيرها- ينام ليله عن ليلهم؟.

فالصَّعاليك هنا على حد تعبير "يوسف خليف": «ليسوا أولئك الفقراء المعدمين الذين يقنعون بفقرهم، أو يستنجدون الناس ما يسدُّون به رمقَهم، إنما هم أولئك المشاغبون المغيرون أبناء اللّيل الذين يسهرون لياليهم في النهب والسّلب والإغارة، بينما ينعم الخليون المترفون المسالمون بالنوم والراحة والهدوء...»[2].

[1] القالي: الأمالي، ج02، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، (د/ت)، ص122.

[2] الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص25.

فهذه الكلمة نراها قد أخذت منحى آخر بعيدًا عن المعنى اللغوي ومجاله الضيق، بحيث أصبحت تسبح في دائرة ومجال أوسع هو الغزو والإغارة وشن الغارات...الخ، كل ذلك من أجل غاية محددة نستطيع بذلك أن نحكم على طريقة عيشهم بالحرفة التي يحترفها صاحبها لكسب قوت عيشه، حيث «تتردّد في أشعارهم صيحات الجوع والفقر، كما تموجُ أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشحّاء ويمتازون بالشجاعةِ والصّبرِ عند البأس وشدّة المراس والمضاء وسرعة العدو حتى ليسموا بالعدائين»[1] لهذا فالصعلوك ليس ذلك الفقير البائس الخامل الذي يسلم بفقره وحرمانه الذي جرّدته مختلف العوامل من غناه أو حقه الضائع في مجتمعه، بل هو ذلك الفقير الشُّجاع الذي يركب الأهوال لمواجهة صروف الدهر القاسية بكل أنواع المقاومة بعيدا عن اليأس والاستسلام.

والصّعاليك هم تلك الفئة التي أفرزتها المجتمعات القبلية، والتمييز العنصري، وصرامة النظم الاجتماعية والاقتصادية، لأن «المتأمِّل في أشعارهم يلفتُ نظرة شعور حاد بالفقر، وإحساس مرير بوقعه على نفوسهم، وشكوى صارخة من هوان منزلتهم الاجتماعية وعدم تقدير المجتمع لهم وعجزهم عن الأخذ بنصيبهم من الحياة كما يأخذ سائر أفراد مجتمعهم»[2].

فالصعلكة إذا قد انتقلت من المعنى اللغوي إلى المدلول الاجتماعي الذي أصبح يدلُّ على مختلف السّلوكات والصفات التي يقوم بها الأفراد مع مجتمعاتهم، وتحديد لطريقة وأسلوب عيشهم، فقد ورد مثلا: «وصعاليك العرب ذؤبانها»[3]، هذا الوصف الذي ورد في أغلب المصادر التي تطرقت للمادة وصفٌ للصعاليك بأنهم ذؤبان يفسِّر المعنى الاصطلاحي والعرفي للصعاليك أكثر، ويجعل الصورة واضحة جلية إذ تتشابه طريقة عيش هؤلاء الصعاليك والذؤبان إلى حد بعيد، يقول في هذا السياق "عروة بن الورد"[4] [الطويل]:

[1] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي-العصر الجاهلي-، ص375.

[2] يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص32.

[3] ابن منظور: لسان العرب، ص2452.

[4] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، (د/ت).ص69.

ولكنّ صعلوكًا صفيحةُ وجهِهِ كـضوءِ شهابِ القابسِ المتنـــوِّرِ

مطلاً على أعدائِه يزجُرُونَـــه بساحتهم زجرَ المنيحِ المشهَّـــرِ

ففي هذين البيتين يجسد لنا الشاعر صورة الصعلوك الرّافض والمتمرد، الذي يرفض حياة الذل والهوان فهو مشرف دائما على أعدائه بغزواته وغاراته مما يجعل "عروة" هنا يشبه وجهه بضوء الشهاب المتنور.

ولفظة "**صعلوك**" في هذا السياق إنما استعملت في حقلها الاصطلاحي العرفي الذي اتفقت حوله جل كتب الأدب التي روت عن أخبار وحياة هؤلاء الصعاليك في العصر الجاهلي، «فقد بلغ من شهرة الصعاليك بسلوكهم المذكور، أنه يكفي في ذكر شخص أو الترجمة لشاعر أن يوصف بأنه صعلوك فيعرف أنّه من اللصوص وقطاع الطرق كما ورد في الأغاني وخانة البغدادي وغيرهما»[1]، فمن خلال هذا نخلص لفكرة مفادها أن الصعلكة في الاصطلاح الأدبي هي اقتراح وامتهان الإغارة، والغزو والخروج عن القيم الاجتماعية، التي تحكم القبيلة إلى مجتمع بديل آخر تحكمه مبادئ وقوانين جديدة تختلف عن قوانين ومبادئ المجتمع الأصلي.

يقول "عبد الرحمـن حفني" في تعريف الصّعلكة: «هي احتراف السّلوك العدواني بقصد المغنم»[2] حيث أن هذا التعريف بالرغم من كونه مختصرا إلاّ أنه يبدو لنا بأنه تعريف شامل لجميع جوانب الصّعلكة، لأن احتراف السطو والغزو وقطع الطريق كلها تعابير ومدلولات اصطلاحية للصّعلكة أو فعل التّصعلك، أمَّا كلمة "بقصد المغنم" فهي إشارة تربط المعني الاصطلاحي باللغوي كون هذا الأخير هو الفقر والتجرد من الغنى وكل سبل العيش الممكنة وهذا ما يزيد المعنى كمالا وشمولا، أي أننا نستطيع أن نستنتج بأن الفقر هو السبب المباشر للصّعلكة.

[1] عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص33.
[2] المصدر نفسه، ص39.

ثانيا– أشهر الشعراء الصعاليك:

1– تأبط شرا:

لقد جاء في الأغاني عن نسبه واسمه أنه؛ «ثابت بن جابر بن سفيان بن عميثل بن عدي بن كعب بن حزن وقيل حرب بن تميم بن سعد ابن فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار وأمه امرأة يقال لها أميمة يقال أنها من بني القين بطن من فهم»[1]، ويبدو أن الروايات قد تضاربت في حقيقة اسمه لكن ما يرجّح هذا الاسم أي "ثابت بن جابر" ما استدل به صاحب "الشعر والشعراء" قوله: «وقال الأصمعي: كان ابن طرفة الهذلي، وهو أعلمهم بتأبط شرا وأمره، يقول: هو ثابت بن جابر، لقوله:

ويلُ أمِّ طرفٍ قتلوا برَخْمان بثَابتِ بن جابِر بن سُفيـــانْ[2]

وقيل أن "تأبط شرا" هو لقب اشتهر به حتى أصبح يعرف به دون اسمه الحقيقي، فتضاربت الروايات وتعددت في تحديد سبب قصة تسميته بهذا الاسم، فقد جاء في الأغاني ذكر ثلاث روايات رواها الرواة على اختلافها، فالأولى؛ أنّه رأى في الصحراء كبشا فاحتمله تحت إبطه فجعل يبول عليه طول طريقه فلما قرب من الحي ثقل عليه الكبش فلم يقله فرمي به فإذا به الغول فقال له قومه ما تأبطت يا ثابت قال الغول، قالوا لقد تأبطت شرا فسمي بذلك، أما الرواية الثانية فقيل أن أمه قالت له كل إخوتك يأتيني بشيء إذا راح غيرك فقال لها سآتيك الليلة بشيء ومضى فصاد أفاعي كثيرة من أكبر ما قدر عليه فلما راح أتى بهنّ في جراب متأبطا به فألقاه بين يديها ففتحه فتساعين في بيتها فوثبت وخرجت فقال لها نساء الحي ماذا أتاك به ثابت فقالت: أتى بأفاعي في جراب وقلن كيف حملها قالت تأبطها، قلن لقد تأبط شرا فلزمه تأبط شرا، أما الثالثة فقيل؛ أن أمه في زمن الكمأة قالت له

[1] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج18، ص209.

[2] ابن قتيبة:الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، ج01، دار المعارف، القاهرة، (د/ط)، (د/ت)، ص312.

ألا ترى غلمان الحي يجتنون لأهلهم الكمأة فيروحون بها فقال أعطني جرابك حتى اجتني لك فيه فأعطته فملأه لها أفاعي وأحضره لها وفتحه أمامها مثل ما فعل في الرواية السابقة[1].

وقد كانت حياة "تأبط شرا" مليئة بالمخاطر والأهوال نتيجة غزواته المتكررة كرًّا وفرا، كما تميزت حياته بكثرة المكائد والمعارك مع الأعداء، والهروب من وطأة الأسر المهدد به في كل مرة، كما كان الشاعر ذا بأس وذكاء ومكر وخديعة أيضا، خاصة أثناء اشتداد الأمر عليه ووقوعه في المآزق التي تتطلب بالإضافة إلى ذلك الصبر والشجاعة والقوة.

«هو واحد الثلاثة الذين اشتهروا بأنهم أقوى و أعدى من عرفهم زمانهم، وقد بلغ من اعتداده بنفسه وبقوته وعدوه أنه كان يغير وحده على رجليه ولا يهاب أحدًا ... حتى أن قصص مغامراته وإقدامه تشبه الأساطير وإن كان معظمها موضع اتفاق بين الروايات مما يحمل على تصديقها، والذي من شدة بأسه وصرامته، بالمهارة البارعة في التخلص من المآزق البالغة الخطورة والتي لا يتاح الخلوص منها إلا لشخص وهب حظا عظيما من الذكاء وسرعة البديهة والعدو الخارق للعادة في قصص كثيرة لا تكاد تختلف عليها الروايات»[2].

يقول مرة وهو يصف فراره[3] [الطويل]:

ولم أنتظِر أن يدهموني كأنّهـــم ورائي نحلٌ في الخليةِ واكنَـــــا

ولا أن تُصيبَ النّافذاتُ مقاتِلـي ولم أكُ بالشّدِّ الدليقِ مدانيَـــــا[4]

فأرسَلتُ متنيًا عن الشَّر عاطفًـا وقلتُ يا زحزَحْ لا تكوننّ خائنَـــا

[1] ينظر الأغاني، ج18،ص209.

[2] عبد الحليم حفني: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص113.

[3] تأبّط شرا: الديوان، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط01، 2003م، ص73.

[4] النافذات: جمع نافذة وهي الطعنة التي تخترق الجوف، الدليق: الحد.

وحثْحثتُ مشعوفَ النّجاءِ كأنّني هِجَفٌ رأى قصرًا سَمالا ودَاجنـــا[1]

من الحُـصِّ هَزرُوفٌ كأنّ عفاءَهُ إذا استدرجَ الفَيفاءَ مدّ المغابنـــا[2]

فهذا كان شعر "تأبط شرا" كله وصف لمغامراته وحياته المليئة بالكر والفر لأنه شاعر دائم الصراع مع التشرد والضياع، وكذلك مع الأعداء والخصوم أحيانا أخرى، بالإضافة إلى شدة الفقر والجوع اللذين لازماه هو وفئة الصعاليك المماثلين له طوال حياتهم، وشعره إنما يعتبر تعبير حقيقي عن تلك الضغوطات النفسية والاجتماعية التي عاشها الشاعر في حياته، والتي أراد أن يعدِّل منها بسيفه وقوته وكذلك بكلمته وشعره الذي راوحَ بين الخشونة والسلاسة.

أمّا عن وفاته فروى "ابن قتيبة" بأن قبيلة هذيل هي من تدّعي قتله[3].

2- عروة بن الورد:

يعتبر"عروة بن الورد" من أشهر الشعراء الجاهليين بصفة عامة والصعاليك بوجه خاص، لأنه كان أحد الفرسان المقدمين الأجواد، سواء بأخلاقه النبيلة أو بشجاعته الكبيرة، هذا ما جعله أكثر الشخصيات جاذبية كيف لا وجوده وكرمه مس كل ضعيف ومحتاج.

أما عن نسب الشاعر كما ذكرت كتب الأدب القديمة فهو: «عروة بن الورد بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هريم بن لديم بن عود بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن الريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزا، شاعر من شعراء الجاهلية وفارس من فرسانها وصعلوك من صعاليكها المقدمين الأجواد»[4].

---

[1] حثحثتُ: اضطربتُ و تحرّكتُ، النجاء: الخلاص، الهجف: ذكر النعام الذي كبُر سنه، السمال: الدود المجتمع في الماء، الداجن: كل ما ألف العيش في البيوت من الحيوانات.

[2] الحص: الزعفران، الهزروف: هو ذكر النعام الخيف السريع، الهزروف: هو ذكر النعام الخيف السريع، العفاء: كل ما كثُر وطالَ من الريش.

[3] ينظر: الشعر والشعراء: ج01، ص312.

[4] الأصفهاني: الأغاني، ج02،ص184.

أما عن لقبه الذي اشتهر به أي "عروة الصعاليك" فقيل« لجمعه الصعاليك وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ولم يكن لهم معاشا ولا معزًا»[1].

وقيل لقوله[2] [الطويل]:

لحى الله صعلوكًا إذا جنّ ليلُه مضى في المشاشِ آلفًا كلَّ مجـزَرِ

يعـدُّ الغِنى من دهـرِهِ كلَّ ليلةٍ أصابَ قراها من صديقٍ ميسَّـــرِ

ولله صعلـوك صفيحةُ وجهــهِ كضوءِ شهابِ القابسِ المتنـــوِّرِ

تميّز "عروة بن الورد" بجوده وأخلاقه الكريمة التي تتمثّل في جميع قيم النبل الحقيقي، والتي لم تمس الصعاليك فقط، بل مسّت وشملت كل فقير ومحتاج، ما دفع الخليفة الأموي "عبد المالك بن مران" أن يقول فيه: «ما يسرّني أنّ أحدًا من العرب ممّن ولدني لم يلدني إلاّ عروة بن الورد لقوله [الطويل]:

إنّي امرؤٌ عـافِي إنائِي شركَـــةٌ وأنت امــرؤٌ عافي إنائَك واحِـــــدُ

أتهزأ منّي أن سمنتَ وأن تــرى بوجهي شحوبَ الحقِّ والحقُّ جاهــدُ

أفرِّقُ جسمِي في جسومٍ كثيــرةٍ وأحسُو قراحَ الماء والماءُ بـــــاردُ[3]

أمّا عن موت "عروة بن الورد" فقد قتل من طرف رجل من طُهيّة وذلك قبل الإسلام بست وعشرين سنة، بمعنى توفي نحو سنة 596 للميلاد[4].

3- الشنفرى: إن ما يعرف عن "الشنفرى" ونسبه كما ورد في الأغاني أنه من الأوس بن الحجر بن الهنأ بن الأزد بن الغوث أسرته بنو شبابة بن فهم، فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان ابن مفرج

[1] المصدر السابق، ص184.

[2] ابن السكيت: شرح ديوان عروة بن الورد العبسي، خزانة الكتب العربية، الجزائر، ط01، (د/ت)، ص12.

[3] المصدر نفسه، ص13.

[4] حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، ط01، 1986م،ص173.

من الأزد رجلاً من شبابة ففدته بنو شبابة الشنفرى، فكان في بني سلامان لا تحسبه إلاّ واحدا منهم حتى نازعته بنت الرجل الذي كان في حجره أي سيده ومولاه: وكان السّلامي اتخذه ولدًا، فقال الشنفرى لبنت السلامي اغسلي رأسي يا أخية، فأنكرت أن يكون أخاها، ولطمته، فذهب الشنفرى إلى الذي اشتراه مغاضبا وقال له: أصدقني من أنا !؟، فقال: أنت من أوس بن حجر، قال: أما إنّي لن أدعكم حتى أقتل منكم مئة بما استعبدتموني[1]، فكانت هذه القصة هي سبب تصعلك الشنفرى وإضماره الحقد الشديد لقومه.

وقد ذهب معظم الباحثين والدارسين إلى أن الشنفرى لقبه، وهو يعني الغليظ الشفتين، وأن الشاعر لقِّبَ بذلك لعظم شفتيه[2]، «وهو الذي يضرب به المثل في سرعة العدو الذي يسبق الخيل، ويضرب به المثل في الحذق الدهاء، وهو ابن أخت تأبط شرا رغم أنه أكبر منه سنا وكان أحد رفقة ثلاثة اشتهروا بأنهم من أقوى النّاس وأعداهم، هو وتأبط شرا وعمر بن براقة...وهو صاحب لامية العرب التي يعتز الشعر العربي كلّه باحتوائه على مثلها»[3].

أما عن تاريخ وفاته فلا تذكر المصادر تاريخا محدد، بل الشيء المتوافق عليه عندهم أنه كان معاصرا للشاعر "تأبط شرا" ، وقد توفي قبله، والدليل على ذلك هو قصيدة هذا الأخير والتي يرثي فيها صديقه الشنفرى بعد موته بقوله[4][الطويل]:

على الشنفرى سارِي الغمامِ فرائـحٌ غزيرُ الكُلى أوصيِّبُ الماءِ باكِـــرُ[5]

عليكَ جـداءٌ مثلُ يومِكَ بالحَيَـــا وقد رعَفَتْ منِّي السّيوفُ البواتِـــرُ[6]

[1] الأصفهاني: الأغاني، ج21، ص87.88.

[2] الشنفرى: الديوان، ص9.

[3] حفني عبد الجليل: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص112.

[4] تأبط شرا: الديوان، ص27.

[5] ساري الغمام: السحاب الممطر ليلا، الرائح: السحاب الممطر بالعشي، الكلى: جمع الكلية. وهي أسفل السحاب، صيّب الماء: منصبّه، يدعو لشاعر لصديقه بالسقيا.

[6] الجداء: النفع والعطاء، الحيا: شعبة من وادي بمكان بعينه، رعفت: خرج منها الدم.

ويومُكَ يوم العيكتينِ، وعطفَـــــةٍ عطَفتَ وقد مسَّ القلوبَ الحناجِـرُ[1]

تجيلُ سلاح الموتِ فيهم كأنَّهـــم لشوكتِكَ الحُدّى، ضئينٌ نوافـــــرُ[2]

فهذه القصيدة التي يرثي فيها الشاعر "تأبط شرا" صديقه الحميم "الشنفرى" ويذكر لنا شجاعته وبطولته هي ما تجعلنا نتأكد يقينا بالفترة الزمنية التي عايشها الشاعر، إذ تزامنت فعلا مع الفترة التي عاشها خاله "تأبط شرا" والشاعر "عمر بن براق" وغيرهم من الشعراء الصعاليك الآخرين الذين ملأت مغامراتهم كتب الأدب.

4- السُّليك بن السَّلكة:

«هو السليك بن عمرو وقيل بن عمير بن يثربى أحد بني مقاعس، وهو الحرث بن عمرو بن كعب ابن سعد بن زيد مناة بني تميم، والسلكة أمه وهي أمة سودا، وهو أحد العدائين العرب الذين لا يلحقون ولا تعلق بهم الخيل إذا عدوا»[3]، فالشاعر من أغربة العرب لأن أمه كانت سوداء اللون، يعتبر من أشهر صعاليك الجاهلية وأقواهم بعزيمته وبسرعته وشدة بطشه وشجاعته التي ذاع صيتها في أرجاء شبه الجزيرة كلها.

جاء في الشعر والشعراء لابن قتيبة أن السّليك «كان يقول: اللهم إنّك تهيّئ ما شئت لمن شئت إذا شئت، اللّهم إنّي لو كنتُ ضعيفًا لكنت عبدا، ولو كنتُ امرأة لكنتُ أمَةً، اللّهم إني أعوذ بك من الخيبةِ فأما الهيبةُ فلا هيبة»[4]، فالشاعر إذا قد بلغ من الشجاعة ما لا يوصف، فقد كان يُغير على رجليه لا يهابُ شيئا، خبير بمسالك الصحراء والطرق الوعرة حتى قيل عنه أنه أدلّ الناس بالأرض فقد

[1] العيكتين: يوم مشهور للشنفرى وتأبط شرا وعمر بن براق، العطفة: الكرة والهجمة.

[2] الحدّي: الحدّى: فعلى من الحدّة، ضئين: جمع ضأن. وجعلهم ضئينا لأنهم أضعف.

[3] الأصفهاني: الأغاني، ج18، ص133.

[4] ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج01، ص365.

قال عنه صاحب الأغاني بأنه كان أدلّ من قطاة[1]، ولهذا قصصه ومغامراته الشيقة تملأ كتب الأدب وتزينها، فصاحب الأغاني وحده قد أورد له أكثر من قصة عن مغامراته وفتكه بالأعداء.

وقد كانت العرب تدعوه بـ "سليك المقانب"[2] وذلك من شدة سرعته وقدرته الخارقة على العدو، أما شعره فقد ضاع منه الكثير ولم يصل إلينا إلا بعض القصائد فقد قال عنه المفضل في روايته بأنه من أشعر العرب.[3]

وقد ذُكر في سبب وفاته أنه يروى في بعض غزواته مر على بيت من قبيلة خثعم، ولم يكن في ذلك البيت إلا امرأة بضة، فأعجبته فأقبل عليها وفعل فعلته ومضى، ثم عندما عاد القوم أخبرهم بذلك فركب "أنس بن مدرك الخثعمي" في إثره فقتله، وطُولبَ بديته، فقال: والله لا أديهِ ابن إفَال، ثم قال في ذلك [البسيط]:

إنّي وقتليْ سُليكًا يومَ أعقِلُـــــه كالثّورِ يضربُ يومَ عافتِ البقـــــرُ

غَضِبتُ للمرءِ إذ نيكتْ حليلتُـهُ وإذْ يشدُّ على وجعَائها الثَّفَـــــــرُ[4]

فمن خلال البيتين نتأكد يقينا بأن هذه الحادثة هي فعلا نهاية قصة الشاعر "السليك بن اللسلكة".

5- أبو الطمحان القيني:

هو حنظلة بن الشرقي أحد بني القين بن جسر بن جسر الله من قضاعة، كان شاعرا فارسا خاربًا صعلوكًا، وهو من المخضرمين أدرك الجاهلية والإسلام[5]، كان خبيث الدين فيها كما يذكر وكان تربا للزبير بن عبد المطلب في الجاهلية وندِيما له، فقد روى صاحب الشعر والشعراء عن خبث دينه ونزقه

[1] الأصفهاني: الأغاني، ج18، ص134.

[2] المقانب: جمع "مقنب" بكسر الميم وفتح النون، وهو جماعة الخيل من الفرسان، قال المفضل الضبي"من الثلاثين إلى الخمسين".

[3] المرجع نفسه، ص134.

[4] ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج01، ص368.

[5] الأصفهاني: الأغاني، ج11، ص125.

وطيشه أنه سئل يوما ما أدنى ذنوبك؟ قال: ليلةُ الدّير، قيل له وما ليلة الدِّير؟ قال: نزلتُ بديرانية فأكلتُ عندها طِفشيلاً بلحم خنزير، وشربتُ من خمرها وزنيتُ بها، وسرقتُ كساءها، ومضيتُ[1]!.

فأبو الطمحان القيني من خلال أخباره التي روتها كتب الأدب «يلاحظ عليه ملاحظتين شذَّ بهما عن أخص ما يميز الصّعاليك، إحداهما إسفافه وتنزله إلى أعمال ينفر منها خلق الصعاليك، فالصعاليك على أن حياتهم كانت تعتمد على السّلب والنّهب والتّلصص إلاّ أنهم كانوا يتعففون دائما عما ينافي المروءة والخلق الكريم، ولكن أبا الطمحان لم يتعفف عن ذلك، ومن هذا قصته مع المرأة التي آوته وأكرمته فسطا على شرفها ومالها ثم هرب، وأكثر من ذلك أنه كان يفتخر بهذه القصة، وهي المعروفة بقصة الدير، والأخرى هي أنه على كثرته وإن لم يخل من جودة، يخلو دائما من روح العزة والإباء والاعتداد بالذات وهي الروح التي تعتبر أهم ما يميز شعر الصعاليك» [2].

6- قيس بن الحدادية:

هو قيس بن منقد بن عمرو بن عبيد بن ضياطر بن صالح بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة بن حارثة، وهو من خزاعة بني حفصة من قيس عيلان بن مضر ثم من قبيلة منهم يقال لهم بنو حداد، والحدادية هي أمه، شاعر من شعراء الجاهلية وكان فاتكًا شجاعًا صعلوكا خليعًا خلعته خزاعة بسوق عكاظ، وأشهدت على أنفسها بخلعها إياه فلا تحتمل جريرة له ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه[3].

كان "قيس بن الحدادية" شاعر فاتكًا ذا بأس شديد خلعته قبيلته لكثرة جناياته وغاراته التي سببت ثقلا لقبيلته وصداما مع الآخرين في كل مرة، وقد أدَّي ذلك لخلعه في سوق عكاظ، والتحرر من كل جناياته المتكررة التي لحقت القاصي والداني.

[1] ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج01، ص388.
[2] عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص125.
[3] الأصفهاني: الأغاني، ج13، ص02.

له شعر كثير في الافتخار بقومه قبل خلعه، كما له قصائد في الغزل، وهذه القصيدة التي سنذكر منها بعض الأبيات تعتبر من غرر القصائد الجميلة والمنسوبة لهذا الشاعر "الصعلوك "

حيث يقول[1][الطويل]:

أجدك إن نعمٌ نأت أنتَ جـازعُ قد اقتربتْ لـــو أنَّ ذلكَ نافِـــعُ

قد اقتربتْ لو أنَّ في قربِ دارِهَا نوالاً ولكِـــن كـــلُّ من ضنَّ مانـــعُ

وقَد جاورتنَا في شُهورٍ كثيـــرةٍ فمـا نوَّلت واللـــهُ راءٍ وسامِـــــعُ

فإن تلقيَا نعمًا هُديتَ فحيِّهَـــا وسلْ كيفَ تُرْعَى في الغُروبَ الودائـعُ

وظـنِّي بها حفظ بعيني ورعِيَـــةٌ لمـا استرعيَت والظَّن بالغيبِ واسـعُ

وقلتُ لها في السِّـــر بيني وبينَهـا علـى عجَـــلٍ مـــن سارَ راجِـــعُ

فقالت لقاء بعد حـولٍ وحجَّـــة وشحطٌ النَّوى إلا لِذي العَهدِ قاطِـعُ

فالقصيدة طويلة جدا وراقية أيضا، فيها من المعاني والصور الجميلة وما يدل فعلا على شاعرية هذا الشاعر الصعلوك .

7- عمر بن براق:

هو شاعر من الشعراء الصعاليك الجاهليين المعروفين بلصوصيتهم وشجاعتهم وجرأتهم أيضا، اسمه عمرو ونسب إلى أمه براقة (وهناك من يذكر الاسم براق أيضا وليس براقة)، من قبيلة همدان، ذكر اسمه كاملا الدكتور "عبد الحليم حفني" وهو؛ عمر بن براق بن منبه بن يزيد الهمداني[2]، حيث كان رفيقا للشنفرى وتأبط شرا في الصّعلكة، كان نموذجا للصعلوك العنيد القوي الذي لا يهابُ شيئا كما

[1] المصدر السابق، ص:06.

[2] ينظر: عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص118.

أنه أحد العدائين المشهورين من الصعاليك، وقد كان لا يخشى شيئا و لا تقف عاقبة في طريق هدفه فقد ذكر صاحب الأغاني قصته مع "حريم الهمداني" والتي تعبر عن شجاعته الكبيرة التي يتمتع بها هذا الشاعر، حيث كان حريم مهيبا مخيفا أغار مرة على إبل عمرو وذهب بها، فقرر عمرو أن يغير عليه ويرد عليه غارته ويسترجع ماله، وقد حذّره الناس من التعرض لتلفات حريم، لكنه لم يأبه وصمم على الإغارة واستاق كل ما يملكه حريم وعاد منتشيا بنصره[1].

وقد قال قصيدته الميمية الشهيرة التي أوردها صاحب الأمالي والتي فيها حكمة تعتبرا مبدأ يسير عليه جمهور الصعاليك كلهم، يقول فيها[2] [الطويل]:

تقـول سُليـمى لا تعرَّض لتلفـــةٍ وليلكَ عــن ليـلِ الصّعاليكِ نائــمُ

وكيفَ ينامُ اللَّيل مــن جلُّ مالـــه حسامٌ كلون الملـحِ أبيضَ صـــارمُ

ألم تعلَـمِي أنّ الصعاليكَ نومهُــم قليـــــلٌ إذا نام الخليُّ المسالــمُ

متى تجمَعِ القبَ الذّكيَّ وصارمًــا وأنفًا حميًـا تجتنبـــكَ المظالـــمُ

متى تطلبِ المالَ الممنّع بالقـنــا تعشْ مـاجدًا أو تخترمكَ المخـارمُ[3]

والقصيدة طويلة وفيها من الحكمة الشيء الكثير، جاءت أبياتها متناثرة في مختلف كتب الأدب وذلك لشهرتها وقيمتها الكبيرة.

8- صخر الغي:

هو صخر بن عبد الله الخثعمي أحد بني خثعم بن عمرو بن الحرث بن تميم بن سعد بن هذيل – وهذا أكثر ما وجده صاحب الأغاني عن نسبه–، وقد لقب بصخر الغي لخلاعته وشدة بأسه

[1] الأغاني: الأصفهاني، ج21، ص113.
[2] القالي: الأمالي، ج02، ص122.
[3] المخارم: سبل الموت.

وكثرة شرّه[1]، كان شاعر صعلوكًا خاربًا بالأرض كثير المغامرات والغارات، «وقد كان شاعرا قويا عميقًا، أبرز شعره شعر الصراع مع أعدائه، ومنافراته مع عدوه أبي الملثم، وشعر الطبيعة الذي يعكس حياته في الصعلكة»[2].

أما شجاعته وشدة بأسه وخلقه الرفيع وسماحته فنجدها في الأبيات التي أوردها صاحب العمدة فعندما توفى الشاعر بلغ ذلك أبا الملثم فقال يرثيه ويذكر ما فعله بقوله[3] [البسيط]:

لو كان للدّهر مالٌ عند متلـدِه لكـان للدَّهرِ صخرٌ غير قينَـانِ

آبي الهضيمةِ، نابٍ بالعظـــمة متلافُ الكريمة لا سقطٌ و لا وانِ

حامِ الحقيقة نسَّال الوريقـــــة معتاق الوسيقة جلدٌ غيرُ ثُنيـــانِ

ربَّاء مرقبـــةٍ منَّاعُ مغلـــــبةٍ ركابُ سهلبةٍ قطَّاع أقـــــرانِ

هبَّاط أوديـــةٍ شهَّاد أنديـــةٍ حمّال ألـــويةٍ سرحـانُ فتيـــانِ

يعطيكَ مالا تكادُ النفسُ تسلِّمه من التّلادِ وهابٌ غيـر منـــــانِ

فهذه الشهادة من عدوه أبي الملثم تنصفه وتجعله في مكانته وشخصيته الحقيقية، والتي لا نستبعد أن تكون منزلة رفيعة وسط مجتمعه وبين أصحابه ورفاقه.

[1] الأصفهاني: الأغاني، ج20، ص20.

[2] عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص117.

[3] ابن رشيق القيرواني، العمدة، ص26.27.

ثالثا– موضوعات شعر الصعاليك:

يعتبر شعر الصّعاليك الجاهليين أفضل وأحسن مرجع لمن أراد أن يطّلعَ على طبيعة الحياة في العصر الجاهلي، وخاصة تلك الحياة التي عاشها هؤلاء الشعراء بمغامراتهم وصراعاتهم اللامتناهية، فهذا التراث الشعري له من الدِّقة وحسن التصوير ما يجعلنا نشاهد حياة هؤلاء الصعاليك وطبيعة حياتهم بطريقة بارعة، تمكننا من فهم ومعرفة ثنايا هذه الحقبة الغابرة التي ضاع فيها هؤلاء الشعراء.

ولا يمكننا أن نتعرَّف على طبيعة الحياة التي عاشوها هؤلاء الشعراء إلا إذا تطرقنا إلى مختلف الموضوعات التي جاءت فيها أشعارهم، من حديث عن الفقر والجوع والذي يصيبهم حتى الغشي ووصف لمغامراتهم المليئة بكل أنواع التشرد والضياع، ووصف لأنواع الأسلحةِ التي كانوا يستخدمونها إذ يتفننون في وصفها وغيرها من المواضيع التي كانت مادة دسمة لشعرهم.

يقول الأستاذ "فؤاد أفرام البستاني" عن شعر الصّعاليك وكيفية وصفهم وتصويرهم لحياتهم في أشعارهم: «وكان أكثرهم من الشعراء، فخلّدوا مآثرهم هذه في أبيات جافية الظاهر دقيقة التصوير وألَّفوا ما نسمِّيه في الآداب جمهور الشعراء الصعاليك»[1]، فهذه الأشعار التي قالها أصحابها بالنسبة للدارسين لا تعطينا رؤية واضحة عن الحياة في العصر الجاهلي وطبيعتها فقط، بل تعتبر تصويرا ناجحًا لنفسية الصعاليك وتجسيدًا لفلسفتهم ومذهبهم في الحياة، لهذا فموضوعات شعرهم أليق وأجدر بالاهتمام والدراسة في كل عصر من العصور.

1– الفقر والجوع:

إذا كانت حياة التّصعلك قائمة على السّلب والنّهب، والمبيت في العراء، فهي مليئة ولا شك بالمواقف التي تصّور لنا صراع هؤلاء الشعراء مع الفقر، وشدة الجوع، الذي سيطر على حياتهم وعكّر صفوها لأن طبيعة الحياة التي عاشوها تفرضُ عليهم تصوير ووصف حالات الجوع والحرمان التي تلازمهم

[1] الشعر الجاهلي نشأته، فنونه، صفاته، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، (د/ط)، (د/ت)، ص46.

لأيام، «ولا ريبَ أن حياة هؤلاء الصّعاليك كانت حياةً خشنة شاقة، فكثيرا ما كانوا يمضون أياما بلا طعام، ولذلك كثر في شعرهم وصف مغالبتهم للجوع، وكيف كان يغشاهم من هذا الجوع دوار فلا يكادون يستطيعون قيامة»[1]، فإن كان الجوع يلازمهم لأيام فلا غريب أن نجد كل شعرهم حديث عن الجوع والفقر ومعارك الصراع معه.

وها هو صاحب الأغاني يورد لنا خبرًا عن "السُّليك بن السّلكة" وصراعه مع الجوع الشديد، حيث يصف لنا حاله بقول[2] [الطويل]:

وما نلتُها حتى تصعلَكتُ حقبــةً وكدتُ لأسبابِ المنيةِ أعــرفُ

وحتّى رأيتُ الجوعَ بالصيفِ ضرَّني إذا قمتُ تغشَاني ظلالٌ فأسدِفُ

فهذه حقيقة يسوقها إلينا السّليك حول صراعه مع الجوع وصبره على لقمةٍ يسدُّ بها جوعه الشديد الذي كاد أن يقضي عليه، فهو لا يستطيع القيامَ من شدة الجوع وحتى لو استجمع قوته فإنه يُغمى عليه بعد القيام، كلُّ ذلك في فصل الصيف الذي يسهل فيه الحصول على لقمة العيش ولك أن تتصوَّر حالهم وجوعهم في فصل الشتاء.

أمّا "الشنفرى" فهو الآخر قد مرّت عليه حالات صعبة تركت أثرها في مخيلة الشّاعر، فهو يصوّر لنا هذه المواقف في أحسن تصوير بقوله[3] [الطويل]:

أديمُ مطالَ الجــوعِ حتّى أمــــــه وأضربُ عنه الذّكــر صفحًا فأذهـلُ[4]

وأستفُّ تربَ الأرِض كي لا يُرى لـه عليَّ من الطّول امرؤٌ متطـــــــوّلُ[5]

[1] فوزي أمين: الشعر الجاهلي دراسات ونصوص، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط01، (د/ت)، ص416.

[2] أبو الفرج الأصفهاني، ص135.

[3] الشنفرى: الديوان، ص62.

[4] مطال: من المماطلة، اضر بعنه الذكر صفحا: أي أتناساه.

[5] الطّول: المن وامرؤ متطول أي منّان.

ولولا اجتنابُ الذّامِ لم يُلف مشربٌ يعاشُ به إلاّ لــديّ ومأكَـــــــلُ[1]

فالشاعر في هذه الأبيات يضعنا أمام صورة حية لحياة التّصعلك التي عاشوها، فهو يتناسى الجوع بمماطلته، وعدم تذكره، حتى ليضطرّ لاستيافِ تُرب الأرض، على أن يمد يده إلى أحد ليتفضل عليه بلقمة العيش وهذه هي كرامة وعز النفس عند الشعراء الصّعاليك، فهم يفضلون تحمل مشاق الجوع والفقر على الخضوعٍ وسؤال الناسِ.

«والجوع حليفٌ ملازمٌ للصّعاليك، لم ينفر منهم، ولم يبتعد عنهم لذلك كثر الحديث عنه في شعرهم وأخبارهم، وقد كانوا يهربون منه، لكنهم لم يفلتوا منه، فقد كان ممسكًا بهم ملازمًا لهم، ماداموا صعالكة، فالجوع نفسه جزء من أجزاء الصّعلكة»[2]، فالحقيقة إذًا هي أن الجوع لم يفارق الصعاليك طيلة حياتهم، ولم يعرفوا طعم العيش الرغيد أو أنواع الأكل اللذيذ فحياتهم قلقة غير مستقرة كحياة طائر شريد.

ومن الشعراء الصعاليك أيضا من شكَّل الفقر عنده عقدة لازمته طيلة حياته "عروة بن الورد" والذي نجده في فلسفته حول الفقر والغني يقول[3] [الوافر]:

دعيني للغنى أسعَى فإنّي رأيتُ النّاسَ شرّهم الفقيــرُ

وأدنَاهم وأهونهم عليهم وإن أمسَى له حسَبٌ وخيرُ

فالفقير عند عروة لا مكانة له بين النّاس، وهو شرُّهم الذي لا يحتاجونه أبدا، بل يحتقرونه ويهينونه لا لشيء إلا لفقره حتى وإن أصبح فيه ما فيه من الخير والصَّلاح، فهذه المعادلة الغير متوازنة بين الفقير والغني ما من شأنها أن تحفر جرحا في نفسية حساسة كشخصية "عروة بن الورد"، حيث يجعله هذا يعاني نفسيا ألما ينضاف إلى جوعه وفقره الشديد.

[1] الذام: العيب الذّي يُذم به.

[2] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج09، ص605.

[3] ابن السّكيت: شرح ديوان عروة بن الورد العبسي، ص198.

حيث يقول في موضع آخر[1] [الطويل]:

إذا المرءُ لم يطلبْ معاشًا لنفسه شكا الفقرَ أو لام الصَّديقَ فأكثرَا

وصار على الأدنين كلاًّ وأوشكتْ صلاتُ ذوي القربى له أن تنكّـرَا

فالشاعر يدعو إلى كل سبل الجد والكدّ بالضرب في البلاد بحثا عن الرزق بدلًا من شكوى الفقر والجوع، لأنه إن لم يسعى إلى لقمة العيش سيملُّه الأقارب والأهل ويتنكَّرون له، لهذا فشعر الصّعاليك كما نرى هو شعر مليء بشكوى الفقر وصرخات الجوع التي ميزت حياة هؤلاء الصعاليك، والذي بدوره مثل جانبا كبيرا من نتاجهم الشعري ومواضيعهم الشعرية التي كتبوا فيها.

2- التشرد والضياع:

لعل من أهم النقاط والمواضيع التي تناولها الشعراء في شعرهم حديثهم عن تلك الحياة القاسية التي عاشوها في مجتمعهم البديل، بعيدا عن تلك الأجواء المستقرة الهادئة التي افتقدوها، فكونهم لم ينعموا بطعم الأمان ولا الاستقرار داخل القفار الموحشة كان له الأثر البالغ في تغيير طريقة تفكيرهم وأسلوب عيشهم، وحتى تعاملهم مع الآخر من بني جنسهم.

وقد تأقلم هؤلاء الصعاليك مع الحياة الجديدة القائمة على التشرّد والضياع في دروب الصحاري الشاسعة، ومختلف الشِّعاب الوعرة، والمسالك المليئة بالحيوانات المتوحشة، ما جعلهم يفتخرون بتشرُّدهم وضياعهم، مستأنسين ببعض الحيوانات الضارية التي في العادة يخاف منها الرجل ويهاب حتى ولو كان معه السلاح كقول تأبط شرا[2] [الطويل]:

يبيتُ بمغنى الوحشِ حتّى ألفنَه ويُصبحُ لا يحمَى لها الدّهرُ مرتَعَا[3]

[1] المصدر السابق، ص198.

[2] تأبّط شرا: الديوان، ص34.

[3] المرتع: مكان الرعي.

فالمعني في البيت يشير إلى أن الشاعر قد ألف وحش الصحراء حتى اطمأنَّ إليه هو الآخر، وذلك من شدة بقاء الشاعر بجواره وفي مكانه الذي تسرح فيه الوحوش والحيوانات الضارية.

أمّا "الشنفرى" في لاميته المشهورة فنراه يستبدلُ مجتمعه الأصلي بالمجتمع الآخر ألا وهو المجتمع الحيواني مقاطعا لقومه ولمجتمعه الفاسد-حسبه-، «وبدء هذا الشعور كان عدم تكيُّفهم مع المجتمع ونفورهم منه وهجرتهم عنه للعوامل التي أدّت إلى الصّعلكة،...وقد عبَّروا عن هذا الشعور بصراحة كما يقول الشنفرى أنه مصمم على هجرة النّاس جميعا إلى مكان لا أجاور فيه أناسا، ولا أتعامل مع بشر، وقد كان المكان الأثير لديه بعد تصميمه هذا هو الصّحراء الموحشة المقفرة من البشر»[1]، فلم يبق للشاعر سوى أن يفتخر ويتعايش مع هذا العالم الجديد والموحش رافضا المكوث مع بني جنسه وبين قومه الذين خذلوه، حيث يقول[2] [الطويل]:

ولي دونكم أهلــون سيدٌ عملّسٌ وأرقطُ زهلـــــولٌ وعرفاءُ جيألُ[3]

هم الأهلُ لا مستودعُ السّر ذائعٌ لديهم ولا الجاني بما جرّ يُخذلُ

ففي هذين البيتين يظهرُ لنا الشاعر في عزلةٍ نفسيةٍ وليست فقط العزلة الجغرافية المادية التي تلحق وتمس كل مغترب عن أهله وقومه، بل نجد أن هذا الاغتراب النَّفسي هو من يدفع الشاعر إلى الافتخار بحياة التشرد والضياع خارج الأهل والقبيلة، لهذا فالأمر منطقي جدًّا استدعته حالة الشاعر النفسية، وإحساسهُ الغريب داخل مجتمعه الأصلي.

بقول عروة بن الورد[4] [الطويل]:

وسائلةٍ أين الرّحيلُ وسائلٍ ومن يسأل الصّعلوك: أين مذاهبه؟

[1] عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص283.

[2] الشنفرى: الديوان، ص59.

[3] السيد: الذئب، عملّس: الذئب القوي السريع، زهلول: خفيف، عرفاء و جيأل: الضبع الطويلة العرف، وجيأل من أسماء الضبع.

[4] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص48.

مذاهبه إنّ الفجاجَ عريضةٌ إذا ضنَّ عنه بالفِعـــــالِ، أقارِبُه[1]

فالشاعر هنا وكأنه يتعجَّب ممن يسأل عن مكان ومأوى الصعلوك، الذي يختار بكل قناعةٍ الفجاج العميقة عالما جديدًا له لتعويض عزلته التي يعيشها ويحسُّ بها داخل مجتمعه السابق.

أمّا "تأبط شرا" فنراه في موضع آخر يمدح صديقا له من الصَّعاليك لشدّة ما أعجب به من طريقة عيشه حيث يقول فيه[2] [الطويل]:

قليلُ التّشكّي للمهمِّ يُصيبُــه كثير الهَوى شتّى النَّوى والمسالكِ

يظلُّ بموماةٍ ويُمسي بغيرهَــا جَحِيشًا ويَعرورَوي[3] **ظهورَ المهالِكِ**

فتأبط شرا هنا يمدح ما رآه من صديقه الذي لا يخاف ولا يشتكي كثيرا من المهالك التي تصيبه، أو تنزل بساحته، فهو في صورة البطل المقدام، الذي يركب المهالك بتشرّده، وتنقله في المسالك الوعرة والصحاري، التي لا يقطعها إلا من يملك الشجاعة الكافية والقوة والجلد أيضا.

كما نجد هذا المعنى عند "عروة بن الورد"[4] في قوله [الطويل]:

وغــبراءُ مخشَّى رِداهَــــــــــا أخوهَا بأسبابِ المنايا مغـــــرَّرُ[5]

قطعتُ بها شكَّ الخــلاجِ ولم أقل لخيّابَةٍ، هيّابةٍ، كيف تأمـــــــرُ[6]

فهكذا إذن كانت حياة التّشرد والضياع في عالم الصَّحاري المقفرة، والشِّعاب الوعرة، من أهم النقاط التي ركّز عليها الشعراء الصعاليك في شعرهم وافتخروا بها، فعروة مثلا في هذين البيتين نجده يفتخر

[1] الفجاج: الطريق الواسع بين الجبلين.

[2] تأبط شر: الديوان، ص44.

[3] جحيشا ويعروري: أي منفردا . يرتكب المهالك.

[4] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص71.

[5] غبراء: مظلمة ليست بمسفرة الطريق.

[6] شك الخلاج: ما يخالج النفس ويشككها، الخيابة: الكثيرة الخيبة، الهيابة: الفروق الكثيرة الخوف.

بقدرته على ولوج الصحاري المظلمة، والاهتداء في دروبها المتشعبة والغامضة دون الاستعانة بالآخرين فالصعاليك في هذا المجتمع الجديد والموحش يفتخرون كثيرا بالصعلوك الشجاع والمخاطر، والذي يقطع الفيافي وحده، ولا يستعين بأحد في ذلك، كما نجدهم كذلك في الوقت ذاته يذمون الصعلوك الخامل الكسول، الذي يقبع خلف أدبار البيوت لا يبرح مكانه طوال يومه معتمدا على الآخرين في تحصيل قوته ورزقه.

3- وصف المغامرات:

يعتبر شعر الصعاليك مرآة حقيقية لطبيعة حياتهم المليئة بالمحطات المتنوعة في غياهب الصحاري وجيوب الشعاب الوعرة، إذ نجد أن معظم حياتهم قد مرت عليهم كرّ وفرّ، وانتقال من منطقة لأخرى بحثا عن لقمة العيش، أو هروب من خطر أو مطاردة، أو غيرها من المغامرات التي كانوا يقومون بها في جميع أيامهم التي لا تعرف السكينة أو الاستقرار في منطقة واحدة مدة معينة، فذلك يجعل «من الطبيعي أن يكون أكبر ما يعنى به شعراؤهم أحاديث مغامراتهم، لأن هذه المغامرات هي الحرفة التي قامت عليها حياتهم ... وهم يتحدثون عن حياتهم حديث المؤمن بقيمته في حياته، المعجب بها الفخور ببطولته فيها،... وهم يصفون كل ما يحدث في هذه المغامرات، منذ أن تأخذ جماعة الصعاليك في وضع خططها، إلى أن تنتهي من الغارة»[1].

فشعر الصعاليك مليء بتلك المغامرات التي يقضون فيها أغلب أوقاتهم، فقد جاء في الأغاني وصف لمغامرة كان بطلها الشاعر الصعلوك "السليك بن السّلكة" حيث خرج مرة مع رفيقين له في يوم مطيرٍ إذا بالسليك يهاجم بيتا، ويسرق إبل للشيخ صاحب البيت مسجلا ذلك في مقطوعة شعرية يقول[2] فيها [الطويل]:

[1] يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص182.
[2] الأصفهاني: ج18،ص135.

وعاشيةٍ[1] راحَت بطانًا ذعرتُهَـــــا بسـوطٍ قتيلٍ وسطهـــــا يتسيّفُ[2]

فباتَ لهم أهـــلٌ خلاءٌ فناؤهـــم ومـــرَّت بهم طيرٌ فلم يتعيَّفـــوا[3]

وباتوا يظنُّـــــــون وصُحبـــتي إذا ما علوا نشزًا أهلّوا و أوجفـــوا[4]

ومـا نِلتها حتى تَصعلكتُ حقـــةً وكدتُ لأسبابِ المنيةِ أعـــــــرفُ

وحتّى رأيتُ الجوع بالصّيفِ ضرّني إذا قمتُ تغشاني ظـــلالٌ فأســدِفُ

فالشاعر في هذه الأبيات يصوِّر لنا مغامرته مع صاحبيه، اللذين دبَّرا معه تلك الخطة المحكمة في سرقة الإبل وفرارهم مسرعين تاركين أهل البيت في حيرة من أمرهم .

أمّا "الشنفرى" ومغامراته المتكررة التي كان يخوضها مع أصحابه فمنها ما ساقه لنا في مقطوعة شعرية يوم خروجه مع مجموعة من الصعاليك لغارة، حيث يبدأ بإعلانه لزوجته الخروج مع رفاقه غير مبالٍ بالأخطار التي تهدد حياته فيقول[5] لها [الطويل]:

دعيني وقولي بعدُ ما شئتِ إنَّني سيُغدى بنعشي مـرَّةً فأغيّبُ

فالشاعر هنا متلهّف للخروج مع الجماعة واللحاق بهم، فهو لا يملك الوقت الكافي ليشرح لزوجته سبب الخروج ولا هدفه ثم يضيف[6] [الطويل]:

خـــــرجنا فلم نعهدْ وصَاتُنَا ثمانيـــــــةٌ مـــا بعدَها متعتَّبُ

سراحينُ فتيانٌ كأن وجوهَهُـم مصـــابيحُ أو لونٌ من الماء مذهبُ

[1] العاشية: من الجمال التي تعشّت.

[2] يتسيّف: يضربها بالسّيف.

[3] لم يتعيّفوا: لم يزجروها.

[4] نشزا: المكان المرتفع، أوجفوا: أسرعوا في سيرهم.

[5] الشنفرى: الديوان، ص27.

[6] المصدر نفسه، ص27.28.

فالشنفرى يصف لنا أصحابه عند خروجهم كأنهم ثمانية من الذؤبان لا يبالون أي خطرٍ أو هولٍ يهدد حياتهم، فهم في شجاعة لا توصف مستعدين لمهمتهم على أكمل حال، ثم يسترسل بعد ذلك في وصف المعركة التي دارت بينهم وبين خصومهم الذين واجهوهم، وقد كانت الغلبة في الأخير للشاعر ورفاقه بقوله[1] [الطويل]:

فثاروا إلينَا في السَّوادِ فهجهَجوا وصوّتَ فينا بالصّبـــاحِ المثوِّبُ[2]

فشنَّ عليهم هزَّةُ السّيفِ ثابثٌ وصمّم فيهم بالحُســامِ المسيـّبُ[3]

وظلـتُ بفتيانٍ معي أتقيهـــــم بهنّ قليلاً ساعةً ثمّ خيَّبـــــــوا

وقد خــرّ منهم راجلانِ وفارسٌ كميٌّ صرعناهُ وقـــــرمٌ مسلّــبُ[4]

فلمّا رآنا قومنا قيـل: افلـــحوا فقلنا اسألـوا عن قائلٍ لا يُكــذّبُ

فهكذا قد مرّت المعركة والمغامرة بين الطرفين قتالاً ونزالا كان الانتصار فيه لرفاء الشاعر، كلُّ ذلك بعد معركة طاحنة، وصراع شرس ظل فيه الشاعر "الشنفرى" يدافع عن مجموعة من الفتيان الصعاليك الذين كانوا معه حتى نهاية المعركة، وعادوا في الأخير إلى قومهم مفتخرين بصنيعهم.

4- وصف الأسلحة:

لا شك في أن السلاح في نظر العرب في العصر الجاهلي هو الزاد والمأوى والحصن أيضا، ذلك أنه يرجع لحياتهم المليئة بالأخطار والأهوال التي تحيط بهم من كل جهة، وتتربص بهم من كل النواحي كما

[1] المصدر السابق، ص28.29.

[2] هجهجوا: صاحوا، المثوب: الداعي المكرر الدعاء.

[3] صمم بالسيف: مضى إلى العظم وقطعه.

[4] الكمي: الشجاع، القرم: السيد العظيم.

أنه من شدة حاجتهم الدائمة للسلاح نرى الشعراء يتغنون بوصف أسلحتهم، والتباهي بأصالتها ومضاوتها، وحتى لونها، يقول[1] "أوس بن حجر" [الطويل]:

وأبيضُ هنديًّا كأنّ غـرارهُ تلألؤ برقٍ في حبيٍّ تكــللا[2]

فسلاح الشاعر هنا هو سيفٌ هنديٌّ حدّه مشرقٌ لمّاع، كبرق وامضٍ داخل سحابٍ كثيف وهذه الصورة القوية من أبدع الصور وأجملها في وصف السلاح أو السَّيف على الخصوص، لأنه بكل بساطة أهم سلاح عند العربي في العصر الجاهلي.

وإذا كانت هذه نظرة وأهمية السلاح عند العربي عموما فكيف ستكون عند الصعلوك الذي تتميز حياته أكثر بالمعارك، والكر والفر والاضطراب والخوف، لهذا «فالسلاح للصّعلوك هو الحماية الوحيدة التي يتقي بها أدى النّاس ويستعين بها في القضاء على خصمه، وهو السّيف والرمح والدرع والمغفر وكان لا يفارق سلاحه لأنه لا يدري متى ينقضُّ عليه عدو له فيقتله، فكان لابد له من حمل سيفه معه، واعتناقه له حيف نومه»[3].

وبهذا فإن حياة الصّعلوك تحتاج للسلاح أكثر من أي شخص آخر، لأن حياتهم محفوفة بالمخاطر المحيطة بها، وكثرة النزاعات مع الغير في كل وقت ومن كل جهة ما يجعل «من الطبيعي أن يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم، فهي القوة الثالثة التي يعتمدون عليها إلى جانب قوة قلوبهم وقوة أرجلهم »[4].

إن هذا الأمر يجعل هؤلاء الصعاليك أمام أمر الاستئناس بالسلاح، ومصاحبته والتغزل به أيضا، فهم يفتخرون بكل أنواع الأسلحة التي يملكونها، مبالغين في الوصف والافتخار والاعتزاز أيضا.

[1] أوس بن حجر: الديوان، تح: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ط03، 1979م، ص84.

[2] أبيض هندي: أي السيف، الغرار: هو حد السيف، الحبّي: حبا من السحاب أي ارتفع وأشرف، التكلل: تكلل السحاب أي صار بعضه فوق بعض.

[3] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج09، ص606.

[4] يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص195.

يقول "الشنفرى"[1] واصفا أسلحته [الطويل]:

وأبيض من مــاءِ الحديد مهنّدٌ مجدٌّ لأطرافِ السواعد مِقْطفُ[2]

وحمراء من نبعٍ أبيٌّ ظهــــيرةٌ ترنُّ كإرنانِ الثّجيِّ وتهتـــفُ[3]

فالسيف إصليتٌ، أبيض من ماء الحديد، قاطع للسواعد والأطراف، أما القوس فهي تحدثُ رنينًا وهتافًا عند انطلاقها كصوت أثقلته الأحزان والهموم، ذلك من شدة قوتها وصلابتها وجودة خشبها الذي صنعت منه.

ومن أروع الصور التي نجدها عند "الشنفرى" في وصف الأسلحة والاعتزاز بها هي تلك الأبيات التي وردت في لاميته الشهيرة في قوله[4] [الطويل]:

ثلاثةُ أصحــابٍ فؤادٌ مشيّـــعٌ وأبيضُ إصليتٍ وصفراءُ عيطـــلُ[5]

هتوفٌ من الملْسِ المتــون تزينُها رصائِعُ قد نيطَتْ إليهَا ومحمــلُ

إذا زلّ عنــها السَّهــمُ حنَّت كأنَّها مــرزّأةٌ عجلى ترنُّ وتعـــــولُ[6]

فالشاعر هنا يبالغ في وصف سلاحه، حيث السيف أبيض صارم، مجرَّدٌ من غمده، والقوسُ طويلة العنقِ تحدث صوتًا قويا عند انطلاقها، كما أنها ملساء مرصَّعة لا عقد فيها، قد اتخذهم الشاعر أصحابا أو رفاقا له مع قلبه الشجاع متحديا بذلك كل الأهوال، وهي صورة قوية تؤكد لنا مدي تعلق الشاعر الصعلوك بسلاحه، الذي يعتبر جزءا لا يتجزأ من شخصيته وحياته كلها.

---

[1] الشنفرى: الديوان، ص53.54.

[2] مجد: قاطع.

[3] الحمراء: القوس، نبع: شجر يتَّخذُ منه القسي والسهام.

[4] المصدر نفسه، ص60.

[5] مشيّعُ: شجاع، صفراء: القوس من شجر النبع.

[6] مرزّأة: من الرزايا أي المصائب.

والمعنى نفسه تقريبا نجده عند "عمر بن براق" في قوله[1] [الطويل]:

متى تجمعِ القلبَ الذكيَّ وصارمًا وأنفًا حميًا تجتنبكَ المظالـــــمُ

فمن أراد أن تجتنبه المظالم عليه بالأسلحة الثلاثة التي عدّها الشاعر، فهي تعبر عن العقيدة التي يسير وفقها الصعاليك القائمة على القوة، والشجاعة، والصبر وقوة التحمل، وغيرها من مستلزمات التعايش مع ذلك المجتمع الذي يكون البقاء فيه للأقوى.

أمّا في وصف الرمح الذي هو الآخر من أسلحة الحرب، حيث نجد الشاعر "صخر الغي"[2] يصف لنا رمحه من خلال رحلة صيد استطاع أن يصطادَ فيها حمارى وحشٍ، يقول[3] [الوافر]:

فشَمت في صدُورهمَا رماحًا من الخـطّي أشربتِ السِّمامَـا

فالشاعر في هذا البيت حريصٌ على أن يرسم لنا صورة جميلة عن رمحه الذي صُنع من شجر الخطِّي إضافة إلى إشباعه سمًّا من طرف صاحبها كي تكون أكثر تأثيرا وفتكا على الضحية، وهذا الحرص من الشعراء الصعاليك على وصف الأسلحة، والافتخار بامتلاك أحسن الأسلحة، إنما من مكانة السلاح في حياتهم وحاجتهم الدائمة له في حياتهم.

5- التّوعد ووصف الصراع:

إن توعّد الخصوم وتهديدهم ووصف الصراع الدائم معهم من أهم النقاط التي تحضُر جلية في شعر الصعاليك الجاهليين، وذلك نظرًا للمعاملة التي عوملوا بها، سواء في مجتمعاتهم التي طردتهم وخلعتهم أو القبائل الأخرى التي زجرتهم ولم ترحمهم، أو حتى بالنسبة لمن لم يحسن معاملتهم ونبذهم، كل ذلك

[1] الأصفهاني: الأغاني، ج21، ص114.

[2] هو صخر الغي بن عبد الله الخثيمي من هذيل، كان شاعرا قويا، وأغلب شعره في الصراع مع أعدائه وشعر الطبيعة الذي يعكس حياته...(للتوسع ينظر: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه. لـ'عبد الحليم حفني'، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني).

[3] أحمد الزين: ديوان الهذليين، ج02، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط02، 1995م، ص66.

من شأنه أن يشكل حقدا دفيناً عند هؤلاء تجاه خصومهم فيجعل نفسيتهم تتشرب مختلف أساليب العدائية ورد الثأر وعدم التّسامح مع المسيئين إليها.

والحديث عن الخصومة والتهديد نجد أحسن مثال عن ذلك بلا شك الشاعر "الشنفرى" الذي روت عنه كتب الأدب أنه أقسم ليقتل من قومه مئة رجل كل ذلك بما فعلوه به بنو سلامان «أولئك الذين كانوا السّبب المباشر لصعلكته»[1].

وقد كان "الشنفرى" يمنّي النفس فقط بأن يطيل الله في عمره كي يشفي غليله ويثأر منهم بصب غضبه عليهم، يقول[2] [الطويل]:

فإن لا تزرني حتفَـتِي أو تلاقِـني أمشِّ بدهـرٍ أو عدَافٍ فنـــوّرَا[3]

أمشِّ بأطـــرافِ الحمـــاطِ وتارةً ينفِّضُ رجلي بُسبُطا فعصنصَـرَا[4]

أبغـي بني صعبٍ بن مرٍّ بلادهـم وســوفَ ألاقيهم إن اللّه أخّــرَا

ويوما بذات الرّسِّ أو بطنُ منجـلٍ هنالكَ نبغـي القاصيَ المتغـوِّرَا[5]

فالشاعر في هذه الأبيات يبدو ساخطًا جدا على قومه، فهو يحقد عليهم وينتظر الفرصة المواتية لصب جل غضبه عليهم، حيث نجده يتمنى حياة طويلة كي تأتيه فرصة إفراغ غضبه وسخطه عليهم، ولا مجال للتصالح معهم إلا بإسالة الدماء على الأرض.

والمعنى نفسه نجده عند "عمر بن براق" الذي يعلن استمرار الصِّراع مع أعدائه ولا مجال للصلح معهم مهما كان.

---

[1] يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص191.

[2] الشنفرى: الديوان، ص46.47.

[3] دهر، عداف، نوار: أماكن في بني سلامان.

[4] الحماط: ضرب من النبت، البسبط والعصنصرا: جبلان في بني سلامان.

[5] الرس: بئر لبني سلامان، منجل: جبل، القاصي: البعيد.

يقول[1] [الطويل]:

فلا صُلحَ حتّى تُفدَع الخيلُ بالقنَا وتضربُ بالبيضِ الخِفافِ الجماجمُ

ولا أمنَ حتّى تَغشِمَ الحربُ جهرةً عبيدةً يومًا والحـروبُ غواشِـــــمُ

أمّا عند تأبط شرا فالصراع دائم مع مجموعة من القبائل التي كان يغزوهم ويتوعدهم دفعة واحدة مسلّطًا عليهم أشد أنواع العذاب، يقول[2] [الوافر]:

أرى قدمــي وقعُهُما حثيثُ كتحلِيلِ الظليمِ رأى رئالَـــه[3]

أرى بهما عذابًا كلَّ يـــومٍ لخثعم أو بجيلةَ أو ثمالَـــه[4]

وشرًّا كان صبَّ عـلى هذيلٍ إذا علَقتْ حبالهم حِبالَـــه

ويومُ الأزدِ منهم شـرُّ يـــومٍ إذا بعدوا فقد صدَّقتَ فَالــه

فالشاعر"تأبط شرا" هنا يُرجع الفضل إلى قدميه اللذين أودع اللّه فيهما شرًّا وحقدًا كبيرين يصبُّهما عليهم كل يوم.

6- الافتخار بسرعة العدو:

إنّ أهم ما يميز الصعاليك -ولا شك- في تلك الحياة الصحراوية الصعبة سرعةُ عدوهم، حتى ليضرب المثل ببعضهم في ذلك ففي المثل "أعدى من الشنفرى"[5]، فسرعة العدو والفرار إذن عند هؤلاء الصعاليك هي إحدى الأسلحة التي يحتاجونها في طبيعة حياتهم وأسلوب عيشهم ذاك، فقد يجدون

[1] القالي: الأمالي، ج02، ص122.

[2] تأبط شرا: الديوان، ص46.

[3] حثيث: خفيف، التحليل: من الحلول والإقامة بالمكان، الظليم: ذكر النعام.

[4] خثعم، بجيلة، ثمالة: أسماء قبائل.

[5] الميداني: مجمع الأمثال، ج02، ص46.

أنفسهم أمام التنقل على الأرجل لمسافات طويلة في طلب الرزق والبحث عن المأوى لأن بعضهم لم يكن يملك مالا كافيًا يمكّنه من شراء فرس يركبها...الخ.

والشنفرى مثلا «كان يُضرب به المثل في سرعة الركض ومدى القفز ... وكان يغزُو على رجليه لأنه ليس له دابة يركبها، مرات يغزو وحده وأخرى مع نفر من الصّعاليك العدّائين مثله»[1]، فبما أن حياة الصعاليك قائمة على النّهب والسلب والفرار والمطاردة، اضطرّهم ذلك إلى الاعتماد على قوة أرجلهم في الركض واستخدام سرعتهم في الفرار والمطاردة التي كانوا يعيشونها.

يقول "أبو خراش[2]" في حادثة حتّمت عليه الهروب درأً من الخطر الذي قد يلحقه من أعداء له يريدون البطش به قائلا[3] في ذلك:

لمّا رأيتُ بني نفاثَةَ أقبلـــوا يُشلونَ[4] كلّ مقلّصٍ خُنـَّابِ[5]

رفعتُ ساقًا لا يُخافُ عِثارها وطرحتُ عنّي بالعـــراءِ ثيابي

أقبلتُ لا يشتدُّ شدّي واحدٌ علجٌ أقبُّ مسيِّرُ الأقـــرابِ[6]

فالشاعر في هذه الأبيات وكأنه لا يريد أن يقارنه أحد ببني جنسه من البشر في سرعة العدو، حيث يشبِّه نفسه بحيوان سريع كالفرس.

أمّا الصورة عند "تأبط شرا" والمشهور هو الآخر بسرعة عدوه وشدة فتكه ودهائه الباهر في اللّصوصية فنراه يصرّح لنا بأنه يسبق الخيل عدوًا على رجليه، حتى أنه ليكسوا طلائعها الغبار المتطاير من أثر وقع

[1] حسين الحاج حسن: أدب العرب في عصر الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط03، 1997م، ص92.

[2] اسمه خويلد بن مرة بني هذيل، أحد فرسان العرب وفتّاكها وهو شاعر مجيد، للتوسع ينظر: كتاب شعر الصعاليك منهجه وخصائصه لِ'عبد الحليم حفني'.

[3] أحمد الزين: ديوان الهذليين، ج02، ص168.169.

[4] يشلون: يدعون، ومنها أشليت الكلبة إذا دعوتها.

[5] خنّاب: طويل. مقلّص: الفرس المقلص هو الطويل القوام، المنضم البطن.

[6] أقب: ضامر البطن، مسيّر الأقراب: أي فيه خيوط.

قدميه على الأرض وسرعته التي يجري بها، يقول[1] [المتقارب]:

يفــوتُ الجيادَ بتقريبِه ويكسُو هوادِيَها القَسْطلا[2]

وفي موضع آخر يقص علينا قصة استطاع فيها بسرعة عدوه أن ينجو من الأعداء بالرغم من الخيل التي أرسلت خلفه، يقول[3] [البسيط]:

ليلة صاحوا وأغرّوا بي سِراعَهـم بالعيكتين لدي معْـدَى ابن برَّاقِ[4]

كأنَّما حثْحثُوا حصَّى قوادمـــه أو أمّ خِشْـفٍ بذي شتٍّ وطبَّاقِ[5]

لا شيءَ أسرعَ منِّي ليس ذا عُذرٍ وذا جناحٍ بجنبِ الرّيــدِ خفَّـاقِ[6]

إنّ الشاعر في هذه الأبيات ليعطينا صورة أقرب ما تكون إلى الخيال، حيث سرعة عدوه لا تضاهيها إلا سرعة الفرس، أو الطائر الجارح الذي يأوي إلى وكره الموجود في قمم الجبال العالية، التي يصعبُ على الإنسان الوصول إليها.

وبالحديث عن سرعة العدو لدى هؤلاء الشعراء الصعاليك نشير إلى ملاحظة تخص الشاعر "السليك" فقد «كانت العرب تدعوه سليك المقانب[7]، كان أدلَّ الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكها وأشدهم عدوا على رجليه»[8]، إلا أن الشعر الذي يدلنا ويصف لنا سرعة هذا الشاعر قد أُتلفَ كما أشارت

[1] تأبّط شرا: الديوان، ص48.

[2] التقريب: ضرب من العدو السريع، القسطل: الغبار المتصاعد.

[3] المصدر نفسه، ص41.

[4] العيكتان: جبلان معروفان.

[5] الحص: ما تناثر ريشه وتكسّر. القوادم: كل ما ولى الرأس من ريش الجناح، الخشف: ولد الظبية، الشت والطباق: نبتتان ذواتا مرعى طيب.

[6] العذر: كل ما أقبل من شعر النّاصية على وجه الفرس، الرّيد: النقطة الأعلى في الجبل التي يصعبُ الوصول إليها.

[7] المقانب: الجماعة من الخيل.

[8] ديوان الصعاليك، تح: يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت، ط01، (د/ت)، ص179.

إلى هذه المسألة بعض المصادر العربي، فحديث الفرار وسرعة العدو إذن قد شكَّل فعلا حيِّزا كبيرا من مواضيع شعر الصعاليك وذلك خاصة بالنسبة للصعاليك الذين تميزوا بسرعة العدو.

رابعا– علاقة بعض القيم بظاهرة الصعلكة:

ظاهرة الصعلكة نشأت وشاعت في العصر الجاهلي قديمًا، تلك البيئة التي تعتز بنظامها وقيمها الاجتماعية أيَّما اعتزاز، فصحيح أنها حياةٌ بدوية بدائية لكنها تزخر بمجموعة من القيم الأخلاقية والإنسانية، والاجتماعية، التي تنظم حياتهم وتسنُّ قوانينها وتربط أفراد القبيلة بعضهم ببعض، خاصة أثناء مواجهة المحن والشدائد التي تستدعي القوة الجماعية والتلاحم بين أفراد القبيلة.

والصعلكة وليدة هذا النظام وهذه البيئة حيث لا يمكن فصلها عن ذاك النّظام القبلي بتشريعاته الاجتماعية، والاقتصادية، والأخلاقية...الخ، ولأن هذه الظاهرة انبثقت من خلايا هذا النظام فإن الإجابة عن السؤال القائل: ما علاقة هذه القيم بظهور حركة الصعلكة؟ تكمن في سياسة هذا النّظام بالذات، وتتلخص في فلسفته العامة التي كانت تجمع بين جميع أفراد القبيلة وتكون وحدة اجتماعية تحت ما يسمى بالقبيلة، «فالصعلكة لم تكن حدثا من الأحداث الطارئة أو العارضة في حياة المجتمع العربي قبل الإسلام، وإنّما ظاهرة نبعت من ظروفه ولازمته كجزء منه، ولذلك لا نتوقع أن يكون لها تاريخ مستقل وإنّما يرتبط تاريخها بتاريخ المجتمع نفسه»[1].

ومن خلال كل المرجعيات التي أثبتت صلة وعلاقة هذه الظاهرة بمختلف القيم النابعة من صميم الحياة الجاهلية، ومنهجها في بسط فكرها وبلورته بين أفراد القبيلة الواحدة، أدّى هذا إلى خلق نقطة اللاانتماء والخروج والتمرد على هذا النظام السُّلطوي بجميع أسُسه وأنظمته.

وقد كانت مختلف القيم الاجتماعية – مثلا– تقوم على الرابطة القبلية التي توجب تقديم مصلحة الجميع على المصلحة الخاصة تحت شعار«في الجريرةِ تشتركُ العشيرة»[2]، وكان الصعلوك حينها جزءًا

[1] عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص40.
[2] الميداني: مجمع الأمثال، ج02، ص73.

من هذه الحياة، وخضوعه تحت نفس القوانين التي تحكم نظام الجميع، فقد شكّل هذا نقطة افتراق وانفصال في الوقت الذي يقدم فيه أحد هؤلاء الصعاليك على عمل يشن سمعة القبيلة، أو التهور في فعل أمر يخدش وحدة القبيلة وتماسكها في بينها.

وعليه فالرابطة القبلية تعدُّ أمرا مقدسًا عند جميع أفراد القبيلة، والكل يسعى في خدمة مصلحة الجماعة وفائدتها مما يحتِّم هذا على القبيلة إخراج ونبذ ما تراه شائبًا لا يمثل حلقة توطّد عناصر القبيلة وتضبط مصالحها، حيث «يعد الانتماء القبلي الركيزة الأساسية في الحياة القبلية، وكانت العصبية في المصير والغاية، واستطاعت العصبية أن تخلق مركزية لها في الوجدان الجاهلي»[1]، لهذا فرابطة العصبية القبيلة عندهم هي الهوية والاستراتيجية في نفس الوقت، تحت مبدأ يلخص دستور القبيلة " أنصر أخاكَ ظالما أو مظلوما"[2].

وإن كان تحت مبدأ القيم الاجتماعية والوحدة القبلية قد نُفِّد الحكم على الصعلوك وقبوله الجزاء بالطرد فإن من المبادئ الاجتماعية ما سرَّع هذا الحكم، حيث كانت القبيلة تستند إلى قانون الفوارق الطبقية التي تجعل مسافة وتمايزا بين الطبقتين، كما أن حياة الذل والهوان والحيز الهامشي الذي لا يعرفه سوى العبيد، والوضعاء، وأصحاب البشرة السوداء، كان له الأثر البالغ على حياة ونفسية هؤلاء الصعاليك، ممن يرفضون هذه الأبعاد الاجتماعية القاسية، يقول الشنفرى[3] [الطويل]:

فلولا اجتنابُ الذامِ لم يُلفَ مشربٌ يُعاشُ بـه إلاّ لـذيَّ ومأكَـــــلُ

ولكـنّ نفسًا حـــــرّةً لا تُقيمُ بي على الــذّام إلاّ ريثما أتحـــوَّلُ

[1] جدل العصبية القبلية في نماذج من الشعر الجاهلي، مجلة مجمع اللغة العربي، دمشق، ج03، مجلد83، ص01.
[2] الميداني: مجمع الأمثال، ص334.
[3] الشنفرى: الديوان، ص63.

فالشاعر لا يقبل هذه الحياة وهذا الوضع الذي يُشعره بالهوان والمذلة والدونية، فلولا تجنّبه وابتعاده عمّا يُذم به المرء لحصل على ما يريد من حاجاته التي يطلبها –حسب قوله–، ولكن نفسه حرة تأبى هذا الذل وكل أنواع الضيم كذلك.

ولأنّ الصعاليك كلّهم يتميزون بنفوس حرة تأبى الضّيم والذل والخضوع فإن ما يجمعهم في رؤية واحدة هو تفسيرهم وفهمهم لفلسفة المجتمع الاجتماعية، التي تؤمن بوحدتها إلا مع طبقة السادة والصرحاء يقول "السّليك" في موضع يصف لنا معاناته وسط مجتمعه بقوله[1] [الوافر]:

أشابَ الرَّأس أنّي كلّ يـــــومٍ أرى لي خالة وسطَ الرِّجـــــالِ

يشقُّ علـــيَّ أن يلقينَ ضيمًا ويعجُزُ عن تخليصهنّ مَـــــالي

نرى هنا الشاعر يعاني مرارة الهوان والذل الذي يحس به، حيث يرى نسوة مستعبدات مسترقّات يقمنَ بمختلف الأعمال الدَّنية التي تهين إلى كرامتهن وشخصيتهن، في حين الشاعر لا يجد كيف يوفر يهن خلاصهن من قبضة ذلك المجتمع الطبقي.

وعليه فإنه لا يمكن فهم مختلف القيم والمبادئ السائدة داخل المجتمع القبيل في العصر الجاهلي إلا كظواهر اجتماعية أحكمت تماسكه تارة، وأحدثت شقوقا فيه تارة أخرى، لأن من الثغرات التي تلحق ذلك المجتمع التمييز العنصري العرقي؛ حيث إيمان القبيلة بجنسها كان يدفعها إلى خلع ونبذ أبناء الإيماء الذين كان لونهم –حسب نظرهم– يحمل التعاسة والشؤم.

وتعتبر أيضا قيم النظام القبلي الاقتصادية في المجتمع الجاهلي طفرة ظاهرة تسبّبَت في توطيد علاقة نشوء هذه الظاهرة بالقيم القبلية السائدة بين طبقات المجتمع، فمبدأ التعاون والتآزر حول مصلحة القبيلة وما يعود عليها بالفائدة والأمن لم يكن مطبقا في جانبه الاقتصادي، لأن النظام غير المتوازن جعل الطائفة الغنية المترفة صاحبة الحل والعقد دون سواها، فهي تتمتع بثروتها أمام أعين الطائفة

[1] المبرد: الكامل، تح: محمد أحمد الدالي، مج01، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط03، 1997م، ص460.

المعدمة الفقيرة التي تتغذى من صبرها وحقدها على هذا الواقع المرير، مما جعلها تفكّر في شرعية الأخذ من مال الأغنياء لسد حاجياتها، يقول "يوسف خليف": «فكان من الطبيعي إذا أتيح لهذه الطائفة البائسة الفرصة لاغتصاب أي شيء من الطائفة الأخرى أن تنتهزها مؤمنة بأن هذا الاغتصاب حق مادامت لا تبغي من ورائه سوى أن تعيش»[1]؛ فهذا الفارق الاقتصادي الموجود بين الطبقتين قد شكل بعدا نفسيا عند طائفة الصعاليك، مفاده هو رفض هذه القيم الاقتصادية السائدة وعدم مشاركة هذا الوضع البائس، الذي يعني القبول به أن تعيش في حياة ذليلة، تتمثل في خدمة الإبل وإعانة نساء الحي كما عبر عروة عن ذلك في قوله[2] [الطويل]:

يُعينُ نساء الحيِّ ما يستعنَّهُ ويُمسِي طليحًا كالبَعيرِ المحسَّـــرِ

وعليه فإن فساد هذه القيم الاقتصادية وزوالها- والتي تضمن للفرد فهم ما حوله من المفاهيم التي تنظم حياته في مجتمعه- يولِّد معايير خاطئة تسود المجتمع وتضمن سيرورته العشوائية، التي تتجسّدُ فيما بعد في ظاهرة التمرد والخروج على هذه القيم الفاسدة.

وبهذا فإن مختلف هذه القيم الاقتصادية الغير عادلة تضمن للفرد فهم ما حوله من القوانين التعسُّفية الظالمة التي تسلط على الضعفاء والفقراء، وتجعلهم يتشبعون برؤى خاطئة حاقدة على المجتمع ومبادئه وقيمه أيضا، مما يجعلها تضغط نحو تجسيد ظاهرة الخروج والتمرّد، والتي قد تتطور فتصبح كظاهرة التصعلك هذه التي نتحدث عنها، «لأن تفجير الحاضر لم يكن ممكنًا عن طريق وحدة قبلية... فقد اتخذ البديل الواحد الممكن بالخروج الفردي والتمرد الفردي الذي يلتحم بخروج آخر»[3]، حيث هذا الخروج يكون عند الفرد العادي الواعي بواقعه وحياته، أمّا عند الصعلوك الذي كان واعيا وعي البائس المضطهد وانفرادهم بنفسيات تحررية ترفض كل الأنظمة التعسفية.

[1] يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص145.

[2] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص68.

[3] كمال أبو ذيب: الرؤى المقنعة نحو منهج بنوي في دراسة الشعر الجاهلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط01، (د/ت)، ص: 580.

«والنص الصّعلوكي هو تحديد انفجار الخروج عن هذا الإجماع والممارسة الجماعية وتأسيس الانبثاق الفردي في هذا العالم واختراقه من أجل نظام القيم وبنية العلاقات الاجتماعية والاقتصادية السائدة وتدمير سلطة أصحاب المصلحة في ترسيم النّظام، من أجل تفكيك كلّي لكل ما هو قائم سلطوي»[1]، فهذه القطيعة التي رسمها الصعاليك نتيجة اختلال القيم الاجتماعية والاقتصادية تتلخّص في فلسفة "عروة بن الورد" في قوله[2]:

دعيني للغِنى أسعـــى فإنِّي رأيتُ النَّاس شرُّهمُ الفقيـــرُ

وأبعدُهم وأهونُهم عليهـــم وإن أمسَى له حسَبٌ وخيـــرُ

ويقصيه النَّدي وتزدَريـــــهِ حـليلتُه وينهره الصَّغيـــــرُ

ويُلقى ذو الغِنى وله جلالٌ يكادُ فؤادُ صاحِبه يطيـــــرُ

فهذا ولا شك أكبر مؤشر يرمز لنفسية الصّعلوك التي تعاني من غربة نفسية جرَّاء واقعها وقسوته حيث بلغت صورته عند عروة اضطهاد الفقير ورفضه حتى من طرف زوجته وأهله، فهو لا قيمة له داخل هذا المجتمع المادي، والذي غُيِّبت فيه القيم المشرِّعة والمنظِّمة لحياة الأفراد، فلم يبق أمام طائفة هؤلاء الصعاليك –بالنظر إلى نفسيتهم– سوى الامتثال لقول "تأبط شرا"[3][البسيط]:

إنّي زعيمٌ لئن لم تتركوا عذلـــي أن يَسأل الحيُّ عني أهل آفاقِ

أن يسألَ القوم عنَّي أهلَ معرفَةٍ فلا يخبِّرهـــــم عن ثابثٍ لاقِ

فهذه الرؤية من الشاعر إنما تلخص موقفه وإحساسه بالواقع، ما جعله ذلك مندفعًا نحو غربة الوجود بعيدا عن هذا النّظام الذي تغيبُ فيه جميع القيم المساعدة على البقاء والاستمرار.

[1] المرجع السابق، ص580.

[2] ديوانا عروة والسموأل: تح: كرم البستاني، ص45.

[3] تأبّط شرا: الديوان، ص: 43.

الفصل الرابع

القيم الأخلاقية في شعر الصعاليك

عناصر الفصل الرابع:

تمهيد:

أولا– الجود والكرم

ثانيا– الشجاعة والإقدام

ثالثا– العفة وعزة النفس

تمهيد:

لا يخفى على المهتمين بالأدب الجاهلي عامة أن هذا العصر هو أخصب العصور للدراسة والبحث فلو لم يكن كذلك لما وصل هذا الكم من الأبحاث حوله إلى هذا الحد، حيث ومن ينابيع هذا العصر وأدبه الرحب نجد موضوع الشعراء الصعاليك، حيث بالرغم من كثرة الواردين على هذا الموضوع يبقى متدفقا لامعا في كل مرة يتجرأ أحدهم على مبارزته ومناظرته ومحاولة استجلاء بريقه الداخلي، الذي لا ينضب مع الأيام بل يزداد تدفقا ولمعانا عن ذي قبل.

ومادام العصر الجاهلي بأدبه (خاصة الشعر) قد وُجد من الباحثين من تجرّأ عليه يوما، وشكك في بعض منه، فإنه لا يضير إن وجد أيضا من ينفي عن هؤلاء الشعراء الصعاليك نزعتهم الأخلاقية و الإنسانية التي تضم مختلف صفات النبل الإنساني الراقي، فقد ذاع صيتهم في العصر الجاهلي وغاب –للأسف– عن مسامع بعض المحفين المحدثين، ووصفوهم بصفات البطش والطيش والنزقٌ وقع للطريق فقط، متناسين بذلك ما يحمل هؤلاء الشعراء داخلهم من معاني الشجاعة، والكرم، وعزة النفس، وغيرها من الصفات الحميدة التي جعلتهم مترفعين عن بعض الخصال الدنيئة، التي كانوا قد اتهموا بها نتيجة بعض الأحكام المتسرعة في حقهم.

لهذا يمكن اعتبار هذا الفصل ردًّا على ذلك الحكم المتسرع والمغالط للصورة الحقيقة لهؤلاء الصعاليك كما أنه جاء ليصحّح تلك النظرة الخاطئة التي تكررت كثير في بعض الدراسات الأدبية والتاريخية القاسية –إن صح التعبير–، لهذا فقد تطرقنا في هذا الفصل إلى شعر هؤلاء الشعراء، عن طريق استخراج واستجلاء مختلف القيم الأخلاقية والصفات النبيلة التي ميّزت شخصية هؤلاء الصعاليك وذلك من خلال مجموعتهم الشعرية، التي سمحت لنا من الاطلاع على مختلف هذه القيم الأخلاقية كالجود والكرم، والشجاعة، وعزة النفس، وغيرها من الصفات التي تميز بها هؤلاء الصعاليك.

أولا–الجود والكرم:

لقد كان الكرمُ في العصر الجاهلي صفةً بارزة وعنوانًا عريضا تزيِّنُ القبيلةُ به مدخلها، وتتباهي به أمام الأقوام، فالسخاء، والعطاء، والبذلُ، كلها صفاتٌ تُعلي من شأن صاحبها وتمجِّده بين قومه، وتعلي من مكانته وتقرِّبه من القلوب، ذلك أن الكرم قد عُدّ في ذلك العصر من شروط سيادة القبيلة ورئاستها، فالسيد في نظرهم يجب أن يكون كريما معطاءً رحيمًا بالضعفاء والمحتاجين من الناس.

كما أن الكرم قد كان أيضا من السَّجايا التي تسربلَ بها العربي واعتز بها أيما اعتزاز، لأنه من مقومات المروءة ومصدرا من مصادر الاعتزاز والافتخار فيما بينهم، فبعض الصفات الأخلاقية و الإنسانية قد اكتسبها العرب من خلال نظام القبيلة وعرفها الاجتماعي، الذي يدعو لنصرة الأخ ومساعدته وقت الشدائد، فلا دين ولا ملة تسطِّر مبادئهم وقيمهم، إذ أن القبيلة «لم تكن إلا وحدة تذوب شخصية الفرد فيها وهي تقوم على أساس وعرف وتقليد، لا يخرج الفرد على نظامها »[1].

ويجسد قولنا هذا قول الشاعر "طرفة بن العبد" في بيت شعري يعكس سخاء العرب وكرمهم في العصر الجاهلي، حيث الدعوة عامة إلى الطعام دون بخل أو شح يذكر، حيث يقول[2] [الرمل]:

نحن في المشتاةِ ندعو الجَفَلى لا تَــرى الآدبَ منّا ينتقِـــرْ

ومادام الشعراء الصعاليك قد عاشوا في تلك البيئة وتشرّبوا قيمها الاجتماعية والإنسانية فإنهم ولا شك قد تميّزوا بالكرم والجود أيضا، فبالرغم من الحياة المضطربة والمتقلقلةِ التي عاشوها في صحراء شبه الجزيرة العربية إلا أنهم امتازوا بأنهم أحسن من صوَّر لنا ظاهرة الجود والكرم مع الآخرين وسخاءهم مع الفقراء والمساكين، فهناك من كان ينظر إلى الكرم والعطاء كنوع من العدالة والتوازن الاجتماعي اللازمين بين طبقات المجتمع (حسب رأي بعض الدارسين)، حيث نجد البعض منهم يقسِّم طعامه وماله مع الفقراء كعروة بن الورد مثلا، فقد كان هذا الشاعر (عروة) يضرب به المثل في السخاء

[1] هاشم صالح مناع: الأدب الجاهلي، ص43.
[2] طرفة بن العبد: الديوان، ص51.

والعطاء، بل كان نموذجا حيًّا لكرم العربي وسخائه اللامحدود، بل والداعي أيضا -كما أشرنا- إلى تلك العدالة الاجتماعية المفقودة.

وشعر الصعاليك حافل بنماذج حية لصورة الكرم عندهم والتي تعكس شخصيات متشبعة بمبادئ أخلاقية وإنسانية عالية، قد تلغي ولو جزئيا الحكم على الحقبة الجاهلية بالتخلف الفكري وحتى الحضاري، «فكما معلوم أن لفظ الجاهلية الذي كان السبب في خطأ تلك الأحكام هو لفظ ديني سياسي يعني الجهل بالدين وليس الجهل ضد العلم، إنّه لفظ أطلقه الإسلام على الحقبة السالفة عنه ... بل العكس هو الصحيح فلقد أنجبت هذه البيئة رجالا كانوا قمّة في الإنسانية، ورهافة الحس وحسن الخلق...» [1]، والشعراء الصعاليك نجدهم خير من يجسد هذه الحقيقة فمن خلال بعض أشعارهم تتضح الصورة أكثر وتعكس لنا نبلهم وكرمهم، فبالرغم من شخصيتهم الاندفاعية وتمردهم عن قبائلهم وشراستهم أيضا التي فرضتها عليهم طبيعة حياتهم الموحشة، إلا أن فيهم من يتميز بحسٍّ مرهف، ونبل اجتماعي إنساني سامي، يجسد فيهم قمة المروءة العربية وفطرتها الحسنة.

يقول "عروة بن الورد"[2][الطويل]:

إنِّي امــرؤ عافي إنائي شركـــــةٌ وأنت امرؤٌ عافي إنائكَ واحـــــــدُ[3]

أتهــزأ منّي أن سمنتَ وأن تـــرى بوجهي شحوبَ الحقِّ والحقُّ جاهــدُ[4]

أقسِّمُ جســمي في جسومٍ كثيـــرةٍ وأحسـو قــراَح المــاءِ، والمــاءُ باردُ[5]

لعلّ هذه الأبيات هي التي خلدت الشاعر "عروة بن الورد" وجعلته مثالا يضرب في الإنسانية والبذل فقد جاء في الأغاني أن الخليفة "عبد الملك بن مروان" قال عندما سمع هذه الأبيات: «ما يسرُّني أن

[1] صالح مفقودة: القيم الاجتماعية من خلال الشعر الجاهلي، ص184.

[2] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص61.

[3] عافي إنائي شركة: أي يأتيني من يشركني فيه.

[4] الحق جاهد: أي يجهد الناس ويتعبهم.

[5] قراح الماء: لا يخالطه لبن ولا غيره.

أحدًا من العرب ممن ولدني لم يلدني إلاّ عروة »[1]، فهذه الأبيات لا يوجد ما أوضح منها في الدلالة على طبيعة شخصية عروة الباحثة عن العدل والمساواة، داخل المجتمع وإنصاف الفقراء ومساعدتهم بالتضامن والتكافل معهم، وهذا كله هو انعكاس لشخصيته النبيلة ونسبه الأصيل، حيث لا يترك فقيرا ولا صعلوكًا إلا وأعانه وأشفق عليه، وتصدق عليه بما يملك من مال وطعام وغير ذلك، مما قد يحتاجه المحتاج فلا يجده إلا عند عروة بن الورد.

«وإنسانية عروة واشتراكيته وجوده يتمثل أفضل تمثيل في طريقة حياته ومعاملته للصعاليك الذين كثرا ما كانوا يتدللون عليه، فيتحملهم لئلا يفسد صنيعه معهم »[2]، فالشاعر قد كان كالأب مع أولاده عطوفًا عليهم حنونا تجاههم، يجعلهم تحت مسؤوليته دائما ما جعل هؤلاء الضعفاء يتدللون عليه ويقصدونه دون غيره وقت الحاجة والضيق، ولأنه كان رحيما بالضعفاء من الصعاليك، كريما معهم فقد أطلِقَ عليه لقبا يعكسُ اهتمامه بهم وقيامه بأمرهم ألا وهو " عروة الصّعاليك".

والشيء الجميل في شخصية هذا الشاعر أن كرمه وجوده على الآخرين لم يكن بغية حاجة يبتغيها أو مطمع يسيل لعابه، وإنما ذاك هو أدبه مع الغير وأخلاقه العالية التي فُطر عليها، حيث شخصية مثل شخصية عروة قد وضعت لنا عنوانا عريضا عن شخصية الإنسان الجاهلي، الذي فُطرَ ببعض الآداب والشمائل الإنسانية الراقية، ففي قوله[3]:

أقسِّم جسمي في جسومٍ كثيرةٍ وأحسو قراحَ المـاءِ والمـاء باردُ

هذا البيت يجعله يرتقي لمنزلة المثالية في حب الخير للآخرين، لأننا نراه يقدِّم نفسه وكأنه قربانًا وطعامًا لأصحابه بغية سد حاجياتهم، وما شربه للماء البارد في فصل الشتاء وتحمله للجوع ليطعم بذلك

[1] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج02، ص184.
[2] ديوانا عروة والسموأل: تح: كرم البستاني، ص08.
[3] المصدر نفسه، ص29.

الآخرين إلا صورة من صور التضحية والبذل في سبيل مساعدة الفقراء، وكذلك مساندة المحتاجين بطريقة شبه ما تكون أقرب إلى المثالية.

أمّا "الشنفرى"[1] فيقول في لاميته الشهيرة [الطويل]:

وإن مُدَّت الأيدي إلى الزادِ لم أكنْ بأعجَلِهِم، إذْ أجشَعُ القومِ أعجَلُ

وما ذاكَ إلاّ بسطةً عن تفضُّلٍ علَيهم، وكان الأفضَل المتفضِّلُ[2]

ففي هذين البيتين ينفي الشاعر عن نفسه صفة الجشع والطمع، كما يفتخر في ذات الوقت ببسطته وتفضُّلِه على الآخرين إحسانا منه وتكرّمًا، ففي شرح اللاميتين جاء المعنى؛ «كل ما ذكرت من أخلاقي وأحوالي إنّما يدفعني إليه رغبتي في الفضل وحرصي على الإحسان »[3]، وهذه من صفات الفرسان الشجعان الذين يؤثرون حب الخير للآخرين على دواتهم وأنفسهم، وذلك ابتغاء الفضل والرفعة بين الناس وبين قومهم، فكما هو معلوم أن العربي بطبعه يميل إلى حب الخير والتحلي بمكارم الأخلاق، كما أنّه يهتم أشد الاهتمام بسمعته وصيته وعلو شأنه في أوساط القوم ومجالسهم.

أما "تأبط شرا" فهو الآخر نراه يدعو إلى إنفاق المال لسد حاجياته وتغطية العوز والفقر الذي قد يلحقه إذا بخل بماله، بقول[4] [الطويل]:

سدِّد خلَالَكَ من مالٍ تجمِّعُه حتّى تلاقي الذي كلُّ امرئٍ لاقِ[5]

لتقرعنَّ عليَّ السِّنّ من ندمٍ إذا تذكَّرتِ يوماً بعض أخلاقِي[6]

[1] الشنفرى: الديوان، ص60.59.

[2] المتفضّل: الذي يدعي الفضل على أقرانه.

[3] الشنفرى والطغرائي: اللاميتان، تح: عبد المعين الملوحي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، (د/ط)، (د/ت)، ص30.

[4] تأبط شرا: الديوان، ص43.

[5] الخلال: جمع خلة، وهي الفقر والعوز.

[6] لتقرعنّ على السّنّ: أي لتصكنها ندما وحسرة.

فالشاعر هنا لا يرى في المال بقاء ودوام، لهذا هو حريصٌ على إنفاقه واستغلاله في سد حاجاته وحاجات الآخرين، حيث يخاطب الخليلة التي تلومه على إنفاق ماله والإسراف فيه فهو كريم وسخي حتى مع نفسه، لهذا يؤكد لها بأنها ستقرع عليه السِّن عندما تفتقده وقت الحاجة وتتذكر بعض أخلاقه وفضائله الحسنة ككرمه وسخائه، كما أن الكرم يعتبر مما يُتباهى به عند العرب إذ يعتبر من أهم الفضائل النفسية، قال "الخليل بن أحمد الفراهيدي": «الكرم شرف الرَّجل »[1]، لهذا فالكرم في العصر الجاهلي يعتبر من الواجبات الإنسانية والأخلاقية المتعارف عليها، بالإضافة إلى أنه من الخلال المرغوب فيها والمسلم بوجوبها في تلك الظروف التي كانت تحيط بطبيعة الحياة الجاهلية الصعبة والقاسية على أغلب الناس.

لكن في بعض الأحيان عندما يسرف الزوج في إنفاق ماله، أو بعضا من طعامه يجد نوعا من اللوم والمعارضة من طرف خليلته، كقول الشاعر[2]"مرة بن محكان السعدي التميمي"[3]: [البسيط]:

لا تَعذُليني على إتيانِ مَكـــرُمَةٍ ناهبْتُها إذ رأيتُ الحـمدَ مُنْتَهَـــبا[4]

في عقرِ نابٍ ولا مـــالٍ أجودُ بِه والحـمدُ خيرٌ لمن ينتَابُه عُقـــبُا[5]

فالشاعر هنا يخاطب زوجته آمرا إياها بأن تتوقف عن لومه بعد إقباله على نحر إبله للضيوف دون تردد، فهو ينتهز الفرصة كي يتصدّق ويجود على الآخرين بما يملك، فهنا قد نحر الإبل للضيوف دون شح أو بخل، وتلك هي صفة العربي الجواد في حرصه على إكرام الضيف وتقديم القرى له بأفضل حال ممكنة.

[1] العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السّمرائي، ج05، ص368.

[2] الأعلم الشمنتري: شرح حماسة أبي تمام، تح: على المفضل حمّودان، ج01، دار الفكر، دمشق، ط01، 1992م، ص963 .

[3] هو مرة بن محكان، أحد بني سعد بن زيد مناة بن تميم، شاعر مقل، إسلامي، من شعراء الدولة الأموية، عاصر جرير والفرزدق فأخملا ذكره، كان شريفا جوادا، لذلك يدعى أبا الأضياف. للتوسع: ينظر كتاب الأغاني.

[4] المناهبة: مسابقة الشيء ومعاجلته

[5] النّاب: المسنّة من الإبل.

وليس غريبا أن نجد صورة الجود والكرم المتعلقين بالضيافة وحسن الاستقبال أوضح ما تكون عند بعض الشعراء الصعاليك، ونخص هنا بالذكر الشاعر "عروة بن الورد" الذي كان يقري الضيف ويحسن ضيافته من جميع الجوانب، إذ يقول[1] في ذلك [الطويل]:

فراشي فراشُ الضيفِ والبيتُ بيتُه ولم يُلهني عنه غَـــــزالٌ مقنَّعُ[2]

أحـــدِّثُه إن الحديث من القـرى وتعلــمُ نفسي أنه سوفَ يَهجــعُ

ففي هذين البيتين تتجسد لنا شخصية عروة الحقيقية في إكرام الضيف والاعتناء به، وتوفير له كل سُبل الراحة اللازمة، لهذا نراه يجعل من فراشه فراش الضيف، لا تهمّه نفسه بقدر ما تهمه ضيافة من يطرق بابه وكيف يساعده ويقوم بأمره على أحسن وجه.

ومن يتأمل البيتين ويتمعن في معناهما العميق يلمسُ نوعًا آخر من من ضروب الكرم -إن صح التعبير- ينضاف إلى كرم عروة المادي ألا وهو الكرم المعنوي؛ حيث نرى الشاعر يهتم بضيفه على أكمل صورة ومن جميع الجوانب، حتى بالحديث الحلو مع ضيفه كي يريحه ويجعله يهجع في غفوة من السكينة والراحة، كما أنه لا ينشغل عن ضيفه بشاغلة حتى لو كانت زوجته الجميلة والشاعر هنا نجده يُكنِّي عنها بالغزال المقنع.

وفي موضع آخر يقول[3] [الطويل]:

سَلـــي الطَّارقَ المعترَّ يا أمّ مالكِ إذا ما أتانيْ بين قدْرِي ومجْـزَرِي[4]

أيُسفِرُ وجهي، إنّه أوَّلُ القـــرى وأبذُل معروفي له دون مُنكَـــرِ

[1] ابن السكيت: شرح ديوان عروة بن الورد، ص155.

[2] مقنّع: الغزال المقنع : أراد الزوجة.

[3] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص78.

[4] المعتر: الذي يأتي للمعروف من دون أن يسأل، المجزر: مكان الجزر أو المسلخ الذي تسلخ فيه الماشية.

فالكلامُ هنا موجه من الشاعر لزوجته التي يبدو أنها عهدت منه الجود والسخاء في كل الأوقات، ومع جميع السائلين والواقفين عند الباب في كل وقت ممن يطلبون الإعانة والمساعدة، فعروة يستقبل من يطرق بابه دون تقصير منه أو تحقير، لأن هذا الأخير قد يتسبب في إحراج هؤلاء السائلين الذين كانت ظاهرتهم شائعة في العصر الجاهلي، فيجرح نفسياتهم التي تحتاج تضامنًا معنويا أكثر مما هي في حاجة إلى الطعام والزاد، كما قد بحث الفقراء والمحتاجين عن مأوى وطعام لدى الأجواد في العصر الجاهلي من أمثال عروة بن الورد فكانت مساعدتهم تعتبر من الواجبات الأخلاقية والمبادئ الإنسانية أيضا، حيث أن الباحث الحذق يستطيع أن يميِّز بين نوعين من الفقراء في العصر الجاهلي؛ الأولى تشكّل طائفة الفقراء العاديين الذين يكونون في كل زمان ومكان، أما الطائفة الثانية فتتكون من الناس المحتاجين الذين يسألون الناس المساعدة بطريقة مباشرة، وصورة التضامن مع الفقراء والمحتاجين ومساعدتهم أشد ما نجدها عند هؤلاء الشعراء الصعاليك، حيث كانوا يحبون الخير لغيرهم من الفقراء والضعفاء ويكرمونهم على حساب ذواتهم التي هي أيضا تحتاج من يحسن إليها ويساندها.

يقول "أبو خراش الهذلي"[1] وهو أحد الشعراء الصعاليك من قبيلة "هذيل" [الطويل]:

أردُّ شجاع[2] البطنِ قد تعلمينَه وأوثرُ غيري من عيالِكِ بالطُّعـمِ

فالشاعر يؤثر غيره في الطعام والتزود ليبقى هو في حاله الأولى منتشيا بطعم الجوع، وعليه فهؤلاء الصعاليك يقدمون لنا أبهى صورة عن الجود والكرم مع الغير، فهم يفضلون البقاء في جوعهم بغية الاطمئنان على حال الآخرين ومساعدتهم، وهذا إنما لوجود رابط متين من العاطفة والإنسانية بينهم. ونبقى دائما مع شخصية الشاعر "عروة بن الورد" الذي يحدثنا مرة أخرى عن كرمه الزائد وحسن ضيافته بقوله[3] [الطويل]:

[1] أحمد الزين: ديوان الهذليين، ج02،ص128.

[2] شجاع البطن: أراد من شدة الجوع.

[3] عروة بن الورد: الديوان، تح، أسماء أبو بكر محمد، ص66.

قُعَيدُك عمْر الله هــل تعلميــنَ كريمًا، إذا اســوَدَّ الأنامل أزهــرَا[1]

صبُورًا على رزءِ الموالي وحافظًا لِعرضي حتّى يُؤكَل النّبتُ أخضــرَا[2]

أقبُّ ومخماصُ الشِّتاء مـــــرزَّأً إذا أغبرَّ أولادُ الأذلَّةِ أسفَـــــــرَا[3]

ففي هذه الأبيات تصوير بارع لمعنى السخاء والعطاء مع الفقراء الذين يضيق بهم حالهم، حيث يأتونه في فصل الشتاء وقد اسودّت أنامل الناس من شدة وقد النار، والشاعر عروة مازال حينها يقري الضيف ويساعد المحتاجين الضعفاء، فنراه يؤثر الأضياف في حين يبقى هو ضامر البطن لا يهتم لحاله بقدر ما يهتم لغيره من الضعفاء ولا يُرجع أحدا من الأذلة خائبا.

ومما هو معروف عن العرب في العصر الجاهلي أنهم «كرماء في كل وقت لكنهم يشيدون بالكرم إذا أجدبت الأرض وكفت السماء، لأنه كرم تحرص النفوس فيه على البقاء والاحتفاظ بالمال، فهو كرم جدير بالثناء»[4]، ففي وقت الضيق يبقى عروة كأنه علم في رأسه نار لكل من ضاق به حاله واحتاج طعاما أو شرابا أو حاجة من الحوائج التي يحتاجها المحتاج، وهذا ما جعل الشاعر مثالا في الكرم والجود ومساعدة الآخرين بإنسانيته اللامحدودة، حيث لا تذكر كتب الأدب التي تحدثت عن العصر الجاهلي شخصية في البدل والعطاء كشخصية عروة بن الورد.

ونجده في مقام آخر يصور لنا حاله مع الضعفاء بقوله[5] [الطويل]:

إذا قلتُ جاء الغنى حالَ دونه أبو صِبيةٍ يشكُو المفاقرَ أعجَـفُ[6]

---

[1]قعيدك: قسم، كأنه قال أذكرك، عمر الله: يريد بقاء الله، أسودّ الأنامل: من اسودت أنامله من شدة وقد النار.

[2]رزأ الموالي: أن ما نالهم مني.

[3]الأقب ومخماص: الأقب: ضامر البطن، مخماص: جائع ضامر البطن.

[4]أحمد محمد الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص243.

[5]ديوانا عروة والسموأل: تح: كرم البستاني، ص52.

[6]المفاقر: على وزن مفاعل، وهي جمع فقر.

له خلّةٌ لا يدخلُ الحـقُّ دونها كريمٌ أصابته خطوبٌ تجـــــرِّفُ[1]

فمن خلال البيتين يتضح لنا أن الناس يقصدون عروة دون سواه في حالة الجذب والقحط، وفي حالة فقدان هؤلاء الضعفاء ممتلكاتهم وهلاك مالهم أيضا، وذلك لسماحته وخلقه الإنساني الرفيع الذي يحنّ ويتضامن مع كل فقير ومحتاج، وهذا ما يجعل الغِنى لا يلحق شاعرنا كغيره من الناس لأن ماله دائما في خدمة الضعفاء يقسِّمه عليهم، ويغيث من يستغيث به في كل مرّة، فكما جاء في "الأغاني" أن أناسًا من عبس كلما أصابتهم السنة يأتون "عروة" فيجلسون أمام بيته ويبدؤون في الصراخ قائلين يا أبا الصعاليك أغثنا، ثم بعد ذلك يخرج بهم عروة غازيا بحثًا عن غنيمة يسدّون بها حاجتهم[2]، فهم بهذا يتكلون عن طعام وزاد غيرهم وكأن مبدأهم في هذه الحياة هو مقولة: «خير المال عين ساهرة لعين نائمة »[3].

ولا يجب علينا أن ننسى أنه في شعر الصعاليك الجاهليين تحضر ظاهرة من الظواهر المثيرة والتي طغت على شعر هؤلاء الشعراء، ألا وهي "**ظاهرة العذل**"؛ «فكثيرا ما نجد الشاعر يتوقف عند اعتراض من يعذله ويلومه على أمر قام به، أو تصرّف اعتاد أن يكرّره غير ملتفت إلى ما يؤول إليه أمره فيما يستقبل من حياته وأكثر ما يكون العذل واللّوم في أمور مما يعتز به العربي عامة من مكارم الأخلاق والخصال الحميدة والقيم النبيلة في عرف مجتمعه، والشّاعر لا يُعذل حقيقة على فعلها بل على الإفراط والمبالغة فيها »[4]، وأكثر ما نجد هذا العذل واللوم عند عروة بن الورد، ولكن ليس هو فقط من بين الشعراء الصعاليك من تحظر معه هذه الظاهرة حيث نجد أن أغلب الشعراء الصعاليك يتعرضون لمواقف العذل التي تستنكر تصرفاتهم خاصة في إسرافهم في الجود والكرم على الآخرين، فهذا الإحساس الزائد بإخوانهم من الضعفاء إنما يرجع لطبيعة الحياة التي عاشوها وحتى طريقة المعاملة التي

[1] خلة: حاجة، تجرِّف: أي تهز ماله وتجرفه.

[2] أبو الفرج الأصفهاني: ج02، ص187.

[3] ابن عبد ربه: العقد الفريد، تح: عبد المجيد الترحيني، ج03، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، 1983م،ص45.

[4] علي أبو زيد: ظاهرة العذل في شعر حاتم الطائي، مجلة جامعة دمشق، ع01، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة دمشق، سوريا، 2001/09/20م، ص84.

عوملوا بها في مجتمعاتهم، ذلك جعل نفسيتهم تتشرب جانب الإنسانية والتعاون مع الغير والإحساس بهم، يقول "تأبط شرا"[1] [البسيط]:

بلْ منْ لعذّالةٍ خــذّالةٍ أشِـــــبٍ حــرَّقَ باللَّوم جلدي أيَّ تحــراقِ[2]

يقُولُ أهلكتَ مالاً لــو قنعـتَ به من ثوب صدقٍ ومن بزٍّ وأعـــلاقِ[3]

عاذلتي إنَّ بعض اللّـــومِ معنفـةٌ وهل متـــــــاعٌ وإن أبقيته بـــاقٍ

فلوم الزوجة في هذه الأبيات يُحرقُ جلد الشاعر ويؤلمه من كثرة إلحاحها عليه لأنه كثيرُ التّصدق بما يملكه، من مال ولباس الحرب وغير ذلك من متاع يملكه الشاعر، لكن بالرغم من لوم العاذلة الشّديد إلا أن الشاعر يؤمن بمبدأ قوي يجعله يرى كل متاع الدنيا مآله الزوال والفناء، وما من رجل يرى بهذا المنظور إلا وشخصيته أقرب ما تكون إلى التضحية والبذل في سبيل الآخرين.

وتقريبا نجد نفس المعنى عند شاعرنا "عروة بن الورد" وذلك من خلال قصيدته الشهيرة "أقلّي على اللوم" حيث يقول فيها[4] [الطويل]:

أقلِّي عليَّ اللَّـــوم يا ابنة منذرِ ونامي فإنْ لم تشتَهي النّومَ فاسْهَري

دريني ونفسِي أمَّ حسَّــان إنني بها قبلَ ألاَّ أمــلكَ البيعَ مشتـــرِي

فالأمر هنا من الشاعر لزوجته بأن تقلل اللوم عليه وتتركه وحاله لأنه يريد أن يشتري ويبتغي بماله ذكرًا ومجدًا قبل أن توافيه المنية فلا يستطيع إلى ذلك سبيلا، كما أن الشاعر هنا يؤمن بأن الفرد يجب أن

[1] تأبط شرا: الديوان، ص43.

[2] الخذّالة: كثرة الخذل، الأشب: المعترض.

[3] البز: ثياب المعركة، أعلاق: جمع علق وهو المال الكثير.

[4] ابن السكيت: شرح ديوان عروة بن الورد، ص63.

يبتغي حياة أخرى بماله، وأفعاله، من سخاء وكرم، وبذل في سبيل الآخرين، وهذا السعي إنما يضمن له على الأقل ذكرا حسنا يخلده بعد موته.

والذي يؤكد لنا مبدأ الشاعر السامي وبحثه عن الخلود المعنوي قوله[1] [الطويل]:

أحاديثُ تبقى والفتى غير خالـــدٍ إذا هو أمسى هامـةً تحتَ صيَّر[2]

تجاوبُ أحجار الكناسِ وتشتَكـي إلى كلِّ معروفٍ تراهُ ومنكـــــرِ[3]

ففي هذين البيتين نجد الشاعر يرد على زوجته من زاوية المؤمن بمبادئه القوية، والمتشبع برؤية ايجابية واسعة، تبحث عن الخلود في هذه الحياة ذكرا ومجدا، حيث «نجد الشاعر يقابل بين الأحاديث الباقية والموت الذي هو نهاية كل حي مفضلاً صورة هذه الهامة التي لا تفتأ تصيح، وتشكو إلى من تعرف ومن لا تعرف ولا يعيرها أحد سمعه وكأنّه يريد أن يبيّن لصاحبته أن الثراء الحق هو ثراء الذكرى، وأن هذا الثراء هو الخلود لمن يطلب الخلود »[4]، فشخصية مثل شخصية عروة في أخلاقها النبيلة وقيمها الإنسانية الراقية المحسنة لغيرها لا شك في أنها تصارع واقعا سلبيا يتعارض وفلسفته الداعية إلى الإنسانية والأخلاق الرفيعة داخل ذاك المجتمع الطبقي الذي تحكمه العادات والتقاليد السلبية، حيث تمجِّد الغني القوي وتنزل من قيمة ومكانة الفقير الضعيف، وهذا ما من شأنه أن تؤثر على نفسية هؤلاء الصعاليك داخل مجتمعاهم ويصابون بالإحباط الذي: «يؤدي إلى الانسحاب بل إلى العدوان فيحمّل الفرد "النحن" مسؤولية ما وصل إليه، وتنمو لديه مشاعر الاغتراب »[5]، فهذا الإحباط إن أصيب الشاعر به فلابد أن يعقبه شيء من العدوان عن طريق أفعال وأقوال تدل على تفكك علاقة هذا الفرد بالجماعة، كما قد يستمر بعدها لا توافق بين هذه القوى مدى الحياة في بعض الأحيان.

---

[1] المصدر نفسه، ص65.64.

[2] هامة: يريد أن الإنسان يموت فتخرج منه هامة تعلو كل نشز، صيّر: حجارة تجعل كالحظيرة.

[3] الكناس: موضع.

[4] فوزي أمين: الشعر الجاهلي دراسات ونصوص، دار المعرفة الجامعية، كلية الآداب جامعة الإسكندرية، (د/ط)، (د/ت)، ص419.

[5] محمد خضر عبد المختار: الاغتراب والتطرف نحو العنف- دراسة نفسية اجتماعية-، دار غريب، القاهرة، ط01، (د/ت)، ص78.

يقول "عروة بن الورد"[1] [الطويل]:

هم عـــيَّروني أنَّ أمِّـــي غريبة وهـل في كرِيمٍ ماجدٍ مـــا يعيَّر[2]

وقد عيَّروني المال حينَ جـمعته وقـد عيَّروني الفقر إذ أنا مُقتِـرُ[3]

فالشاعر بالرغم من شخصيته الكريمة وسمعته الحسنة التي يُشهد لها في البلاد قاطبة إلاّ أن قومه قبَّحوه وعيّروه بنسبه الوضيع، فهو في كل الأحوال منبوذ ومرفوض سواء بماله وغناه، أو بفقره وحاجته، لأن هذا المجتمع في أصله غير عادل ويعيِّر الأشخاصَ بأنسابهم وأحسابهم.

وبالرغم من قبضة المجتمع الطاغية ولوم العاذلة المتواصل نجد البعض يتمسّك بمبادئه وفضائله ولا يُنصت لهذه الأصوات الملحّة، لأنه يعتبر الجود والكرم من الواجبات الاجتماعية والأخلاقية التي تفرض عليه، «هذا ولم يكتف الشعراء أن يدافعوا عن موقفهم بكلمات قليلة دون أن يعرضوا رأيهم إنّما كانوا يسوقون البراهين المختلفة المؤيدة لتصرفاتهم، ومن خلال هذه البراهين يتبيّن المرء نظرتهم حول الجود والكرم، ويتلخص رأي العاذلات في أن الجود إسراف وغباء وإهدار للمال، وأنّ الثراء وحده يكسب الإنسان قيمة اجتماعية أما موقف الأجواد فيوجز بأن الجواد لا يموت بسبب جوده، وأن البخيل لا يقوم أحد برثائه، وكما أن الجود لا يقلل الثروة فإن البخل لا يحميها من الزوال»[4]، وفي هذه النقطة نستحضر بيتين شعريين لعروة بن الورد يصور فيهما ضجر زوجته وشكواها من إقباله على منح بعير لرجل فقير محتاج، حيث يقول[5][الوافر]:

أفي نابٍ منحنَاها فقـــيرًا لـــه بِطنابِنَا طَنَبٌ مُصيتُ[6]

---

[1] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص71.

[2] عيّروني: قبّحوني ونسبوني إلى العار.

[3] المقتر: الفقير القليل المال.

[4] محمد فؤاد نعناع: الجود والبخل في الشعر الجاهلي، دار طلاس، دمشق، ط01، 1994م، ص58.

[5] ابن السّكيت: شرح ديوان عروة بن الورد، ص164.

[6] الطّنب: حبل الخباء والسّرادق ونحوها.

وفضــلَةِ سمنةٍ ذهبتْ إليهِ وأكثَرُ حقِّــه ما لا يفـوتُ

فهنا الشاعر بمبادئه الثابتة في العطاء والبذل يدافع عن تصرفه وكرمه الزائد الذي جلب له اللوم والعذل فهو يرجو من عاذلته أن تتوقف، كما أنه يعتبر أن هذا التفضل والتكرم على المحتاج بمنحه الإبل المسنة وقطعة السّمن لا يعدُّ إطلاقا قياما بالواجب على أكمل وجه، لأن الفقير يحتاج أكثر من ذلك في أصل التضامن والتعاون مع الفقراء حسب عقلية الشاعر ورؤيته في الحياة.

وفلسفة "عروة" في البذل والعطاء إنّما تغطّي جانبا واسعًا من جوانب مروءته وكمال فروسيته الخلقية التي تنضاف إلى فروسيته في الحرب التي اشتهر بها، فهو يقول[1] [الطويل]:

فلا أتركُ الإخوانَ ما عشتُ للرَّدى كما أنّه لا يترُكُ المـــــاء شاربــه

فأيّ صورة بليغة تلك التي تصوّر عروة بأصحابه كالظمآن ومائه، كما أن الشاعر هنا أيضا يجعل الفقراء والمحرومين عائلته وإخوانه، وهذا لا شك أنه نوع من أنواع التعويض النفسي لأنه كما هو معروف عن الشاعر "عروة بن الورد" أنه افتقد الحنان الأبوي في صغره، ولم يجد عائلة توفر له حنانًا أسريا كافيا يغنيه عن شر الإحساس بالتذمر والإخفاق الشديدين، لهذا نراه يبحث عن مكان بديل في قوله[2] [الطويل]:

وسائِلةٍ أين الرّحــيلَ وسائلٍ ومن يسألِ الصّعلوك: أين مذاهبُهْ

مذاهبُهُ إنّ الفجاجَ[3] عميقـةٌ إذا ضنَّ عنه بالفعـــــالِ أقاربــهْ

فالفجاج العميقة قد اختارها الشاعر عالما جديدًا له ومخرجًا من وضع القهر والظلم الذي يعيشه ويعانيه من طرف أقاربه، فلا سبيل حينها إلاّ الرحيل نحو مجتمع جديد يستطيع الشاعر فيه تحقيق تميّزه

[1] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص48.
[2] المصدر نفسه، ص48.
[3] الفجاج: الواحد فج، وهو الطريق الواسع بين الجبلين.

وتفرّده، «وهكذا تمارس الذات قيم القوة والعفَّة والسّيادة التي حُرمت منها طويلا في مجتمعها الأصلي الذي أورثها الإحساس بالظلم والكراهية والأذى، ووضعها في الدرجات الدنيا من بنائها الطبقي ومن ثم فإن إحساسها بالتعالي والسادة في مجتمعها الجديد تعويض عن إحساسها السّابق »[1].

وعليه فالقطيعة التي يدعو إليها الشاعر تتعدى الانفصال المكاني فقط، بل تتعداه إلى قطيعة نفسية اجتماعية تلغي تماسك القبيلة وتلاحمها، والشاعر يرى في الاندفاع نحو غربة الوجود مهربًا ومخرجًا لوضع لا يليق ولا يتناسب مع قيمه ومبادئه الشخصية.

وما يؤكد هذه الرؤية ويوضح اختلاف عقلية الشعراء الصعاليك واختلافهم عن فكر الجماعة، وحتى نظرتهم إلى الحياة وأسسها نجد مثلا مبدأ عروة بن الورد في السيادة قوله[2] [الكامل]:

ما بالثراءِ يسودُ كلّ مسودٍ مثرٍ ولكـــنْ بالفعالِ يسودُ

إن مبدأ الشاعر في السيادة هنا وهذه الرؤية السليمة والمتفردة إنما تدعونا إلى الحكم بإنسانية وأخلاقية عروة وصفاته الحميدة التي تحكم حياته وتؤسسها، فهو ضد النظرة المادية التي ترى في المال والثراء معيارًا من معايير السّيادة وكسب المكانة داخل المجتمع، لكن دستور عروة يجعل من القيم الأخلاقية والصفات الحميدة كالكرم والشجاعة والبذل والعفة، وغيرها من الصفات الحسنة هي الأساس والعماد الذي تُبنى عليه المجتمعات وتؤسِّسُ بها نظاما ناجحا وعادلًا، حيث لا مجال للفروقات الاجتماعية أو الاقتصادية التي تجعل المجتمع طبقيًا يتنفس العنصرية والتمييز العرقي بين الأفراد والجماعات، وينحني تحت سيف النّظام المالي الجائر.

ومن هذا المنطبق يمكن اعتبار شخصية "عروة بن الورد" من الشخصيات التي تهدف إلى تحقيق حاجة تقدير الذات «التي تتمثل في رغبة الفرد في تحقيق ما يتلاءم مع قدراته أو رغباته في تكوين ما يود أن يكونه وما يمكن أن يكون، فالحاجات إذن هي أساس مشاكل التوافق التي تواجهنا، بمعنى أن

[1] زين كامل الخويسكي وعبد الرزاق سليمان: في الشّعر الجاهلي دراسات نصوص: دار المعرفة الجامعية، ط01، (د/ت)، ص116.
[2] ابن السّكيت: شرح ديوان عروة بن الورد، ص181.

الشخصية لا تتحقق لها الصحة النفسية السّليمة التي تهدف إلى توافق الإنسان مع البيئة الخارجية إلاّ إذا أشبعت هذه الحاجات وشعر الإنسان بأن حاجاته قد أشبعت فعلا »[1]، لهذا فرغبة عروة في تكوين صورة إيجابية عن نفسه وحياته مع الآخرين قد دفع به إلى درب القيم والصفات الحميدة و القيم الإنسانية الرفيعة التي تميّزه عن غيره وتجعله شريفا سيدا في قومه.

وطريق السيادةِ والبحث عن المكانة الحسنة والمرموقة بين الناسِ نجده مبدأ آمنت به خليّة الشعراء الصعاليك كلها، وكل شاعر منهم قد علم مدى صعوبة الوصول إلى السيادة وتحقيق السمعة الجيدة بين قومه، حيث نجد الشاعر "حبيب الأعلم الهذلي" هو الآخر يشير إلى طريق السيادة الشاق والذي يصعب على البخيل سلكه، يقول[2] [الوافر]:

وإنّ السيِّد المعلـــــوم منَّا يجودُ بما يضنُّ به البَخيـــــلُ

وإنّ سيادةَ الأقوامِ فاعلـم لها صعْداءُ مطلعُـــها طويــلُ[3]

فالسيادة والرفعة في المجتمع تكون عن طريق البذل والكرم والعطاء، وكلها صفات تجلب الحمد وحسن الثناء اللذين بها يستطيع الفرد سيادة قومه أو عشيرته التي ينتمي إليها، والنظام القبلي الجاهلي يفرض دستوره الخاص فيمن يريد أن يرأس أو يسوس قومه، كما أن الصفات الحميدة كانت المفتاح الذي يفتح الباب لصاحبة لتبوء مكانة عالية وسط قومه.

وما يؤكد فعلا بأن الخصال الحميدة وخاصة الكرم هي من تشتري الحمد والثناء ما قاله الشاعر الأعشى (ميمون قيس) في ممدوحه بقوله[4] [الرمل]:

تشتَري الحمدَ بأغلى بيعةٍ واشتراءُ الحمدِ أدنى للرِّبحِ

[1] صلاح الدين أحمد الجماعي: الاغتراب النفسي والاجتماعي وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط01، 2008م، ص81.

[2] أحمد الزين: ديوان الهذليين، ج02، ص87.

[3] صعداء: أي موضع شديد التصعد.

[4] الأعشى: الديوان، ص239.

تبتنيْ المجد وتجتازُ النُّــهى وتُرى نازك مــن ناءِ طــرحِ

فالشاعر هنا يذكر بأن ممدوحَهُ يشتري الحمد بأغلى ثمن حرصًا منه على كسب الثناء، وأما قوله في البيت الثاني "ترى نازك من ناء طرح" في كناية عن الجود والكرم بكثرة الطبخ والطّهي، وهذا كما قلنا يؤكد لنا بأن الكرم في العصر الجاهلي يُرمز به مباشرة إلى فعل الحمد أو فعل الرشد.

وفي دائرة الجود والكرم دائما لا يسعنا إلا أن نعود في كلّ مرّة لنستشهد بمواقف "عروة بن الورد" ذلك الفارس النبيل الذي اشتهر بسخائه وكرمه الزائد، وحسن معاملته للفقراء والمحتاجين حتى لقّب بأبي الصعاليك، حيث نجد في كتب الأدب أنه كان مسؤولاً عن تفريج الكربات وضوائق الأحوال التي تمر على الناس الفقراء في كل مرّة، فمن أشهر المواقف التي مرة مع الشاعر ما حدث له مع "أصحاب الكنيف" إذ يقول[1] في ذلك [الطويل]:

ألا إنَّ أصحابَ الكنيفِ وجدتُهــم كما النَّاس لمَّا أخصبوا وتموّلــُوا[2]

وإنّي لمدفوعٌ إليَّ ولاؤهــــــــم بماوانَ، إذ نمشي، وإذ نتملمَــلُ[3]

فالشاعر هنا يذكر لنا كرمه وجوده على أصحاب الكنيف، حيث قد وجدهم هزلى من شدة الجوع والجهد فقام على خدمتهم وإنقاذهم مما هم فيه من تعب وعطش وجوع، ولما أخصبوا وتموّلوا قاموا كالنّاس الأباعد، غير شاكرين ولا ممتنين له على صنيعه و فعلته!.

وهنا يتضح لنا سخاء الشاعر وبذله في سبيل أصحاب الكنيف، إذ يصور لنا الموقف كالأب مع أبنائه في قوله "وإنّي لمدفوع إليّ ولاؤهم"، فمحبتهم وصداقتهم كأنها مسؤولية عروة وحده وهو المكلف بجميع أحوالهم، فبعد أن تفضل عليهم وساعدهم وأشركهم معه في الأكل والشرب مما غنم تمرّدوا

[1] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص91.

[2] الكنيف: الحظيرة من الشجر.

[3] ماوان: اسم واد.

عليه، ولم يعترفوا بجميله وفضله عليهم، واللئيم من أحسنت إليه ولم يعترف بإحسانك وحسن جميلك ما جعله يصور ذلك الموقف بتشبيه جميل يقول[1] فيه [الطويل]:

فإنّي وإيّاكُم كـذي الأمّ أرهنَتْ له مـــــاءَ عينيها تُفدِّي وتحمِـلُ

فلمّا ترجَّـــعَت نفعَه وشبَابـــهُ أتتْ دونَها أخرى حديدًا تكحِّــلُ[2]

فباتت لحدِّ المرفقـــين كليهما توحـــوحُ مـــما نابَهَا، وتُولـــولُ

فبعد أن تكرّم عروة على أصحابه لقي ما لقي من ألم وحسرة وخيبة أمل، لذلك ساق لنا تلك الخيبة في تشبيه وصورة جميلة تتمثل في علاقة الأم بولدها، حيث أرهنت له ماء عينيها من شدة الاعتناء به والقيام بأمره، لكن لما أدرك ذلك الصّبي نفعَه وتزوّج أصبح يحب زوجته ويقربها أكثر من أمه التي باتت تنوح وتولول من الحسرةِ والألم –حسب قول الشاعر–، وأي نبلٍ وأي كرمٍ يحمله هذا الشاعر الصعلوك وسط بيئة ظالمة لا تؤمن إلا بالمصلحة الشخصية ونظام غُيّبت فيه العدالة الاجتماعية وضُيِّعت فيه حقوق الفقراء والمحتاجين!.

ولهذا فنحن أيضا نراه من الظلم ومن غير العدل كذلك ألا نتطرق لمثل هؤلاء الشعراء وهذه الطبقة بالذات "طبقة الصعاليك"، الذين خلّفوا لنا إرثا شعريا ضخمًا يحمل أسلوب عيشهم، وطبيعة حياتهم ومجمل صفاتهم التي اتصفوا بها من إنسانية ونبل أخلاقي، ميزهم عن باقي شعراء الفترة نفسها.

ومع الشاعر عروة دائما حيث نجده يرسم لنا اندفاعه نحو عالمه الجديد الذي يبحث عنه وغايته السامية التي يسعى إليها، حيث يفضل الموت على تلك الحياة الجافة الغير هادفة –حسبه– فهو يجسد رؤية جديدة وفلسفة خاصة قائلا[3] [الطويل]:

[1] المصدر السابق: ص92.

[2] حديدا: أراد بذلك الزوجة.

[3] ابن السّكيت: شرح ديوان عروة بن الورد، ص206.

دعيني أطوّفُ فـي البلاد لعلَّــني أفيدُ غنًى، فيه لذي الحقِّ محمَـلُ[1]

أليسَ عظيمًا أن تلـمَّ ملـــــمَّةٌ وليس علينَا في الحقوقِ معَـــوِّلُ

فإن نحنُ لم نملك دفاعًا بحادثٍ تلمُّ به الأيامُ فالموتُ أجمَـــــلُ

فالشاعر يخاطب زوجته بأن تتركه وغايته المتمثلة في الحصول على المال والطعام لإعانة المحتاجين وقت الشدّة، لأنه يري بأنه من العار أن تأتي نزلة من النوازل ولا يجد المعوّل والمتكل على عروة ما يسدّ به حاجته، ومن العظيم أن لا يقدر على دفع مصيبة عن أحدهم، وهو يفضّل الموت على هاته الحالة وهي من أحسن صور الجود والكرم، و في معنى التضامن مع الآخرين ومساعدتهم أيضا نجد أن في هذه الحالة «يصبحُ الموتُ احتمالاً واحتمالًا جميلا في حالة معينة هي حالة الإخفاق في إعطاء مصير الإنسان عن طريق جعل وجوده الفردي منفذا وملاذا ودرعا للآخرين، وما من قطعة أخرى في الشعر الجاهلي يبدو فيها الموت أجمل مما هو عليه هنا »[2].

وبهذا المبدأ القوي والمتأصل والطموح يصنع لنا الشاعر أكبر لوحة معبرة عن قيمة الجود والكرم والتضامن الاجتماعي، فنجد البعض يستغرب أن تكون مثل هذه الصفات الحميدة من شيم بعض الشعراء الصعاليك، حيث أن الشائع عن هذه الطائفة المعروفة أنهم مجموعة من اللّصوص وقطاع الطرق ممن يسلبون الناس ويتلصصون عليهم، في حين هذه هي حقيقة أو جزء من الحقيقة الموجودة فعلا حول هذه الفئة (الشعراء الصعاليك) التي تمثل جانبا صغيرا من إنسانيتهم، وأخلاقهم الرفيعة وكل الصفات الحسنة التي افتخروا بها في أشعارهم وتغنوا بها تارة أخرى، لتكون أكبر دليل على وجودها فعلا في شخصيتهم ومن بين الصفات التي تميزوا بها.

[1] الحق: الحزم، المحمل: الجهد.

[2] كمال أبو ذيب: الرؤى المقنعة نحو منهج بنوي في دراسة الشعر الجاهلي، ص589.

ثانيا– الشجاعة والإقدام:

لقد عُرف الإنسان العربي في العصر الجاهلي بشجاعته وإقدامه أيما إقدام خاصة إذا تعلق الأمر بقضايا الكرامة، أو الشرف، أو الأخذ بالثأر، أو حتى إغاثة الملهوف أحيانا، لهذا فالشجاعة هي مفخرة العربي وسرباله الذي يسترُه مما قد يشينه أو يخدش شرفه وكرامته التي لطالما اعتز بها وحرص على طهارتها ونقاوتها من الدنس، وهذا من كمال المروءة عند العرب في العصر الجاهلي.

والبيئة العربية في ذاك العصر تفرض على سكانها التحلي بقيم البطولة والشجاعة وحسن البلاء وكثرة الإقدام، وغيرها في حالات الدفاع عن شرف القبيلة وسمعتها بين القبائل الأخرى، يقول العلامة "ابن خلدون"« والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داعٍ واستنفرهم صارخٌ »[1]، فهي حصنهم المنيع الذي يحتمون وراءه من سهام الذل والمهانة، لهذا نجدهم يفتخرون بالشجعان ويمتدحونهم في أشعارهم ويتغنون ببطولاتهم، وشدّة بطشهم بالخصوم والأعداء، وحتى الافتخار بطريقة موتهم وهم في ساحات الحرب بين طعن القنا وخفق البنود.

يقول "السموأل بن عادياء"[2] مفتخرا [الطويل]:

يُقرِّبُ حبُّ المـوتِ آجالَنا لنـَا وتكـرهُهُ آجالُهـم فتَطـــــولُ

ومـــا مات منَّا سيِّدٌ حتفَ أنفِه ولا طُلَّ منَّا حيثُ كان قتيـــلُ[3]

تسيلُ على حدِّ الظُّباتِ نفوسُنا وليست على غيرِ الظُّباتِ تسيلُ[4]

فالشاعر في هذه الأبيات يفتخر بشجاعة قومه في الحرب وإقدامهم عليها دون خوف أو تردُّد، مما يجعل أنفسهم تسيلُ على حد السيف، فليس من قوم الشاعر من ينتظر الموت على فراشه، أما آجال

[1] ابن خلدون: المقدمة، تح: عبد الله محمد الدرويش، ص251.

[2] السموأل بن عادياء: الديوان، تح: عيسى سابا، مكتبة صادر، بيروت، (د/ط)، (د/ت)، ص13.12.

[3] حتف أنفه: يقال فلان مات حتف أنفه إذا مات على فراشه.

[4] الظّبات: جمع ظبة، وهي حد السيف.

الآخرين فإنها تطول لخوفهم من اقتحام تلك الشدائد والحروب وبقائهم في منازلهم، غير أن الشاعر وقومه تقصر آجالهم وذلك لكثرة ما يركبون المعارك ويقدمون عليها دون خوف أو جزع، كما نجد أن مظاهر الشجاعة عند العربي قد تنوعت وتوزعت بين الأخذ بالثأر، والموت في ساحة المعركة، وإغاثة الملهوف، وغيرها من المواقف والحالات التي تدلّ على بسالتة و مروءته أيضا.

وإذا كان هذا بالنسبة للعربي بصفة عامة فإنه بالنسبة للصعاليك بصفة خاصة أهم ما يمكن أن نميّزه عنهم أنهم «يمتازون بالشَّجاعة والصبر عند البأس وشدة المراسِ والمضاء وسرعة العدو حتى ليسمون بالعدائين»[1]، هذا وبالإضافة إلى صفات أخرى تتلاءم مع طريقة عيشهم وتدل على صحة ما رُوِي عنهم بأنهم كالذئاب يجوبون الصحاري ولا يخشون شيئا قط، بل في بعض الأحيان تعادل شجاعة الواحد منهم عشرات الرجال أو أكثر.

وقد افتخر هؤلاء الصعاليك بشجاعتهم وبسالتهم، وقوة بطشهم بالأعداء، وسرعة إقدامهم لمواجهة الصعاب، والمخاطر للتغلب على مشاقها وعدم الاستسلام لها والصمود في وجهها، ذلك أنهم صوّروا بعضا منها في أشعارهم وتغنوا بتلك البطولات بكل فخر واعتزاز، كيف لا والصعلوك ليس له من ينصره سوى شجاعته وقوته، فهم يكرهون الخضوع والانقياد مهما كان حتى أنّهم أصبحوا مثالا يُحتذى به في شدة قتالهم[2]، ولون شجاعتهم التي لا توصف، فكيف لا يكونون كذلك وهم لا يورثون غير السّيف والدرع والمغفر، وبقية الأسلحة التي ترمز للشجاعة والفروسية وقوة البطش وشدة الفقر أيضا، ففي هذا الصدد يقول عروة بن الورد[3] [الطويل]:

وذي أملٍ يرجو تُراثي وإنَّ ما يصيرُ له منه غدًا قلِيـــــــــلُ

[1] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي- ، ص375.

[2] أبو الحسن بن علي المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج03، المكتبة المصرية، بيروت، ط01، 2005م، ص126.

[3] ابن السكيت: شرح ديوان عروة بن الورد، ص207.

ومالِيَ مـــالٌ غير درعٍ ومغفَرٍ وأبيضُ من مـــاءِ الحديدِ صَقيلُ[1]

وأسمرُ خـــطِّيّ القناةِ مثقّفٌ وأجـــردُ عريانُ الســراةِ طَويلُ[2]

فأبو الصعاليك هنا لا يملك ما سيتركه لوارثيه سوى السّيف والدرع والمغفر والرمح والحصان، وكلها أدوات تستخدم في الحروب وحالات الدفاع عن النفس، فالشاعر يعتمد على شجاعته وقوة بأسه في مجابهة صعاب الحياة لهذا لا يورث مالا ولا ثروة ولا أرضا.

ولعل المبدأ القوي الذي آمن به جل الصّعاليك في حياتهم هو مبدأ التّسليم بحتمية الموت وفق الأجل المحدد والمصير المحتوم، حيث يقول عروة بن الورد[3] [الطويل]:

أرى أمَّ حسَّان الغـــداةَ تلومُني تخوِّفني الأعداءَ والنفسُ أخـــوفُ

لعلَّ الذي خوَّفتنا مـــنْ أمامنا يُصـادِفُه في أهلِـــــه المتخلِّفُ

فالشاعر هنا مع عاذلته يدافع عن موقفه بكلمات قليلة تحملُ في طياتها فلسفة عميقة تنمّ عن خير ورؤية سديدة لمعنى الحياة، فقد سلَّم بحتمية الموت لأن الموت يلحقُ الصّعلوك الذي يخاطر بنفسة ويقدم على الأهوال، كما يلحق أيضا الصعلوك الجبان الذي يبقى بين أهله متقهقرًا وخائفا من الخروج للغزو، ولهذا نجد عروة قد اختار الخروج والمخاطرة دون الاكتراث للعواقب أو الأخطار التي قد تواجهه في طريقه.

وها هو "عمر بن براق الهمداني" هو الآخر يسوق لنا حكمة من خلال بيت شعري مضمونها بالنسبة للصعاليك يمثّل مبدأ من المبادئ التي آمنت بها خلية الصعاليك كلها، ومادة من دستورهم الذي يمشون وفقه، حيث يقول[4] [الطويل]:

---

[1] أبيض من ماء الحديد: أي سيف من حديد مذاب.

[2] أسمر: أي رمح أسمر، مثقف: مقوّم ومسوّى، الأجرد: أي الفرس الأجرد وهو الفرس القصير الشعر، السراة: الظهر.

[3] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص87.

[4] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج21، ص114.

متى تجمعِ القلبَ الذَّكي وصارمًا وأنفًا حميا تجتنبكَ المظالِـــــمُ[1]

فالقلب الشجاع وعزة النفس وامتلاك السلاح هي القاعدة الثلاثية التي بنا عليها الصعلوك حياته ومنطقه في الحياة، فهو يؤمن إيمانا قاطعا بأن شجاعته وإقدامه تجنِّبه المظالم والأخطار أيضا، مما يتيح له بذلك تحقيق هدفه وغايته، يقول أيضا[2] [بالطويل]:

ومن يطلبِ المـــــالَ الممنَّع بالقنَا يعشْ ذا غِنى أو تختَرِمه المخَـــارمُ[3]

وكنتُ إذا قومٌ غزوني غزوتُهـــــم فهل أنا في ذا يال همدانَ ظالـــمُ

فلا صُلـــحَ حتى تعثُر الخيلُ بالقنا وتَضربَ بالبيض الدَّقاقِ الجَماجِـمُ

فليس أدل على شجاعة "ابن براق" واعتزازه بإقدامه وشجاعته حينما يتطلب الأمر ذلك من هذه الأبيات التي بين أيدينا، فمن خلالها يكون الشاعر قد جمع بين صفات الفارس النموذجية التي يعتز بها العربي في العصر الجاهلي، من كرامة وشجاعة وسلاح ضارب، وذلك من أجل تحقيق الحرية والمجد وكسب المال والطعام أيضا، وعليه «فالفروسيةُ والشجاعةُ من القضايا الرئيسية في المجتمع الجاهلي ذلك المجتمع الذي يقوم على القوة، وابن براقة من فرسان قوم همدان، وإذا كان القدماء قد عرفوا صفة الفروسية في ابن برق فإننا –من خلال ما وصل إلينا من شعره، ومن أقوال مترجمة– نرى أن الفروسية هي مفتاح لشخصية هذا الرجل »[4].

ويحتل الفخر الذاتي عند الشعراء الصعاليك حيزا كبيرا من أشعارهم، كما يمثل حضورا بارزا أيضا، لأن طبيعة حياتهم بكل ألوانها المختلفة تفرض عليهم فرضًا جانب الفخر والاعتزاز بالنفس في أشعارهم

[1] القلب الذكي: القلب الشجاع.

[2] المصدر السابق، ص114.

[3] المخارم: سبل الموت.

[4] شريف راغب علاونة: عمر بن براق سيرته وشعره، دار المناهج، عمان، ط01، 2005م، ص25.

وسرد كل مواقف الشجاعة والقوة والصمود التي يمرون بها، لهذا نجد بعضهم يشبه نفسه ببعض الحيوانات الضارية في شجاعته وقوة تحمله.

يقول الشنفرى[1] [الطويل]:

أنا السَّمــع الأزلُّ فلا أبالـــي ولو صعُبَت شنَاخيبُ العِقـــابِ[2]

ولا ظمَأٌ يؤخّرني وحـــــــرٌّ ولا خمصٌ يقصِّر من طِـــلابِ

إن الشاعر هنا يشبّه نفسه بولد الذّئب في قوته وخفته وشجاعته التي تسمح له ببلوغ قمم الجبال الصعبة، كما أنه لا يتأخر عن طلب حاجته ولو به ظمأ أو جوع، وهذا النوع من التباهي والافتخار ليس حكرًا على الصعاليك فقط، بل نجده بكثرة في العصر الجاهلي بصفة عامة وعند الكثير من الشعراء أيضا، حيث نجدهم يتسابقون نحو هذا التباهي والافتخار بالذات لاسيما ما لم يخرج عن الحدود المعقولة في الفخر التي يستحسنها الإنسان الجاهلي.

وقد أشار "ابن رشيق" في عمدته إلى جواز ذلك عند الشعراء بقوله: «ليس لأحد من الناس أن يُطري نفسه ويمدحها، في غير منافرة، إلاّ أن يكون شاعرا، فإنّ ذلك جائز له في الشعر غير معيب عليه »[3]، ولهذا نقول في هذا المقام أنه يجوز للشاعر مالا يجوز لغيره، خاصة إن كان الشاعر صعلوكا لا يملك من يردُّ عليه كيد الأغراب والأعداء، وهو هنا أولى بالفخر والتباهي في سبيل ذلك طبعا.

أما عند "تأبط شرا" فنراه هو الآخر يستخدم صورة من صور الافتخار والاعتزاز التي تجعله يقارن نفسه بالذئب الموحش وذلك في قوله[4] [الطويل]:

---

[1] الشنفرى: الديوان، ص30.

[2] السِّمع: ولد الذّئب من الضبع، الأزلّ: السريع، شناخيب: جمع شنحوب: وهو أعلى الجبل، العقاب: جمع عقبة وهي المرقى الصعب من الجبال.

[3] ابن رشيق القيرواني: العمدة في محسن الشعر وآدابه ونقده،ج01، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، سوريا، ط05، 1981م، ص25.

[4] تأبط شرا: الديوان، ص62.

ووادٍ كجـوفِ العيرِ قفرٍ قطعتُـهُ به الذِّئبُ يعـوي كالخليعِ المعيَّلِ[1]

فقلتُ لـــه لمَّا عوَى إنَّ شأنَنَا قليلُ إن كنتَ لمـَّا تمَـــــــوَّلِ

كلانا إذا مـــا نَالَ شيئًا أفاتـــه ومن يحترثْ حرثي وحرثَكَ يُهـزَلِ[2]

هذه المقارنة بين الذّئب والشاعر في أسلوب عيشهما وطبيعة حياتهما المتشابهة منطقية جدا، لأن الشاعر نجده يسافر في جوف الليل قاطعًا الفيافي غير آبه لمختلف الأخطار التي قد تواجهه، يعتمد في ذلك على نفسه كالذئب الشَّارد، كما أن كلاهما يعتمد سلاحه المتمثل في سرعة العدو ومهنة المكر بالإضافة إلى الصبر وقوة تحمل المشاق، مما جعل هذا جسم الشاعر يشبه جسم الذئب في شدة هزاله وضعف جسده، وهذا التشبيه الذي لجأ إليه الشاعر إنما مستمد من البيئة الواقعية التي يعيشها فكل الشعراء الصعاليك يجسدون بيئتهم التي يعيشونها، من حياة مفلسة، وشعاب موحشة، وحيوانات مفترسة، هذه الأخيرة التي يسقطون صفاتها المختلفة على أنفسهم من قوة، وشجاعة، وسرعة العدو وحيلة، تشبيها وافتخارا واستئناسا أيضا بهذا العالم الجديد الذي تُعتبر الشجاعة فيه عاملا رئيسيا من عوامل الحفاظ على البقاء وفرض الوجود.

وتتنوّع صور البطولة والشجاعة عند الشعراء الصعاليك بصورة لافتة، ففي كل مرة نرى قالبًا مغايرا من قوالب التشبيه والمقارنة، يرمز غالبا لفعل الإقدام والإقبال النادرين على مختلف المهالك والحروب فيصورون لنا في كل مرة تصويرا بارعا يجسد فردية هؤلاء الشعراء وهم يقتحمون ساحات الوغى، غير مبالين بما سيلقونه من عظيم الأهوال والمشاق التي كانت تواجههم أثناء صراعاتهم الدائمة في الحفاظ على بقائهم، وفرض وجودهم بالقوة والسيف، مادام العدالة الاجتماعية قد غيِّبت وغابت تحتها جميع حقوق أولئك الضعفاء من الصعاليك، وغيرهم من الفئات الهشة التي عانت ذلك الواقع المرير.

[1] العير: الحمار الوحشي، الخليع: الماجن المقامر، وهو في اللغة الذي خلع عذاره فلا يبالي بما يصنع، المعيل: ذو العيال الكثير.

[2] يحترث: يطلب

يقول "عروة بن الورد"[1] واصفا هذه المشاهد [الطويل]:

أتجعلُ إقدامي إذا الخيلُ أحجَمَتْ وكـــرِّي إذا لم يمنَعِ الدُّبْرَ مانـــعُ[2]

سواءً ومن لا يُقدمُ المهرَ في الوَغى ومـــن دُبرُهُ عند الهزاهزِ ضائـــــعُ[3]

إذا قيلَ يا ابنَ الوردِ أقدم إلى الوغَى أجَبْـتُ فلاقاني كـــميٌّ مصـــــارعُ[4]

بكفِّي عـن المأثور كالملحِ لونُـــــهُ حديثٌ كإخـــلاصِ الذّكـورةِ قاطـــعُ[5]

فأتركُـــه بالقـــاع رهنًـا ببلـــدةٍ تُعـاوره فيها الضِّبـــاعُ الخوامـــــعُ[6]

فـلا أنا ممّا جرّت الحـربُ مشتكٍ ولا أنا ممّا أحـــدثَ الدّهـرُ جـــازعُ

ففي هذه المقطوعة يفتخرُ عروة بإقدامه لتلبية النداء إلى ساحة الوغى حين يُطلب منه، ذلك كما نراه يرفض مقارنته بمن لا يهرع ولا يُقبل إلى القتال بسرعة، فالشاعر كمي مقارعٌ ينتظر الإشارة على استعداد لتلبية النداء غير مشتكٍ أو خائف من النتائج والعواقب الوخيمة التي تحملها الحروب، فكما جاء في العقد الفريد أنه «قيل لعنترة الفوارس: صف لنا الحرب، فقال: أولها شكوى وأوسطها نجوى وآخرها بلوى »[7]، لهذا نرى أن أغلب الشعراء يفتخرون بشجاعتهم المتمثلة في الحضور والإقبال على الحروب التي حمي وطيسها بكل رضا وافتخار، وذلك دفاعا عن السُّمعة والشَّرف والعرض والمال.

وإن كانت الصورة في الأبيات السابقة واضحة جلية توضح حالة افتخار الشاعر واعتزازه بشجاعته وإقدامه، فإنها أوضح كذلك لصورة مناقضة تمثل حالة الذل والخوف من الشدائد والحروب وحتى في

[1] ابن السكيت: شرح ديوان عروة بن الورد، ص178.177.

[2] الدّبر: المال الكثير.

[3] الهزاهز: المصائب والشدائد التي تهز الناس.

[4] الكميّ: لابس السلاح أو الشجاع.

[5] المأثور: أراد به السيف القديم، إخلاص الذكورة: حد السّيف وماؤه. وإخلاص مصدر أخلصه إذا جعله خالصا لا يشوبه شيء.

[6] تعاوره: تتعاوره، تتداوله وتتعاطاه، الخوامع: خمعت الضبع أي مشت كأنّ بها عرجا، إما خلقة وإما لمرض.

[7] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج01، ص86.

حالات القعود عن الغزو، فالشاعر عروة بن الورد كثيرا ما كان شعره يحمل ويسوق لنا صورة عكسية لصورة الصعلوك البطل وهي حالة ذاك الصعلوك الخامل الذي يبقى خلف أدبار البيوت متقاعسا مدبرا دون جهد أو غزو يقوم به، يقول[1] [الطويل]:

لحَا اللَّه صعلوكًا إذا جـنَّ ليلُه مصافي المشاش آلفًا كلّ مجـــزرِ[2]

فما أقبح هذه الصورة التي يكون عليها ذاك الصُّعلوك الكسول الذي يخاف المواجهة والمغامرة معا حيث يكتفي بالعيش تحت إعانات الآخرين ورحمتهم، وهذا المعني الذي صوره الشاعر نجده عند حاتم الطائي أيضا في قوله[3] [الطويل]:

ولنْ يكسِبَ الصعلوكُ حمدًا ولا غنًـــى إذا هــو لم يركب من الأمــرِ معظمًا

لحى اللّه صعلوكًا، مُنَاه وهمُّـــــــه مـن العيشِ، أن يلقى لبوسًا ومطعمًـا

وللّه صعلـــوكٌ يُساورُ همّـــــــه ويمضي على الأحداثِ والدَّهر مُقدِما

فالمعنى الذي ذهب إليه "عروة" نجده نفسه عند "حاتم الطائي"، حيث تطرّق إليه هو الآخر بهذه الأبيات والتي ينبذ فيها الصعلوك اللئيم الذي يعيش خاملا خائفًا من ركب عظائِم الأمور وشدائدها فهو يكتفي بما تُجاد عليه به، لهذا قال عنه "حاتم" أنه لا يكسب حمد ولا غنى إذا هو بقى في خموله وخوفه ولم يركب أمر معظمًا.

والنّموذج الذي يريد عروة أن يقدمه عن الصعلوك الشّجاع هو ما يجب أن يكون فعلاً، وذلك بالنَّظر إلى طبيعةِ الحياةِ في العصر الجاهلي وطبيعة النِّظام الاجتماعي الطبقي، حيث يتوجب على الفقراء

[1] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر ممد، ص68.

[2] مصافي المشاش: مختار، مؤثر للأكل، والمشاش رأس العظم اللين، المجزر: المكان الذي تجزر فيه الإبل.

[3] حاتم الطائي: الديوان، ص82.

والمحتاجين –والصعاليك منهم– أن يتمتعوا بالشجاعة وقوة الإرادة وغيرها من الصفات التي تمكنهم من الصمود في وجه من يتمتعون بالسّيادةِ والغنى والجاه.

وتتكرر لنا هذه الصورة وتتضح أكثر فأكثر عن هذين النوعين من الصعاليك في العصر الجاهلي وهما الصعلوك الخامل والصعلوك الشجاع المقدام في قول الشاعر "السّليك بن السلكة"، وذلك في حواره مع زوجته بقوله[1] [الوافر]:

فلا تَصِلي بصعلـوكٍ نِـومٍ إذا أمسَى يُعدّمــن العِيـــالِ[2]

ولكنَّ كلّ صعلوكٍ ضـروبٍ بنصل السَّيفِ هاماتِ الرِّجالِ

فالسّليك هنا ينصح زوجته بالابتعاد عن أي صعلوك عاجز أو كسول يُكثرُ من النّوم ويجبُنُ أمام الكسبِ والمواجهةِ، حيث يبقى بين عياله منتظرًا من يخلّصه من جبنه وفقره بجميع المساعدات كما أن الصعلوك حسب الشاعر هو من يقطع رؤوس الرجال، وفي هذا إشارة إلى كثرة خوضه للمعارك وكثرة القتال والغزو، لأن السّليك كما رُوي عنه في كتبِ الأدبِ أنه كان رجلاً شجاعا وفارسا لا يهابُ شيئًا، فقد جاء في الأغاني عنه أنه كان يقول «اللهم إنّك تهيئُ ما شئتَ لما شئت إذا شئت اللّهم إنّي لو كنتُ ضعيفًا كنتُ عبدًا، ولو كنتُ امرأة كنت أمةً، اللّهم إنّي أعوذ بك من الخيبةِ فأمّا الهيبة فلا هيبة»[3].

أما عن قوله "إذا أمسى يُعدّ من العيالِ" فإننا نلمس نوعا من معاني الذل واستهجان لصفة البقاء مع العيال، فالبقاء مع العيال هي صفة للنساء والأبناء الصغار، أما الصعلوك الحقيقي فهمه هو ركوب الأهوال ومجابهة الصّعاب والإقدام على ركوب الملمات وعدم الخوف من نوازل الدهر ومصائبه.

[1] ديوان الصعاليك، إعداد وتقديم: يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت، ط01، (د/ت)، ص97.

[2] تصلي: لا تبادلي الحب ولا تصلي أمرك.

[3] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج18،ص134.

أمّا عروة بن الورد فيؤكد إقدامه للمعارك وكثرة خوضها الوقائع والأهوال مما شيّب ذلك رأسه وأتعب ذلك نفسيته بقوله[1] [الطويل]:

فما شابَ رأسِي من سنين تتابَعَتْ طـــوالٍ ولـــكن شيَّبتهُ الوقَائعُ

إن اشتعال رأس الشاعر شيبا لم يكن من السنين الطوال التي عاشها مرتاحا كالآخرين، ولكن بفعل الوقائع الجسام التي خاضها الشاعر وبكثرة إقدامه وإقباله عليها، فحياة "عروة بن الورد" لم تعرف السّكينة ولا الهدوء، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدل على شخصيته القوية وشجاعته الكبيرة التي جعلت منه فارسا قويا يجابه صروف الدهر ونوائبه.

ولأن الشجاعة والبطولة في العصر الجاهلي من الصفات التي يُمتدحون بها الرجل ويُثنى بها عليه فخرا واعتزازا في حياته، فإنهم كذلك يرثون شجعانهم وأبطالهم ممّن يشهد لهم بذلك تخليدا وتمجيدا لفعل البطولة والشجاعة عند أصحابها، فعند الصعاليك أيضا يكون الحال بل وأكثر في بعض الأحيان فكما رُوي في كتب الأدب أنه عند مقتل "الشنفرى" انبرى صديقه ورفيق دربه الشاعر "تأبط شرا" بقصيدة يرثيه فيها ويذكُر شجاعته وبطولته بقوله[2] [الطويل]:

على الشّنفرى سَاري الغمامُ فرائـحٌ عزيزُ الكُلى أو صيِّبُ المـاءِ باكـرُ[3]

عليكَ جـــداءٌ مثلَ يومِـك بالحيَا وقد رعفَـــتْ منِّي السُّيوفُ البواتِـــرُ[4]

ويومـــكَ يومُ العيكتَينِ وعطفَـــةٌ عطَفتَ وقد مسَّ القلوبَ الحناجِـــرُ[5]

[1] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص82.

[2] تأبط شرا: الديوان، ص27.

[3] الكُلى: أطراف الشيء وجوانبه.

[4] جداء: النفع والعطاء، الحيا: اسم لموضع معروف، رعفت: قطرت دما.

[5] العيكتان: اسم لموضع معروف، عطفة: أي هجمة وحملة.

تُجتلُّ سلاحَ الموت فيهم كأنَّهــم لشوكتِكَ الحـــدَّى ضئينٌ نوافِـــــرُ[1]

وطعنةِ خــلسٍ قد طعنتَ مرشّـــةٍ لها نفـــــذٌ تضِلُّ فيها المسَابـــــــرُ[2]

ففي هذه الأبيات يذكرنا "تأبط شرا" بشجاعة صديقة الفذة وثبات جنانه، حيث يجعله هذا مهابا من طرف أعدائه، وقوله "مسّ القلوب الحناجر" إشارة إلى أن قلوب الخصوم قد امتلأت خوفا ورعبًا منه فسيفه بتّار، وطعنته خادعة سريعة، وهجمته فذة قوية تهول القلوب وتفزعها ...الخ، وهذا كلّه من مظاهر شجاعة الشاعر(الشنفرى) وقوته وبطولته التي لا تُوصف.

ثالثا– العفة وعزة النفس:

في العصر الجاهلي كانت حياة الصعاليك تتخبط في بيئة قاحلة مجذبة قليلة الضرع، شحيحة النبع والنبت، حيث يجعل هذا الواقع الفرد أمام حتمية التنقل والبحث باستمرار عن الرزق وشروط الحياة التي تسهّل عليه العيش والتأقلم مع ظروف تلك البيئة، وهذا الظرف لا يخص حياة الصعاليك فقط بل ينطبق على جميع سكان القبائل في ذلك العصر، «فمن طول ما كان يحدث لهم من ذلك سموا الجذب سنة فيقولون: أصابتنا سنة قضت على الأخضر واليابس، من أجل ذلك كثرت عندهم الرحلة في طلب العيش والكلأ، فترحل القبيلة بإبلها وأغنامها إلى مراعٍ جديدة »[3]، وإذا كان سلاح القبيلةِ هو التنقُّلُ والبحث الدائمُ عن مناطقِ الخصبِ والوفرة فإن الصّعلوك قد استعاض عن هذا الحرمان والفقر بغنى النفس وإبائها وترفعها عن الذل ورفضها للضيم، لا يقبلُ مذلةً من أحد ولا ينحني أبدًا عزيز النفسِ يذهب حيث يشاء مفتخرا بعزة نفسه وكبريائه غير خاضع لأي سلطان مهما كان، يقول "الشنفرى"[4] معبرا عن اندفاعه بحثا عن هذا العالم [الطويل]:

وفي الأرضِ منأًى للكريمِ عَــنِ الأذَى وفيهَا لمن خَافَ القِلى مُتعـــزَّلُ

[1] الحدّى: القاطعة أو البتارة.

[2] المرشّة: المؤلمة، النفذ: مقدار اختراق الطعنة للجسد، المسابر: جمع مسبر، وهو ما يقاس به جرح العمق.

[3] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي –العصر الجاهلي–، ص21.

[4] الشنفرى: الديوان، ص58.

لعمركَ ما في الأرضِ ضيقٌ على امرئٍ سرى راغبًا أو راهبًا وهو يَعقِلُ

فالشاعر هنا كطائر حر يرى في الوجودِ فسحة الأملِ، يسرِحُ فيه ويلجأ إليه نُفورًا من الضّيم والأذى الذي قد يلحقُه من غيره ممن يُنتظَر منهم الإيذاء أو الظلم، وحكمة هذين البيتين أنّ الرجلَ الكريم النّفس يستطيعُ أن يتجنّبَ الذلَّ والهوان بهجرته وترفعه، وبالابتعاد عن محيطه الذي يسكنه إلى موضع آخر من بقاع الأرض فيه الكرامة والعزة محفوظتين.

وبالإضافة إلى هذا فإننا نجد من الصعاليك من يتميّز ببطولةٍ نفسيةٍ تتمثل في تعويد نفسه وتوليفها على العفة والترفع عن الكسب المهين الذي يحطّ من قدر صاحبه، خاصة وأن المجتمع الذي يعيش داخله هؤلاء الصعاليك قليل المطعم والمشرب، يؤثر فيه الغني مشربه ومأكله لنفسه، ويهين الفقير ويستعبده ليعطيه لقمته، فهذا ما يجعل صورة ترفّع هؤلاء الصعاليك في معيشتهم ومواقف اعتزازهم بكرامتهم وعفة نفسيتهم جلية وواضحة تجسد لنا شخصية ذلك العربي الذي يخاطر بحياته مقابل كرامته وشرفه كي لا يدنس، لأن المنية واحدة والأجل واحد.

وهذا المعنى الذي نتحدث عنه من كرامة وأنفة وعفة هؤلاء الشعراء الصعاليك نجده في قصيدة "المتلمس" في الحماسة بقوله[1] [الطويل]:

ألم تر أن الـــمرء رهنُ منيـةٍ صريعٌ لعافي الطَّيرِ أو سوفَ يُرمـــسُ[2]

فلا تقبَلن ضيمًا مخـافةَ ميتَـةٍ وموتنْ بها حرًّا وجلدُكَ أملَـــــــسُ[3]

فالإنسان مرهون بأجله، ولابد أن يدافع عن كرامته وعرضه من الدّنس والعار، الذي قد يشينه وأن لا يحمل ضيما مخافة الموت الذي هو محتّم ولابد آت، سواء في الحرب أو أن يموت الفرد موتة عادية أي حتف أنفه كما يسمونها.

[1] المتلمس الضّبعي: الديوان، ص113.

[2] عافي الطير: الطيور الطالبة للرزق، يُرمس: يُقبر.

[3] أملس: النقي العرض، وهي كناية عن كونه نقيا لم يصبه العار والدنس.

أمّا الشنفرى فيؤكد لنا بأنه لولا مخافة لحاق العار والذل به لحصل على كل ما يحتاجه ويريده من مأكل ومشرب دون أي عناء فيقول[1] [الطويل]:

ولولا اجتنابُ الذَّام لم يُلْفَ مشربٌ يُعاشُ به إلاَّ لديَّ ومأكَـــــــلُ[2]

ولـــكنَّ نفسًا حـــرّةً لا تُقيمُ بي على الذَّامِ إلاَّ ريثَما أتحـــــوَّلُ

فالشاعر هنا يؤكد لنا بأن نفسيته لا تقبَلُ الذل والهوان قط من أيٍّ كان، فهو أبي كريمٌ عفيفُ النفس عن التدلّل والتوسّل، لا تطاوعه نفسه قبول الضيم والعيش بخضوع تحت وطأة الآخرين، لهذا نراه في أول القصيدة –كما أشرنا سابقا– يقرّر الرحيل عن الديار ضاربًا في الأرض بعيدا عن قيود المجتمع الظالم، كما أن ورؤية الشاعر هذه إنما هي ثمرة من ثمار قوة الشخصية، وحب الحرية التي عشقها هؤلاء الصعاليك، وبحثوا عنها طويلا خارج مجتمعاتهم الأولى التي استعبدت شخصيتهم، وحاولت طمس معالم الرجولة وقوة الشخصية عندهم.

يقول عروة بن الورد[3] [الطويل]:

فَسِر في بلادِ اللَّه والتمسِ الغِنَى تَعشْ ذا يسارٍ أو تموتَ فتُعذَرَا

فسلاح الصّعلوك إذن إنما حماسه وشجاعته وعزة نفسه، وعزيمته الصادقة التي لا تخور أمام المصائب لهذا فهو دائما ما يدعو إلى الضرب في الأرض والبحث عن الرزق بدل البقاء في الديار دون سعي أو جهد، وانتظار من يتصدق ويجود عليه، لأنّ ذلك بالنسبة له ذل وعار، و لا يليق بكرامة الفارس وكبريائه، فرغبة عروة في الخروج هنا هي أن يقي نفسه وأهله ذل الحاجة وذل المقام الذي قد يلحقه وأهله، فشاعرنا عفيف النّفس لا يقبل أن يعيش عالة على الآخرين وتحت رحمتهم.

[1] الشنفرى: الديوان، ص63.

[2] الذّام، الدأم: العيب الذي يذم به.

[3] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص77.

أمّا الشاعر "أبو خراش" فنراه يحدّث حليلته "أم الأديبر" ويذكرها بخصاله الحميدة من عزة النفس وقوة الصبر عن الجوع بذل المذلة والخضوع، حيث يقول[1] [الطويل]:

وإنِّي لأثوي الجُـوعَ حتَّي يملَّنـي فيذهبُ لم يدنسْ ثيابي ولا جرمِـي[2]

وأغتبقُ المــاءَ القَارح فأنتهـــي إذا الـــزَّاد أمسى للمزلَّج ذا طُعـمِ[3]

أردُّ شجـــاعَ البطنِ قد تعلمينَـهُ وأوثِرُ غيري من عيالكِ بالطعـــمِ[4]

مخـــافةَ أن أحيا برغمٍ وذلَّـــةٍ وللموتِ خيرٌ من حياةٍ على رغْـــمِ[5]

فهذه الأبيات إنما جمعت فيها من مكارم الأخلاق ما يشير حقيقةً إلى شخصية هؤلاء الصعاليك القوية بعفتهم وترفعهم عن الخلال الدنيّة التي تطعنُ في كبريائهم وعزتهم، حيث نجد أبا خراش يفتخر بأنه عفيفُ المأكل والمشرب، صابرٌ عن الجوع والفقرِ، يؤثر غيره بالطعام وقت الحاجة، فهو يرى بأن الموت أفضل من الحياة على رغمٍ ومذلةٍ وهوان.

وهذا الشعور الزائد بالكبرياء وعزة النفس إنّما من الأسباب التي جعلت هؤلاء الشعراء يخرجون عن قبائلهم، ويختارون حياةً أخرى ونظاما مغايرا يسيرون عليه، بعيدا عن قيم ومبادئ القبيلة المزيفة والباطلة، فالشاعر هنا بالرغم من كونه فقيرا صعلوكًا إلاّ أنه يمتدح الكرم والإيثار ويدعو إلى الترفع عن المذلة والهوان، فكأني بالشاعر يوجه رسالة إلى القبيلة أجمع يحثهم فيها إلى التحلي بهذه القيم وينهاهم عن نظيراتها من الصفات الذميمة التي لا تعتبر من أخلاق الشاعر وخصاله، «وبهذا يكشف الشاعر

[1] أحمد الزين: ديوان الهذليين، ج01، ص128.127.

[2] أثوي: أي أطيلُ حبسهُ عندي حتى يملني، الجرم: الجسد.

[3] المزلّج: عيش مزّلج، إذا كان فيه بعض النّقص، وأيضا عند الرجال الذي ليس بالتام.

[4] شجاع البطن: شدة الجوع.

[5] رغم: رَغَمُ ورُغم، هوان ومذلة.

عن المفارقات التي دخلت في نسيج البناء الاجتماعي، من خلال رؤية واعية، يوجه من خلالها جماعته توجيها خاصا»[1].

ونجد الكثير من المعاني التي تشير إلى عفة هؤلاء الصعاليك وافتخارهم بكبريائهم وعنفوانهم أيضا وذلك من خلال دعواتهم المتواصلة نحو رفض الذّل والهوان، والاعتماد على مساعدات الناس ورحمتهم بالبقاء أمام فنائهم وأدبار بيوتهم، وهذا الشاعر "عروة بن الورد" نجده يدعو في كل مرة إلى العيش الكريم ورفض كل ما يذلُّ ويهينُ صاحبه بقوله[2] [الوافر]:

إذا آذاك مَـــالكُ فامتهنـهُ لجــادية وإن قرعَ المـــراحُ[3]

وإن أخنَى عليك، فلم تجده فنبتُ الأرضِ والماءُ القــراحُ

فرغمُ العيشِ إلْفُ فناء قــومٍ وإن آسوكَ والموتُ الــرَّواحُ[4]

فالشاعر في كل مرّة يدعو إلى فلسفته الواضحة بالاعتماد على النّفس ورفض الذل وكل ما من شأنه أن يذلَّ وينقصَ من كرامة المرء مهما كان، والإنسان الذي يعيشُ مرغما هو من يعتاد ويقصد فناء النّاس حتى وإن وجد عزاء وإعانة منهم، بينما العفيف الكريم الأنف يجد في الطبيعة –ولاشك– الملاذ الحقيقي والملجأ الطبيعي لنفسه الأبية، لأنه في الأخير تبقى هذه رؤية الشاعر وقناعته، فعزة النفس ورفض الذل كمبدأ وقيمة في الحياة يتجسّد فقط عند أصحاب النفوس القوية مثل "عروة" بالذات فهو يعتبر مثالا حيًا للفارس البطل، بسجاياه الرفيعة، وأخلاقه النبيلة، وشخصيته التواقة إلى الحرية دائما، «فمن دواعي السرور أننا لا نحتاج إلى جدل كي نثبت بأنّ كرامة الإنسان إنما تعود إلى امتلاكه للحرية ... فما قدر يمتلكه إنّما يكمن في قدرة الفرد على أن يختار لنفسه »[5]، وهذا الشاعر الذي

[1] عبد الجليل حفني: الشعر الجاهلي –قضايا، وفنون، ونصوص–، ص40.

[2] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أو بكر محمد، ص53.

[3] الجادية: طلب الجدوى، قَرَعَ: فرغَ.

[4] رغم العيش: العيش الذي تعيشه مرغما، الرواح: من راح القوم وإليهم، ذهبَ إليهم.

[5] رالف بارتون بري: إنسانية الإنسان، تر: سلمى الخضرا الجيوشي، مكتبة المعارف، بيروت، (د/ط)، (د/ت)، ص49.

نتحدث عنه هو دائم الدعوة إلى الخروج والبحث عن الحرية وعن الحياة الكريمة، مختارا لنفسه رؤية منفتحة على العالم والوجود الخارجي أجمع، فقوله في كل مرة "ذريني ونفسي" "دعيني أسعى" "أقلّي علي اللّوم" ...الخ، كل هذه الصّيغ التي استخدمها الشاعر تدلّ على قوة الشخصية، المحبة للحرية والرافضة للقيود الاجتماعية والمترفعة عن الذل والهوان أيضا.

الفصل الخامس

القيم الأخلاقية والخصائص الفنية في شعر الصعاليك

عناصر الفصل الخامس:

تمهيد:

أولا– الصبر على الصعاب

ثانيا– نصرة الرفيق

ثالثا– السعي من أجل الرزق

رابعا– الخصائص الفنية في شعر الصعاليك

1– شعر المقطوعات

2– الوحدة الموضوعية

3– غرابة الألفاظ

4– غياب المقدمة الطللية

5– القصصية أو أسلوب القص

6– الواقعية في شعرهم

تمهيد:

ارتأينا في هذا الفصل الأخير أن نحاول استجلاء بقية القيم الأخلاقية التي جاءت محملة بها أشعار هؤلاء الصعاليك، كالصبر على الصعابّ، و نصرة الرفيق، والسعي من أجل الرزق، هذه القيم الأخلاقية التي تعتبر من أهم الصفات الحميدة التي ميزت شخصية هؤلاء الصعاليك، كما أنها تعتبر من أهم الخلال التي يفتخر بها العربي في العصر الجاهلي.

حيث أن الصبر على مختلف الصعاب وقوة التحمل عند هؤلاء الصعاليك كانت ميزة تميزهم وسمة بارزة تزين سمعتهم، كما نجد أن نصرة الرفيق عند الصعاليك واجب لا يتوانى الواحد أمام تلبيته وشعرهم كله تصوير بارع لمواقف النصرة والإقدام على نجدة بعضهم البعض، هذا بالإضافة إلى سعيهم الدَّائم من أجل لقمة العيش، والحصول على الرزق في تلك الظروف القاحلة التي فرضتها البيئة الصحراوية في ذلك العصر.

كما ختمنا هذا الفصل بمبحث مهم أيضا، وهو عبارة عن استخراج بعض الخصائص الفنية التي طغت على شعر هؤلاء الصعاليك، وميزت مجموعتهم الشعرية ونظامهم الشعري الذي نراه يتميز ببعض الظواهر الفنية التي تجعله نصًّا متفردا بأتم معنى الكلمة، ونموذج خاص بأولئك الصعاليك متفرِّد تفرد حياتهم، وخارج عن مألوف القصيد في العصر الجاهلي كخروجهم عن نظام القبيلة وعرفها.

أولا– الصبر على الصعاب:

لاشك في أن صعاليك العصر الجاهلي يتميزون بالجلد وقوة التحمل والصّبر على الشدائد، لأن طبيعة حياتهم كما صورتها الكتب الأدبية ونقلتها لنا هي نموذج ومثالٌ للصبر الشَّديد، وللامتحان الرهيب الذي لا يقدر على خوضه إلى الصعاليك أنفسهم، لهذا «فإننا حين نستعرض حياة الصعاليك من أخبارهم ومن تصوير شعرهم نجد أن حياتهم كلها كانت تقوم على الصّبر الشديد الذي لا يقوى عليه غيرهم، ولا تُطيقه نفوس غير نفوس الصّعاليك»[1].

وقد تعدّدت صور وحالات صبرهم وقوة تحكمهم في التّغلب على الشّدائد والمواقف الصّعبة فمنهم من يقوى على تحمل الجوع، ومنهم من ينقل لنا قوة تحمله للعطش، ومنهم من يقوى على تحمل الهموم والمصائب النازلة، وغيرها من المواقف التي تستدعي وتستوجب القوة والجلد و قوة التحمل كتلك التي يتمتع بها أولئك الصعاليك.

والصّبر عند هؤلاء الشعراء إنّما سلاحهم الملائم نحو الفرج واليسر، لهذا تميزوا بكثرة الصبر، تشبَّتوا به في الملمات والصعاب، وحثّوا عليه أيضا في بعض من شعرهم، وفي هذا المعنى نستحضر قول شاعر جاهلي يحث على الصّبر وعدم الجزع.

يقول "أميّة بن أبي الصّلت"[2] [الخفيف]:

يا قليلَ العزاءِ في الأهْـوالِ وكثيـر الهمومِ والأوجـــالِ[3]

صبِّر النَّفسَ عندَ كل ملـــمٍّ إنَّ في الصَّبر حيلَة المحتالِ

لا تضقْ بالأمورِ قد تكـــــ شف غَمَاؤها بغـير احتيـــالِ

[1] عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص262.

[2] أميه بن أبي الصّلت: الديوان، تح: بهجة عبد الغفور الحديثي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ط01، 2009م، ص342.343.

[3] الأوجال: جمع وجل وهو الفزع والخوف.

ربّما تجزعُ النُّفوس من الأمـ رِ له فرجةٌ كحلِّ العقَـــالِ

فالشاعر هنا يعلم يقينا أن الفرج يأتي بعد الشدة –كيف لا وهو من حكماء العرب في ذاك العصر– لهذا يدعو لعدم الجزع والتحلي بالصبر الذي يراه أفضل سلاح يمكن أن يتسلح به الفرد، وقت الضائقة وحين الشدة والعسر أيضا.

أما بالنسبة للشعراء الصعاليك فكثيرا ما افتخروا بقوة صبرهم على المحن والشدائد ومختلف الصعاب التي واجهتهم، فهذا "الشنفرى الأزدي" يقول[1] [الطويل]:

فإنِّي لمولى الصَّـبر أجتابُ بــزَّه على مثلِ قلبِ السَّمعِ والحزْمِ أفعــلُ[2]

فلا جـزعٌ من خلَّة متكشِّـــفٌ ولا مــرِحٌ تحتَ الغـــنَى أتخيّـَلُ

فالشنفرى هنا نجده يفتخر بلبسه لباس الصّبر عند الشدائد ومختلف المصائب التي تنزل عليه، فهو بقوة قلبه التي يتمتع بها وحزمه مع ضبط نفسه يسيطر على الوضع ويحتويه دون جزع أو شكوى، ولا لا يفعل غير ذلك، حيث يصبر في كل الأحوال التي يكون عليها، لا يتأثر ولا يكشف للآخرين عن خلّته وضعفه، كما أن الغنى لا يجعله يختال ويتظاهر بمرحه وخيلائه.

وحياة الصعاليك المليئة بالأخطار والمغامرات الدائمة تقودهم إلى تحمل مشاق هذا الأسلوب من الحياة بكل معطياته المفروضة، من طول عطش وجوع دائم يطوي البطون، ففي لامية "الشنفرى" نقل لنا الشاعر فيها صورة حية من صور الصّراع مع الجوع وقوة الصبر والتحمل بقوله[3] [الطويل]:

أديمُ مطالَ الجـــوعِ حتّى أميتُـــه وأضربُ عنه الذِّكرَ صفحا فأذهــلُ

[1] الشنفرى: الديوان، ص68.

[2] البزّ: الثياب، السّمع: ولد الذئب من الضبع.

[3] المصدر نفسه، ص62.63.

وأطوِي على الخمصِ الحوايَا كما انطوت خيوطـةُ مـــــاريٍّ تُغارُ وتُفتـــــلُ[1]

وأغـــدو على القوتِ الزهيدِ كما غـَدى أزلُّ تهاداهُ التَّنـــــائفُ أطحـــــلُ[2]

ففي هذه الأبيات نرى أن الشاعر من قوة صبره وتحمله يداوم على الجوع متحملا ألمه حتى يذهب عنه ذلك الجوع ويتناساه، فيغدو خميصًا كما يغدو الذئب القليل اللحم والمتعود على مشاقِّ الجوع وألمه، وهذه إنما هي صورة حية تشخِّص لنا حياة هؤلاء الصّعاليك الصعبة حيث يتجاوزون ألم العطش والجوع بقوة صبرهم، لأن طبيعة الحياة وأسلوبها يفرض عليهم فرضا مثل هذا التحمل والجلد الذي لا مفر منه، هذا ما يجعل هؤلاء الصعاليك يشبهون أنفسهم بالذئاب في قوة صبرهم وتحملهم ثم نرى الشاعر يردف قوله ببيت شعري يحمل حكمة بالغة في الصّبر، إذا هو أحسن وأفضل من الشكوى إذا كانت غير نافعة ولا تعود بالفائدة على المبتلى، حيث يقول[3] في ذلك [الطويل]:

شكَا وشكَتْ ثم ارعَوى و ارعَوتْ وللصَّبر إنْ لم ينفَعِ الشُّكو أجمَـــلُ[4]

فالصّبر حسب قول الشاعر أفضل الحلول التي يقصدها الفرد ويتسلح بها خاصة إذا كانت الشّكوى غير نافعة ولا تعود على صاحبها باليسر والفرج القريب، فهو دِرعٌ يُتَّخَذ لزوال الحرج والضعف كما أنه جِسرٌ نحو الفوزِ والظفر كما قال علي بن أبي طالب[5]في هذا الشأن [البسيط]:

اصبِر علـى تعبِ الإدلاجِ والسَّهــــرِ وبالرّواحِ علـى الحَاجاتِ والبُكـــرِ[6]

إنّي وجدتُ وفي الأيامِ تجـــــــربَةٌ للصّبرِ عاقبةٌ محمودةَ الأثَـــــــرِ

وقُل مــن جدَّ في أمـــــــرٍ يطالبُـه واستصحبَ الصّبرَ إلاَّ فازَ بالظَّفَـــرِ

---

[1] الخيوط، خيوط ماري: فاتل، وقيل اسم رجل اشتهر بصناعة الحبال وفتلها.

[2] أزل: صفة للذئب قليل اللحم، تهاداه: تناقله وتداوله، التنائف: جمع تنوفة وهي المفازة في الصحراء، الأطحل: الذي في لونه كدرة.

[3] المصدر السابق، ص65.

[4] ارعوى: كفّ ورجعَ.

[5] علي بن أبي طالب: الديوان، اعتنى به: عبد الرحمـن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط03، 2005م، ص71.

[6] الإدلاج: المسير ليلاً

فالإنسان الصّابر المتحمل لصروف الدهر ومتاعبه الصعبة، سيأتي عليه ذلك اليوم الذي سيجني فيه لا محالة الفوز والظفر وتنفرج عليه تلك الضائقة.

وشعر الصّعاليك ثري وحافل بمثل هذه الصور التي تجسدّ لنا حالهم وأوضاعهم المزرية التي لا تكاد تنتهي أبدا، فكثيرا ما كانت تحرّ عليهم معاناة كبيرة تجعلهم يخوضون الكثير من المعارك والمهالك الصعبة التي من نتاجها فقدان الأهل والأصحاب، ولا سبيل لذلك غير الصّبر وعدم الجزع وحسن تقبل تلك النوازل، فهذا "أبو خراش" يقول[1] [الطويل]:

فقدْتُ بنيْ لبنَى فلمَّا فقدتُهم صبَرتُ ولم أقطعْ عليهمْ أبَاجِلي[2]

فأبو خراش هنا يتحدث عن فقدانه لإخوته أو أصحابه الذين قد يكنّي عنهم بإخوته أيضا حيث تحلّى بالصّبر ولم يجزع كالآخرين عند فقد الأحبة من ذويهم، فهو كما يقول لم يقطع عروقه كما يفعل بعض الناس بجزعهم لهول تلك الملمات النازلة عليهم، ونحن هنا لا ننكر أن صبر الإنسان حين يفقد صاحبا أو أخا من أقوى وأصعب الاختبارات التي قد تواجه الواحد من البشر.

أما "عروة بن الورد" مثال الزعيم الذي يؤثر غيره على نفسه فإنّه من أكثر الشعراء الصعاليك صبرا وتحملا للمصائب وصروف الدهر المفاجئة، لأنه ببساطه كان بمثابة الأب الرحيم عليهم، فقد كان يصبر عليهم أشد الصّبر، ويحسن معاملتهم خاصة وقت الحاجة ووقت الضيق حين لا يوجد من يعيلهم ويهتم بحالهم ، إذا يقول[3] [الطويل]:

صبورًا على رزأ الموالي، وحافظًا لعرضِي حتَّى يُؤكلَ النَّبت أخضَرَا[4]

[1] ديوان الهذليين، ج01، ص123.

[2] أباجلي: الأبجل: عرق في الرجل، وأراد عروقي.

[3] ابن السّكيت: شرح ديوان عروة بن الورد: ص61.

[4] رزأ: أي منالهم مني.

فالشاعر صابر على هؤلاء الموالي وما يناله منهم، ففي السنة المجذبة يبقى هذا الشاعر يضيف ويُقرى حتى تُقبل سنة أخرى تخضرُّ الأرض وتجود على أصحابها، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدل على صبر عروة الطويل، وسعة باله التي يحتوي كل ضائقة تحل به مهما كان حجمها فهو ليس ممن يشتكي من تقلبات الدّهر وساعات القهر التي تأتي، يقول[1] [الطويل]:

فلا أنا مما جرَّت الحربُ مشتكٍ ولا أنا ممَّا أحدثَ الدَّهرُ جازعُ

ومن الخصال التي يمتدحون بها أنفسهم هؤلاء الصعاليك قوتهم النفسية المتمثلة في الصّبر وعدم الشكوى من نتائج الحروب وتقلبات الدّهر المتتالية، والتي تفرز خسائر ونتائج تقسو على ظهر الضعفاء، أما هؤلاء الصعاليك فإن الشكوى والجزع ليس من خصالهم أبدا لأنها تشين وتسيء إلى ذواتهم القوية التي اتصفوا بها، فالمعروف عن هؤلاء الذؤبان أنّهم يملكون جميع سبل النجاة من المحن المهلكة، «فأيّا كانت هذه الطرق فمصدرها بالطبع قوة الإرادة والصّبر الشديد»[2].

يقول تأبط شرا[3] [الطويل]:

قليلُ التَّشكِّي للمهــم يصيبُه كثيرُ الهوى شتَّى النَّوى والمسَالكِ

والمعنى هنا أنّ الشاعر قد كان صبورًا على جميع المصائب و مختلف الأهوال التي نزلت عليه أو بساحته –إن صح التعبير–، فهو لا يكثِرُ الشّكوى بل يعتمد على قوته وإرادته وشجاعته في تخطي مختلف الأحوال الصعبة والاستمرار في جوب كل مسلك وعر يصادفه في طريقه لجوب الفيافي المقفرة.

ومن الأبيات التي تعتَبرُ تحفة ومثالا حيًّا عن سلاح الصبر عند هؤلاء الصعاليك بيتٌ يتضمن حكمة قيّمة عن الصّبر، لهذا نستحضر ما قاله تأبط شرا في رثاء صديقه الشنفرى لما قُتِلَ هذا الأخير حيث

[1] المصدر السابق، ص179.

[2] عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص192.

[3] تأبط شرا: الديوان، ص44.

يقول "تأبط شرا"[1] [الطويل]:

وأجملُ موتِ المرءِ إذا كان ميّتًا ولابدّ يومًا موته وهـــو صابرُ

فالشاعر هنا يقدّم لنا حكمة غالية مفادها أن الموت حقٌّ ولابد حاضر لا محالة، ولكن أحسن ما ينتهي به المرء أجله وهو في حالة صابرة بدون جزع أو خوف.

ثانيا– نصرة الرّفيق:

يظهر لنا من خلال طبيعة الحياة المتشردة والغير مستقرة التي عاشها الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي أنهم متضامنون فيما بينهم أشد التضامن، حيث لنجدهم يقومون إلى تحقيق غاياتهم دفعة واحدة مستعينين ببعضهم البعض، ينصُر كل واحد أخاه ويعينه وقت الحاجة، لهذا نجدهم يقتسمون الغنيمة فيما بينهم كما لو أنهم عائلة واحدة يسهرون على نصرة المجموعة في الشدائد والمحن، كيف لا والواحد منهم لا يملك سوي رفيقة وصاحب دربه كي يقوي ساعده وينمي عزيمته في تلك الصحاري والبراري الموحشة.

ونجد تضامن هؤلاء الفتيان فيما بينهم في تعاونهم الدائم في حل أمورهم وأشغالهم بتوزيع الأدوار والمهام على أفراد المجموعة كل بمهمته التي يكلّف بها، وقد كانوا حتى في أمور النفقة يكلفون فردا من المجموعة يسيّر أمور النفقة والغنيمة لتكون بذلك القسمة عادلة ومرضية للجميع، فها هو "الشنفرى" نجده يذكر لنا كيف كانوا يقتسمون القوت وقت الضيق والشّدة وقلة الطّعام بقوله[2][الطويل]:

وأمّ عيالٍ، قد شهدتُ تقوتُهـــــم إذا أطعـــــمتهُم أوتحــتْ وأقلَّتِ[3]

[1] المصدر السابق: ص28.

[2] الشنفرى: الديوان، ص35.

[3] أوتحت: أقلّت، أي عطاء قليلا، أم عيال وهو تأبط شرا.

تخافُ علينَا العيلَ إن هي أكثَـرت ونحـــــنُ جيـــــاعٌ أيَّ آل تألَّتِ[1]

فالشاعر هنا يذكر لنا كيف أن "تأبط شر" وهو المكنى هنا بـ"أم عيال" قد أوكلت له مهمة توزيع الطعام على رفاقه، حيث وصف الشاعر الوضع بأن صديقه كان يقتِّر عليهم الطعام مخافة أن تطول بهم الرحلة أو الغزوة فينفذ منهم الزاد فيشق عليهم الاستمرار دون طعام، وهذا التصرف إنما من خوف الشاعر على رفاقه وقلقه عليهم إن بقوا دون زاد وطعام يعينهم في خرجتهم ورحلتهم الطويلة.

أمّا الشاعر "عروة بن الورد" المكنّى بأبي الصعاليك فإنه يجعل رفاقه عياله الذي ينتمي إليهم ولا يتخلى عنهم أبدا مهما طال الحال وشقّ، فهو متشبِّث برفاقه وأصحابه في الشدّة والرخاء، ولا يمكن أن يتخيل نفسه بعيدا عنهم غير مساند لهم وغير ناصر لهم، فهو يشبه لنا علاقته بهم بتعلّق الظمآن بشربة الماء حيث يقول[2] [الطويل]:

فلا أترُكُ الإخوانَ ما عشْتُ للرَّدى كما أنَّه لا يتركُ المـــــاءَ شاربُه

فعروة في هذا البيت نراه يقوِّي الرابطة التي تربطه برفاقه ويقرُّ بأنهم إخوانه، لا يدعوهم برفاقه أو أصدقائه وإنما إخوانه مما يجعل بذلك أمر نصرتهم ومساعدتهم من حقوقهم عليه، فكما روي في الأغاني «كان عروة بن الورد إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا في دارهم المريض الكبير والضعيف وكان عروة بن الورد يجمع أشباه هؤلاء من دون النّاس من عشيرته في الشدّة ثم يحفر لهم الأسراب ويكنف عليهم الكنف ويكسهم ومن قوي منهم إما مريضًا يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته خرج به معه فأغار وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيبا حتى إذا أخصب النّاس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهل وقسم له نصيبه من غنيمة حتى إذا كانوا أغنموها فربما أتى الإنسان منهم أهله

[1] العيل: الفقر، أيّ آل تألت: أي سياسة ساست، وفي رواية (أي أولٍ مكان آلٍ).
[2] ابن السكيت: شرح ديوان عروة بن الورد، ص153.

وقد استغنى فلذلك سُمي عروة الصّعاليك »[1]، فهذا هو حل عروة بن الورد مع الناس كلّهم فكيف يكون مع رفاقه الذين يغزون معه ويدعوهم بعياله.

ونجده مرة يصوّر لنا حاله مع "أصحاب الكنيف" الذين أساءوا إليه بعدما قام بحالهم وتصدق عليهم مما غنم إذ يقول[2] [الطويل]:

فإنِّي وإيَّاكم كذِي الأم أرهنَت له ماء عينيهَا، تُفدِّي وتحمِلُ[3]

فالشاعر هنا يشبه لنا قيامه بأمر رفاقه ونصرتهم بما تقدمه الأم لولدها، حيث تعطيه كل ما يحتاجه ويدعمه وقت ضعفه وحاجته أو عند جوعه و مرضه، وإنها ولاشك صورة جميلة وقوية في نفس الوقت تؤكد لنا يقينا بأن عروة يساند رفاقه وينصرهم دائما، والأمر ليس غريبًا ما كان يتعلق دائما بعروة بن الورد أو عروة الصعاليك كما يُلقب، لأن شخص هذا الشاعر معروف بإنسانيته اللامحدودة ولا معنى للفرد دون جماعة حتى ولو كان غنيا حسب مبادئ الشاعر الثابتة.

أمّا بالنسبة للشاعر "تأبّط شرًا" في حواره مع زوجته عندما خرج مع صديق له غازيا فنجده يردّ عليها قائلا[4] [الطويل]:

ألا تلْكُمَا عرسِي منيـــعَة ضمِّنتْ مـــن اللَّه إثمًا مستسـرًا وعالنَـــا[5]

تقولُ تركتُ صاحبًا لك ضائعًـــا وجئْتَ إلينَا فارقًـــا متباطِنَـــــا[6]

إذا مـــا تركتُ صاحِـــبي لثلاثـةٍ أو اثنينِ مثلينَا فـــلا أُبتُ آمنَـــا[7]

[1] الأصفهاني: ج02،ص186.

[2] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص92.

[3] أرهنت له ماء عينيها: أي أدامته.

[4] تأبط شرا: الديوان، ص72.

[5] ضُمّنت: حمّلت.

[6] الفارق: الذي يفرق بين الحق والباطل، متباطنا: متباعدا.

[7] أُبتُ: أي رجعتُ

وما كنتُ أبّاءً على الخـــلِّ إذ دعَا ولا المـرءِ يدعـــوني ممرًّا مداهِنَا[1]

فالشّاعر يردّ على زوجته التي ظنّت بأن زجها قد ترك صديقه وحده يقتل ولم ينصره أو يدافع معه لهذا فقد استعظم هذا الأمر ولم يتقبله ليردّ عليها بقوة يخبرها بأنّه ليس خوّانًا ولا خائفًا ولا ممن لا ينصرون الأصحاب، وإنما هو من الأوفياء الذين يحبون نصرة الأصدقاء والرفاق، لذا يؤكد لها شجاعته ووفاءه وأنّه بقي يدافع عن صديقه حتى نفذت منه النّبال وقُتِل صديقه الذي كان معه فلم يستطع أن يفعل له شيء حينها.

ونجد أيضا الشاعر "أو كبير الهذلي"[2] وهو صعلوك من الصعاليك صديق لتأبط شرا خرج مع هذا الأخير مرة فأراد أن يختبر شجاعته ونصرته لصديقِه، حتى وصل لما وصل من وفاء صديقه وحرصه الشَّديد على الدفاع عنه ونصرته وقت الضيق إذ يقول[3] [الكامل]:

يحمي الصِّعابَ إذا تكون عظيمةً وإذا هـــم نزلوا فمأوَى العيَّـــــلِ

فالرابطة التي تنشأ بين هؤلاء الصّعاليك هي رابطة قوية ومتماسكة، حيث يلتزم الواحد فيهم بنجدة ومساعدة أخاه وقت الحاجة، لهذا نجد الشاعر "أو كبير الهذلي" قد استكبر الأمر واستعظمه بعد اتهام زوجته له بترك صديقه دون نصرة، فالنصرة تكون دون دعوة ولا استعطاف، والصديق الحق من ينصر صديقه قبل نفسه ويضحي بها لأجل نصرته وفي سبيله لأنه وإن لحق الواحد منهم سوءا فإننا نجد الجماعة كلها تتضرر وتحس بالخطر، ففي هذا السياق يقول "أبو خراش"[4] بعدما نهشته الأفعى حين أقبل على مساعدة رفاقه [الوافر]:

لعمـــركَ والمنايا غالبـــاتٌ على الإنسانِ تطلعُ كلَّ نجـــــدِ

[1] أبّاء: أي شديد الإباء، مداهنا: أي غشّاشا مخادعا.

[2] واسمه عامر بن الحُليس، أحد بني سعد بني هُديل ثم أحد بني جريب، (للتوسع ينظر ديوان الهذليين).

[3] ديوان الهذليين، ج02، ص94.

[4] الأصفهاني: الأغاني، ج21، ص47.

لقد أهلـــكتْ حيةٌ بطنَ أنف على الأصحابِ ساقًا ذات فقـــدِ

فالشاعر وهو يعاني مصارعا نهشة الأفعى لساقه يذكر فضل ساقه التي كانت دائما في خدمته وخدمة أصحابه، حيث يفتقدونها ولاشك في غزواتهم وغاراتهم، فهذا الموقف –لاشك– يؤكد لنا تعاون وتضامن هؤلاء الصعاليك وتشابك خليتهم، وقيامهم بنصرة بعضهم والدفاع الدائم عن هذا التّلاحم الموجود بينهم، لأنهم في الأخير يشكلون عائلة واحدة مادام المجتمع الأصلي لهم لم يعد في حاجة إليهم.

ثالثا– السّعي من أجل الرزق:

لقد أجمع الدارسون وكتبهم الأدبية على أن الصّعلوك في العصر الجاهلي هو شخص دائم البحث عن الرزق وعن قوته والسعي من أجله، لأن هؤلاء الصعاليك لا يملكون من يعيلهم أو يلتفت لشأنهم فهم بعد إعلانهم القطيعة عن مجتمعاتهم، حيث لم يبق لهم سوى الاعتماد على سواعدهم وأقدامهم لمطاردة اللقمة أينما كانت، وبحكمنا هذا لسنا نعمم الحكم على جل الصّعاليك أو ننزلهم منزلة واحدة في سعيهم الدؤوب لكسب الرزق، بل كان فيهم من شذّ عن الجماعة وبقائه الدائم خلف أدبار البيوت متكلاً على غيره في تحصيل رزقه كما أشار عروة بن الورد في قوله[1] [الطويل]:

لحـى اللّهُ صعلوكًا إذا جنَّ ليلُه مصافِي المشاشِ آلفًا كلَّ مجـــزرِ[2]

يعُدُّ الغِنَى من دهـــرِهِ كلَّ ليلةٍ أصابَ قِراها من صديقٍ ميسَّـــــرِ

ينامُ عِشاءً ثمَّ يُصبـــحُ ناعسًـا يحتُّ الحصى عن جنبِه المتعفِّـــرِ

قليلُ التماسِ الـــزَّادِ إلاّ لنفسِـه إذا هو أمسى كالعريشِ المجـــوَّرِ[3]

[1] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص68.

[2] مصافي المشاش: مختار، مؤثر للأكل، والمشاش هو رأس العظم اللّين.

[3] العريش المجوّر: الخيمة السّاقطة.

يُعينُ نساءَ الحيِّ، مـــا يستعنَّهُ ويمسِي طليحًا، كالبعيرِ المحسَّـــرِ[1]

فالشاعر هنا يذكر لنا حالة ذلك الصّعلوك الذي يقعد عن الكَسبِ والغاراتِ، بحيثُ يقنع بغنى بطنه فقط ولا يبالي بما حوله بعدها، حيث شبَّهه لنا بالبعير الضعيف الذي يمسي طليحًا من شدة الإعياء وهذه الصورة هي من أقبح الصور التي يكون عليها الصعلوك، فحياته كلها خمول وكسل عن طلب الرزق، ويُعتبر الصعلوك حينها ضعيفا أمام هذا الواقع ومجابهة مشاقه.

أمّا بالنسبة للحكم العام وليس الشاذ فإن الصعاليك قد تميزوا فعلاً بسعيهم الدائم للكسب والتمول ومجابهة الصّعاب، حيث فرضت عليهم الظروف ذلك وألزمتهم النشاط والحركة في تلك البيئة الصحراوية الشّحيحة ما جعل الفقر طابعًا مميزا لحياتهم، «فالواقع أن الفقر ليس جديدا ولا غريبًا على البيئة في الجزيرة العربية»[2]، ما يجعل أبواب الرزق حينها بعيدة تحتاج إلى سعي دائم وبحث دائم وسهر كذلك لطرقها وبلوغها.

يقول "عمر بن براقة"[3] في هذا السّياق [الطويل]:

ألم تعلميْ أنَّ الصَّعاليك نومهم قليلٌ إذا نامَ الخليُّ المسَالـــمُ

إذا اللَّيلُ أدجـى واكفَهرَّ ظلامُهُ وصاحَ من الإفـراطِ بومٌ جواثـمُ

ومـالَ بأصحابِ الكرى غلباتُهُ فإنّي على أمـرِ الغوايةِ حـــازمُ

نجد الشاعر "عمر بن براقة" هنا يخاطب زوجته الخائفة عليه من الخروج المتكرر ليلا وسعيه الدائم وخروجه للكسب والمغامرات في سبيل ذلك، لهذا فهو يجيبها بأنّ الصّعاليك يسهرون الليل طمعا في تحقيق مآربهم المادية وكسبهم لحوائجهم، فهم بذلك ليسوا كباقي الناس ينعمون بالراحة والنوم الذي

[1] طليحًا: أي اعيا وحسر من العمل، محسّر: ضعيف.

[2] عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص55.

[3] الأصفهاني: الأغاني، ج21، ص113.114.

ينعم به المسالمون، كما أن صورة الصّعلكة وحياة الكسب عند الصعاليك لا تشابه تلك التي ينعم بها أقرانهم بل تعتمد على سهر الليل والخروج المتكرر والمخاطرة الدائمة.

وها هو "عروة بن الورد" يقدم لنا حاله وهو في صراعه مع زوجته التي تكثِرُ عليه من إلحاحها ومنعه من الغزو والخروج، لأن هذا الشاعر(عروة بن الورد)كان كثير الخروج والبحث عن الرزق والمخاطرة الدائمة في سبيل ذلك، حيث يقول[1] [الطويل]:

ذريني أطوِّفُ فـــي البلاد لعلَّني أخليكِ أو أغنيكِ عن سوءِ محضَرِ[2]

ومن خلال الفعل "ذريني" الذي استخدمه الشاعر يتبين لنا أن الشاعر يعاني ألما حقيقًا من طرف عاذلته التي تلح في منعه في كل مرة، كما نفهم أيضا بأن عروة كثير الخروج والسعي في طلب الرزق لأن شاعرنا يقوم بتقديم يد العون للضعفاء والفقراء دائما، ويمكنه أيضا حينها من تحقيق حاجته وحاجة عائلته بكفهم عن الجلوس خلف أدبار البيوت، فيقول[3] [الطويل]:

فإن فازَ سهـــمٌ للمنيةِ لم أكـــن جـــــزوعًا، وهل عن ذاك متأخّرِ؟

وإن فـــاز سهمي كفَّكُم عن مقاعدٍ لكـم خلَف أدبار البيوتِ، ومنظرِ

فعروة نراه غير مبالٍ بما يصادفه عند خروجه، بحيث لا مانع يمنعه من تأخير خروجه وسعيه لتحقيق آماله ومبادئه، فحتى قضية الموت بالنسبة لعروة هي مسألة أجل محدد ومصير محتوم فلا شيء يجعله يجزع من خطر الأهوال التي قد تصادفه، كما أن هدف الشاعر وغايته من السّعي أن يتمكن من تحقيق حاجته وحاجة عائلته، التي هي مسؤولية بالنسبة إليه تجعله بعيدًا من أن يعيش عالة على الآخرين أي خلف أدبار البيوت على حد تعبيره.

[1] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص67.

[2] سوء محضر: ويعني المسألة.

[3] المصدر نفسه، ص67.

وينطلق الشاعر من مبدأ قوي يجعله دائم الدعوة إلى الكسب والتمول ألا وهو الإحساس بالفقر حيث نجد أن الشعراء الصّعاليك يلازمهم شعور حاد بالفقر يختلف عن الفقر في حد ذاته فالاختلاف الواضح بين الفقير والغني داخل تلك المجتمعات القبيلة هو من يصنع ذلك الفارق النفسي، «فالفرق كبير بين الفقر والإحساس به من ما يترتب عليهما من آثارٍ في حياة صاحبيهما وليس الفرقُ في الفقر وحده وإنما في كل المعاني التي يمكنُ أن يترتب عليهما آثار اجتماعية، فالثورات على الظلم مثلا ليس مصدرها الظلم نفسه وإنما مصدرها الإحساس بالظلم»[1]، لهذا نجد بأن الشاعر عروة بن الورد شديد الحرص على الدعوة إلى التمول والمخاطرة في سبيل الكسب والتزود مادام شعار القبيلة هو "الغني يزداد غنى ولفقير يزداد فقرا".

يقول أيضا[2] [الطويل]:

إذا المـرءُ لم يطلبْ معاشً لنفسِـه شكَا الفقرَ أو لامَ الصَّديقَ فأكثرَا

وصار علـى الأدنينَ كلاًّ وأوشكتْ صـلاةُ ذوي القربى له أن تنكَّـرَا[3]

وما طالبُ الحاجاتِ من كلِّ وجهةٍ من الناسِ إلاَّ من أجدَّ وشمَّـــــرَا

فسِر في بلادِ اللَّه والتمسِ الغِـنى تعشْ ذا يسارٍ أو تمـــوتَ فتعذرَا

إن دعوة الشاعر هنا هي الخروج والسّعي في طلب الرّزق والمخاطرة في سبيل ذلك، وعدم القعود والتقاعس لأن هذا يؤدي بالواحد إلى لوم الصّديق والإكثار من عتابه، كما أن الشاعر هنا في هذه الأبيات لديه الدّافع القوي للخروج والمخاطرة والسعي الدائم، حيث وجب عليه أن يقي عائلته حاجة الفقر والجوع.

[1] عبد الحليم حفني: شعر الصّعاليك منهجه وخصائصه، ص56.

[2] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص77.

[3] الأدنين: الأقارب.

كما أنه في هذه الأبيات بالذات تجسيد واضح لفلسفة عروة في الحياة والتي تنصُّ على الضّرب في أرض الله وعدم المكوث دون سعي، فشكوى الفقر والاعتماد على الأقارب هي وجهة ستنقلب يوما على صاحبها وتفضحه وتتنكر له أيضا.

أمّا الشنفرى فهو الآخر كان كثير الضّرب والسّعي والمثابرة، يطوف في البلاد ويتنقل بين غياهبها داعيًا الآخرين للخروج أيضا، فالأرض تتسع للجميع سواء كان ذلك في تحقيق حاجات ومآرب أو هروب من سنان ومخالب، يقول[1] [الطويل]:

لعمركَ ما بالأرضِ ضيقٌ على امرئٍ سَرى راغبًا أو راهبًا وهــو يعقِــلُ

فهذا ما يجعل دعوة الصّعاليك الدائمة إلى الخروج والسعي في طلب الرزق لم تكن مجرد رؤية نظروا من خلالها وإنما هي مبدأ راسخ وعقلية تشبعوا بها فانعكست على واقعهم وأفعالهم اليومية، لهذا فهم ينفون عن أنفسهم نفيا تامًا مختلف الصفات التي تحيل على الخمول والكسل والبقاء عن السعي مع العيال، ففي يقول الشنفرى[2][الطويل]:

ولا خالفٍ داريَّةٍ متغــزِّلُ يروحُ ويغدو داهنًا يتكــحَّلُ[3]

فالشاعر في هذا البيت يشير إلى تلك الفئة من الرجال الذين يمكثون في بيوتهم مع النساء متزينين لهن بالتكحُّل وغيره، غير مكترثين لأعمال الرجال الحقيقيين والتي تتطلب منهم الخروج والكسب والإغارة وغيرها من أعمال الرجال، وذلك إنما إشارة من الشاعر إلى شخصيته التي تفيض من الرجولة بما كان والتي تختلف عن هذا الصنف من الكسالى والخاملين عن العمل فلا يصلحون بعدها لشيء، ومن

[1] الشنفرى: الديوان، ص59.

[2] المصدر نفسه، ص61.

[3] الخالف: الذي لا خير فيه، داريّة: الداريّ والدارية: الذي يقيم في منزله فلا يبرحه.

ذلك قول "تأبط شرا"[1] مفتخرا بكثرة ترحاله وسفره، وبحثه الدائم عن لقمة العيش وراحة النفس ضاربا في غياهب الأرض بعيدا عن مجتمعه وقومه [البسيط]:

إنّي زعيمٌ لئن لم تتركـــوا عذلي أن يسألَ الحيّ عني أهلَ آفاقِ[2]

أن يسألَ القومُ عنّي أهل معرفَـةٍ فلا يخبِّرهم عـــــن ثابتٍ لاقِ

فتأبط شرا دائم الخروج والبحث لتسديد عوزه وحاجته لأنه لديه مسؤولية السّعي في سبيل عائلته وأصحابه ومن يقوم بأمرهم وشؤونهم، فقوله "أهل آفاق" تدلّ على كثرة سعيه وسفره الدائم بغية كسب الرزق وتحقيق مآربه، كما نجد هذا المعنى يتكرر معنا في قول "عروة بن الورد"[3] [الطويل]:

أقيموا بني لبنَى صدورَ ركَابكُم فإنّ منايا النَّفسِ خيرٌ من الهزلِ

فعروة بن الورد صاحب دعوة صريحة لقومه للاستعداد والخروج نحو الكسب والتزود وتحقيق الأهداف المرجوة وعدم البقاء دون سعي وكدّ، لأنه حسب رؤية الشاعر فإن طرق الموت وأنواعه التي قد تلحق الإنسان وتصادفه أفضل من فقر الرجل وهزله.

وفي حياة عروة ودعوته الدائمة إلى التطواف والسعي نلمس في كل مرة وبوضوح سعيه الدائم وحرصه الشديد على مواجهة عاذلته التي تلومه في كثرة خروجه المتكرر لغزواته وبحثه عن الرزق، حيث يقول عروة[4] [الطويل]:

دعيني أطوِّف في البلادِ لعلَّني أقيدُ غنى، فيه لذا الحقِّ محملُ[5]

[1] تأبط شرا: الديوان، ص43.

[2] زعيم: أي ضامن وكافل.

[3] ابن السّكيت: شرح ديوان عروة بن الورد، ص106.

[4] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص97.

[5] أقيد غنى: أحصل على المال والغنائم وغيرها.

فالهدف عند عروة من كسب المال والحصول على الزاد هو أن يؤدي ما عليه من حقوق، من إطعام الفقراء والمحتاجين الذين لا يملكون من يعيلهم أو يقوم بأمرهم، كما نجد الشاعر يرعى أحوال هؤلاء الفقراء كذلك حين يخفقون في غزواتهم فيضيق بهم الحال فلا معاش لهم، كما يجب عليه أن يؤدي حقوقا لا يستطيع تأديتها وهو في حالة الفقر، لأن الفقير هو شر الناس وأهونهم كما يقول في هذا السياق عروة بن الورد[1] [الوافر]:

دعينِي للغِنى أسعــى فإنِّي رأيتُ النَّاس شرُّهمُ الفقيــرُ

وأبعدُهم وأهونُهـــم عليه وإن أمسَى له حسبٌ وخيرُ

ويقصيهِ النّــدي وتزدريه حليلتُه وينهـــرُهُ الصَّغيــرُ

فهذه الأبيات تجسِّد لنا حقيقة مرارة الإحساس بالفقر الذي يحسّ به عروة من جرّاء هذه الظروف الاجتماعية القاهرة والتي تُنزِلُ الفقير أسفَل الدّرَكِ، وتُعلي من قيمة الغني وتتجاوز عن أخطائه، وهذه الظاهرة الاجتماعية وحدها كفيلة بدفع عروة دفعا نحو الكسب والتمول لتجاوز هذه العقبة المنيعة التي فرضها المجتمع في وجه الفقراء الذين فضحهم فقرهم.

قال أيضا[2] [الكامل]:

المــالُ فيه مهابةٌ وتجلَّةٌ والفقرُ فيــه مذلّةٌ وفضوحُ

فالاختلاف الموجود بين الغني والفقير نراه قد تجاوز الفروقات المادية الحسية إلى ما هو أعمق وأبعد من ذلك بكثير، حيث امتد نحو ما هو جوهري حقا يتمثل في الحالة المعنوية والشعورية التي يحسها كل واحد منهم ويعيشها في صمته.

[1] المصدر السابق، ص79.

[2] المصدر نفسه، ص54.

أما في بعض الأحيان فإننا نجد الزوجة هي الدافع القوي بالنسبة للصعلوك، محفزة إياه بإلحاحها عليه بالخروج والمخاطرة بغية الكسب والتمول والوقوف في وجه ذلك المجتمع المرير الذي يزدري ويقلل من شأن الفقير وقيمته، يقول عروة[1] [الكامل]:

قالتْ تُماضِرُ إذ رأت مَالي خــوَى وجفَا الأقاربَ فالفــؤادُ قريحُ[2]

مالي رأيتُكَ في النّـــــدي منكَّسًا وصبًا، كأنَّك في النَّديِّ نطيحُ[3]

خــاطِر بنفسكَ كي تصيبَ غنيمـةً إنّ القــعودَ مع العيالِ قبيــحُ

فالمخاطرة في هذه الحالة هي حتمية وواجبة نظرًا إلى قانون المجتمع المسلّط، فالسعي وراء الرزق والكسب من ضروريات الحياة التي لا غنى عنها في قاموس هؤلاء الصعاليك، لهذا فزوجة الشاعر تلحُّ عليه للخروج بدل القعود مع العيال والذي يزيد من حالهم حينها، فمادام الأقارب قد ابتعدوا وتركوا البر والمساعدة فإن الناس الأباعد حينها سيكونون أقرب للقطيعة من الوصل مادام الفقير فيهم ليس له سلطان ينصره.

[1] المصدر السابق، ص54.

[2] جفا الأقارب: ترك بره وصلته، قريح: جريح.

[3] النّدي: مجلس القوم، النّطيح: من نطحه الثور بقرنه.

رابعا– الخصائص الفنية لشعر الصعاليك:

لقد برزت ظاهرت الصّعلكة جليةً في العصر الجاهلي بجميع خصائصها ومميزاتها التي جعلتها من أكثر الموضوعات طرقا وتعرّضًا للبحث من طرف باحثي ودارسي الأدب العربي القديم، فكل واحد انبرى لها وفق منطقه الفكري، وحللها وفسّرها من زاويته ودرس أسبابها و دوافعها وأبعادها، لأنه في حقيقة الأمر هذه الظاهرة تستحق الكثير من الاهتمام والدراسة والأبحاث المستفيضة في ثناياها.

ولأن هذه الظاهرة نشأة وترعرعت في أحضان المجتمع الجاهلي فإن ما يزيدها لمعانًا وقدرًا هو شعر شعرائها، حيث أضفى هذا الشعر على هذه الظاهرة قيمة فنية عند نقاد ودارسي الفترات اللاحقة فالشعراء الصعاليك قد قالوا شعرا كثيرا يُضاف إلى الشعر الجاهلي ويزيده إثراءً وعمقًا، فهو يختلف عن شعر تلك الحقبة، «كون شعر الصّعلكة للمرة الأولى في تاريخ الشعر العربي يلغي الوحدة الاجتماعية الاقتصادية السياسية التي تتشكّل ضمنها الرؤية المركزية أي القبيلة ... ولهجة شعرية جديدة تشكّك في إطار فئة أو طبقة اجتماعية محددة.»[1]، وعليه فشعر الصعاليك نجده يختلف عن غيره من شعر الحقبة التي سبقت الإسلام، لأنه يلتزم نمطا ومتنا معينين، وحتى بالنسبة لشعرائه فهم من طبقة معينة وليسوا من عامة النّاس وكبقية الشعراء، فحياتهم تختلف اختلافا عن تلك التي يعيشها أفراد القبيلة لهذا نجد بأن شعرهم قد فرض نفسه ومنطقه على النقاد والدارسين بجملة من الخصائص والمميزات الفريدة التي تجعل منه شعرا مؤهلا للدراسة والاهتمام الكبيرين.

وعلى ضوء هذا نستطيع أن نطرح التساؤل الآتي: ما هي أهم الخصائص والمميزات الفنية التي ميزت شعر الصعاليك الجاهليين عن بقية شعر الشعراء الآخرين؟.

[1] كمال أبو ذيب: الرؤى المقنعة نحو منهج بنوي في دراسة الشعر الجاهلي، ص: 575.

1- مقطوعات شعرية:

إنّ المطلع على شعر الصعاليك الجاهليين يلفتُ بوضوح ظاهرة ميّزت شعرهم وكانت سمة بارزة تميزه عن غيره من شعر الفترة ألا وهي المقطوعات الشعرية، حيث تغيب القصائد الطوال التي عهدناها عن شعر العصر نفسه، فأغلب شعر الصعاليك إذن هو مقطوعات شعرية قصيرة تصفُ مواقفهم السّريعة المتدبدبة تدبدب حياتهم وعدم استقرارها، «ولا نعني بهذا انعدام القصيدة فيه وإنما نعني ذيوع المقطوعات الشّعرية أكثر من ذيوع القصيدة»[1]، فالقصائد في شعر الصعاليك حسب آراء الدارسين قليلة ويمكن عدها على أصابع اليد.

ولهذا لا يمكن أن نعمم الحكم مطلقا دون أن نستثني بعض القصائد الشعرية مثل: رائية "عروة بن الورد" 27 بيتا[2]، وتائية الشنفرى الأزدي 36 بيتا[3]، بالإضافة إلى قافية "تأبط شرا" ذات الأبيات الستة والعشرين[4]...الخ.

وعند استثناء هذه المجموعة القليلة أو بعض القصائد الأخرى القصيرة التي توشك أن تكون مقطوعات نجد أنفسنا أمام أبيات مفردة لكل شاعر حيث لا تتعدى السبعة أبيات، وبهذا يمكن أن نرجع سبب قلة وغياب القصائد الطوال في شعر الصعاليك إلى أمرين أساسيين هما:

أ-عدم كتابة الشعراء الصعاليك في الأغراض التقليدية المعروفة في العصر الجاهلي، حيث نجد مواضيع كتابتهم في الأغلب تدور حول وصف أسلوب حياتهم وطريقة عيشهم وغزوهم ومغامراتهم الكثيرة.

ب- طبيعة الحياة التي يعيشها الصّعاليك: والمعنى هنا أن تلك الحياة القلقة المشغولة بالكفاح في سبيل العيش لا تكاد تفرغ للفن من حيث هو فن يفرغ له صاحبه لتطويله وإعادة النّظر فيه[5] ، فحياة

[1] يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص209.
[2] ابن السكيت: شرح ديوان عروة بن الورد العبسي، ص63.
[3] المفضل الضبي: المفضليات، ص108.
[4] المرجع نفسه، ص27.
[5] يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص261.

كتلك التي عاشها الصعاليك في العصر الجاهلي مليئة بالكرّ والفر وعدم الاستقرار في مكان، حيث لا تسمح لأصحابها بإفراج قصائد طويلة على منوال المعلقات وغيرها.

وكما قيل عنه «يمكن أن يعدّ شعر مواقف يسجل الشاعر فيه ما يضطرب في نفسه في مقطوعات قصيرة موجزة، ويسرع إلى كفاحه الذي ينتظره ولا يمهله»[1]، فانشغال الصعاليك بالكفاح والتنقل في سبيل البحث عن لقمة العيش جعلهم مشغولين عن كتابة الشعر وتنقيحه وتجويده مثل ما هو الحل مع من ينعم بالراحة والأمان والاستقرار، مثل "زهير بن أبي سلمى" صاحب الحوليات، و"النابغة الذبياني" وغيرهما ممن كتبوا قصائد طوال وصلت إلينا.

2- الحفاظ على الوحدة الموضوعية:

إذا كان في الشعر الجاهلي يُنتَقَلُ في القصيدة الواحدة من موضوع لآخر حسب رغبة الشاعر في الانتقال بين المواضيع، فيبتدئ بالغزل أو الوقوف على الطلل ثم وصف حال الشاعرِ والانتقال بعدها إلى الموضوع الأساسي، أو الغرض الذي نظمت عليه القصيدة، فإن شعر الصعاليك لا يمتلك هذه السمة، حيث نجده يحافظ على الوحدة الموضوعية في أغلب مقطوعاته أو قصائده، وبهذا يكون قد خالف شعر الحقبة وتميّز عنه بهذه الميزة الفنية المتمثلة في الوحدة الموضوعية.

«ونستطيع أن نمضي مع مجموعة من شعر الصّعاليك فلا نكاد نخطئ الوحدة الموضوعية في كل مقطوعاتها وأكثر قصائدها، سواء ما كان منها في وصف المغامرات أو الحديث عن سرعة العدو والفرار أو تقرير فكرة اجتماعية أو اقتصادية ... ولا نكاد نجد صعوبة في وضع العناوين المختلفة لها المعبرة عنها الدالة على موضوعاتها»[2]، لهذا فأغلب القصائد أو المقطوعات الشعرية لشعر الصّعاليك تدور حول فكرة معينة أو موضوع واحد يُتناول، ما جعلها ميزة وظاهرة جلية أمام كل متتبعي شعر

[1] هاشم صالح مناع: الأدب الجاهلي، ص356.

[2] يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص264.265.

الصعاليك ومطلع على طريقة نظمهم التي يكتبون بها، وهذا تمرّد وخروج عن القاعدة التي نظمت عليها أغلب بل جل القصائد الجاهلية.

ومن الأمثلة التي نسوقها في هذا السياق شعر "عروة بن الورد" الذي يسهل على القارئ أن يضع عنوانا يحدد موضوع القصيدة، فمن ذلك مقطوعته "سر في بلاد الله" إذ يقول فيها[1] [الطويل]:

إذا المـرءُ لم يطلب معاشًا لنفسِـــه شكا الفقرَ أو لام الصديقَ فأكثـرَا

وصار علـى الأدنينَ كـــلاًّ وأوشكتْ صلاتُ ذوي القربَى له أن تنكَّـــرَا[2]

وما طالبُ الحاجاتِ من كلِّ وجهـة من النَّاس إلاَّ من أجـــدَّ وشمَّـــرَا

فسِـرْ في بلادِ اللّهِ والتمسِ الغـــنى تَعشْ ذا يسارٍ أو تمـوتَ فتعـــذرَا

فمن خلال هذا النّص نستطيع أن نبيّن الفكرة الواحدة التي يدعو إليها الشاعر وهي الضّرب في بلاد اللّه، وذلك بحثا عن الرزق والسعي من أجله، بدل شكوى الفقر والاعتماد على الأقارب والأصدقاء لأن في السّعي وقاية من الذّل والحاجة، سواء وجدت ما يغنيك عن فقرك، أو موتك فتعذر حينها كما قال عروة.

ومنه فشعر الصّعاليك لا يلتزم طابع التقليد للقصيدة الجاهلية، «وذلك أننا نجد شعرهم لا يتجه إلى طابع القصائد التي تشتمل على عناصر أو أغراض متعددة، وإنّما تلتزم القصيدة أو المقطوعة فيه غرضا واحد لا تعدو تصويره، أو تصوير جوانبه وملابساته المباشرة»[3]، فهذا الطابع الجديد والخاص بالشعراء الصعاليك في نظم القصيد نستطيع أن نسميه الخروج أو الهدم، لأنه هدمٌ وخروج عن الطابع العام الذي كان سائدا في العصر الجاهلي.

[1] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص77.

[2] الأدنين: الأقارب.

[3] عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص392.

3- غرابة الألفاظ وصعوبتها:

يمتاز شعر صعاليك الجاهلية بغرابة الألفاظ وصعوبتها كذلك، حيث تحضر بقوة تلك الألفاظ الغريبة الحوشية، التي تجعل القارئ لشعرهم أحيانا أمام طلاسم لفظية يصعب الاهتداء إلى معناها وفحواها مما قد يجعل القارئ في كل مرة أمام حتمية الرجوع والاستعانة بمختلف المعاجم والقواميس اللغوية القديمة، بغية فك شفرة تلك المصطلحات الغريبة.

ويرجع السبب في شيوع هذه الألفاظ والمصطلحات إلى البيئة التي ينتمي إليها هؤلاء الشعراء، يقول الدكتور "عبد الحليم حفني": «ولعل أقرب ما نستطيع أن نعلل به هذه الظاهرة أن الألفاظ في أصلها تتأثر بالبيئة بمعنى أن البيئة في أصلها لها دخل كبير في تحديد الألفاظ من حيث الصّعوبة والألف ومن حيث الجرس، ومن حيث نواحي أخرى لا يقتضى المقام الإفاضة فيها، فالبيئة هي العامل الأول »[1] فغرابة الألفاظ وصعوبتها في شعر الشعراء الصعاليك إذن يرجع إلى طبيعة الحياة التي عاشوها، وتلك البيئة الموحشة التي تترك في أصحابها لغة غريبة وحوشية جلفة قد تنفرُ منها الأسماع أحيانا، خاصة بالنسبة لمن لم يُعاصر أو يزامن أولئك الشعراء أو على الأقل لم يقرأ لغتهم ولا شعرهم طويلا.

والحديث هنا عن الغرابة يخص عصرنا نحن وليس اللفظ وحشي في بيئته، لأنه بالنسبة لهم تلك الألفاظ سهلة واضحة متداولة بينهم ومستعملة في بيئتها الأصلية، وها هو نموذج حي لتلك الصعوبة والغرابة في الألفاظ بقول تأبّط شرا[2] [الطويل]:

وشعبٍ كشَلِّ الثوب شكسٍ طريقُــه مجَــامِعُ صوحيهِ نطافٌ مخاصِـرُ[3]

به من سيولِ الصَّيفِ بيضٌ أقرّهــا جُبــارٌ لصمِّ الصَّــخر فيه قراقِـرُ[4]

[1] المصدر السابق، ص418.

[2] تأبط شرا: الديوان، ص29.

[3] الشّعب: الطريق في الجبل، شكس: يصعب الذهاب فيه، الصوحان: جانب الجبل، نطاف مخاصر: قطرات من الماء باردة.

[4] أقرها: أتركها، جبار: السيل.

فالشاعر في هذين البيتين يصف لنا مقدرته في الأرض ذات المسالك الوعرة المتشعبة، كما أن الشيء الملاحظ على أغلب كلمات البيتين أنها غريبة جدا على مسامعنا، ولو لم نستعن بشرح تلك الكلمات لما استطعنا الوصول إلى المعنى الذي يقصده الشاعر أبدا.

وفي مثال آخر يقول "أبو خراش" مرة وهو هارب من مطارديه واصفًا في ذلك الوقت عدوهُ وجريه مفتخرا بسرعته بقوله[1] [الطويل]:

فعدّيتُ شيـــــئًا والدَّريسُ كأنّـَما يزعـزعـــــه وردٌ من المـــــومِ مـــردِمِ[2]

تذكّـرُ مــا أين المقـــــــرّ وإنَّـني بغَــرزِ الذي ينجي من الموت مُعصِــمِ[3]

وهذه الغرابة قد شعر بها اللغويون ورواة الشعر أيضا، لأن "الأصمعي" قد صرّح بأنه لم يسمع بلفظة "سحاليل" إلاّ في قول "حبيب الأعلم" يصف جراء الضباع بقوله[4]:

سُــودٌ سحــاليلٌ كــأنَّ جلـودهنَّ ثيابُ راهــبِ

وعليه فلغة الصعاليك تعتبر أفضل من يمثل فصاحة اللغة العربية وفطرتها السّليمة، ذلك أننا نجدها بكثرة في الاستشهادات في مختلف المعاجم اللغوية والقواميس، أو بعبارة أخرى يمكن اعتبار شعر الصّعاليك أحد المصادر الأساسية للمجموعة اللغوية.

4- غياب المقدمة الطللية:

من الظواهر الفنية في شعر الصعاليك أيضا نجد أنهم تخلصوا من المقدمة الطللية، التي كان يُؤتى بها في العادة لتحيل عن تعلّق الشاعر بأرضه وأهله وحبيبته، حيث يقفُ الشعراء على الأطلال بغية إطفاء الشوق أو محاولة تذكر واسترجاع حنين وذكريات الماضي.

[1] أحمد الزين: ديوان الهذليين، ج02، ص144.

[2] الدريس: الثوب الخلق، المردم: الملازم.

[3] الغرز: يقال للرجل "أشدد يدك بغرز فلان إذا أمره أن يُلازمه.

[4] المصدر نفسه، ج02، ص80.

ويكون السّبب في تخلص الشعراء الصعاليك من المقدمة الطللية إلى إتباعهم الوحدة الموضوعية التي تجعل القصيدة موضوعا واحد من البداية حتى النهاية، هذا ما يجعل الأمر طبيعيا لديهم، «إذ أن المقدمات الطللية تخل – بطبيعة الحال– بهذه الوحدة الموضوعية ... وإنّما اتخذ الشعراء الصعاليك لهم مذهبا آخر استعاضوا به عن هذه المقدمات، وهو مذهب جعلوا محوره حواء خالدة أيضا، ولكنها ليست المرأة المحبوبة التي عرفناها عند الشعراء القبليين ... ولكنها المحبة الحريصة على فارسها »[1] فهؤلاء الصعاليك قد استبدلوا المقدمة الطللية القبلية بمقدمة سميت **"مقدمة الفروسية"**، حيث تصور لنا هذه المقدمة خوف الزوجة ولومها لفارسها عند خروجه للغزو وإصراره على ركوب رأسه، أو أي أمر يدفع الشاعر نحو المخاطرة أو الهلاك.

وتكون الصورة أمامنا واضحة جلية عندما نتناول شعر "عروة بن الورد"، حيث نجد أن الكثير من قصائده ومقطوعاته نراها تبتدئ بالحوار الذي يدور بينه وبين وزوجته، التي تلومه على مخاطرته بحياته وتنهاه عن الخروج للغزو والمخاطرة في سبيل ذلك، حيث يقول[2] [الطويل]:

أرى أمَّ حسَّان الغداةَ تلومني تخوِّفني الأعداء والنَّفسُ أخوفُ

لعلَّ الذي خوَّفتنا من أمامنا يُصادفُهُ في أهلِه المتخلِّـــــفُ

وفي قصيدته "يا ابنة منذر" يقول[3] طالبا من زوجته أن تقلّل من إلحاحها عليه بمنعه من الخروج لغزو:

أقلِّي عـليَّ اللـــومَ يا ابنَةَ منـذر ونامي، فإن لم تشتهي النّومَ فاسهرِي

ذريني ونفسي، أمّ حسانَ، إنَّـني بها، قبل أن لا أملكَ البيعَ مشتـــرِي

[1] يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص268.

[2] ابن السكيت: شرح ديوان عروة بن الورد العبسي، ص91.

[3] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص67.

أما "عمر بن براق" فيستهلُّ مقطوعته بما دار بينه وبين صاحبته التي تنصحه بأن لا يعرّض نفسه للخطر إذ يقول[1] [الطويل]:

تقولُ سُليمى لا تعرَّض لتلفَــةٍ وليلكَ عن ليلِ الصَّعاليكِ نائـــمُ

وكيفَ ينامُ اللَّيل من جـلُّ مالـهِ حسامٌ كلونِ الملحِ أبيض صــارمُ

ألم تعلميْ أنَّ الصّعاليك نومهمُ قليلٌ إذا نامَ الخليُّ المسالـــمُ

فهؤلاء الشعراء باستغنائهم عن المقدمة الطللية وابتكارهم لمقدمات تليق بطبيعة وأسلوب حياتهم وظروف عيشهم، نجدهم قد تمرّدوا ورفضوا كل ما هو قبلي تليد، لأن هذا التمرد والخروج قد نجد من يعتبره تمرّد فني أيضا، وإن كان أغلب الدارسين يؤكدون بأن هؤلاء الصعاليك لم يرتقوا إلى مثل هذه النظرة، وإنّما القضية هي صدفة فقط.

5- أسلوب القصة أو القصصية:

إن المتمعن في شعر الصعاليك يستطيع أن يسجل ظاهرة جلية في شعرهم حيث تميز بها وغلبت على ملامحه، ألا وهي أسلوب القص في شعرهم أو القصصية، فهؤلاء الشعراء نراهم يسجلون ما يدور في حياتهم الحافلة بالأحداث والمغامرات المثيرة في شكل مقطوعات شعرية، حيث يجعل هذا من شعرهم نموذجا للشعر القصصي، من حوار ووصف وتسجيل لجوانب الأحداث المسيطرة بكل حيثيات وجوانب الحادثة.

يقول الدكتور "عبد الحليم حفني": «والواقع أن الدارس لشعر الصعاليك لا يشكّ في أن الذين أسسوا للقصة في الشعر العربي، بل والذين وصلوا إلى مستوى القصة الشعرية الكاملة بمفهومها الفني في شعرهم هم الصعاليك: وأن هذا المنهج لو وُجد من الشعراء من تابعه لكان للقصة في الشعر العربي

[1] القالي: الأمالي، ج02، ص122.

شأن غير ما كانت عليه »[1]، فهذا القول يعدّ تدعيما لموقفنا بأسبقية هؤلاء الشعراء لفن القص في الشعر العربي، أو على الأقل قُل حضور القص في شعرهم كظاهرة فنية هو موجود فعلا.

وقد ساق لنا صاحب الأغاني مثالا عن القصة في شعر هؤلاء بقصيدة لقيس بن الحدادية والتي كانت مع ابنة عمه وما دار بينهما ليلة الوداع واستعداده للرحيل بقوله[2] [الطويل]:

أجــدّكَ إن نُعـم نأتْ أنتَ جــازعُ قــد اقتربتْ لـــو أنّ ذلك نافـعُ

قد اقتربت لو أن في قـُـربِ دارِهـا نوالاً ولـــكن كلُّ من ضــنَّ مـانِـعُ

وقـد جاورتنا في شهــورٍ كثيـــرةٍ فمـــا نولت واللـــه راءٍ وسَامـعُ

فإن تلقيَا نُعمـــًا هُديتَ فَحيِّهـــا وسلْ كيفَ تَرعى بالمغيبِ الودائـــعُ

وظنِّي بها حفــظٌ بعيـــني وبينهـا لما استرعِيَت والظـنُّ بالغيبِ واسـعُ

وقُلتُ لهـــا في السِّـــر بيني وبينَها على عجَـــلٍ أيَّان من سارَ رَاجـعُ

فقالتَ لها بعد حـــولٍ وحجَّـــةٍ وشحـطِ النّوى إلاَّ لذي العهدِ قَاطِعُ

وقد يلتقي بعـدَ الشتاتِ أولو النَّـوى ويسترجِعُ الحيَّ السَّحـاب اللـوامـعُ

فقُلتُ لهـــا يا نُعم حلّـــي محلنـا فإنَّ الهوى يا نُعمُ والعيــشُ جَامِـعُ

فقالتْ وعيناها تفيضـانِ عبـــرةً بأهلـــي بيِّن لي متى أنتَ راجِـعُ

فقلتُ لها تاللَّه يدرِي مسافـــرٌ إذا أضرمتهُ الأرضُ ما اللّـَـهُ صانِـــعُ

[1] عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص411.

[2] الأصفهاني: الأغاني، ج13، ص06.07.

وهذه القصيدة مازالت طويلة وفيها ما يؤكد فعلا تلك الخطوط الأساسية لحضور ظاهرة القص في شعر الصعاليك في العصر الجاهلي.

«وهكذا نستطيع أن نمضي مع مجموعة الشّعر داخل دائرة الصعلكة فإذا نحن أمام مجموعة من الأقاصيص يصح أن نطلق عليها كما يفعل القصاص أقاصيص صعلكة أو مغامرات الصّعاليك »[1] وما يؤكد قولنا أكثر أنه لو لم تتميز أشعارهم بأسلوب القصة لما استطعنا أن نعرف عنهم وعن حياتهم بهذا القدر من الدقة والتفصيل اللازمين.

06- الواقعية في شعرهم:

ومن الظواهر الفنية التي نلاحظها جليةً في شعر الصعاليك تلك التي تسّمى الواقعية، بحيث يكون الشاعر فيها ملزمًا بتصوير الأحداث ونقلها على حقيقتها، دون مبالغة أو إفراط في الوصف أو التعبير يقول "عبد الرحمـن بدوي" «إنّ الاتجاه العام عند نقاد العرب هو مؤاخذة الشاعر على رسم ما ينبغي أن يكون لا رسم ما هو كائن حقًا »[2]، لأن تصوير الشاعر ما يجب أن يكون يجعله في دائرة المثالية بعيد عن الواقعية والمنطقية التي تعني الصدق وعدم المبالغة في التّصوير ونقل الحقائق كما هي في الواقع المعاش.

وشعر الصعاليك كلّه تصوير لواقع حقيقي معاش وتجارب حية عن حياتهم، بعيدًا عن المغالاة ومجاوزة الحد فقد تحدث "يوسف خليف" عن هذه النقطة قائلا: «لقد صوّر الشعراء الصعاليك في شعرهم البيئة البدوية التي يعيشون فيها بكل مظاهرها، الصحراء القاسية شعابها، وجبالها، أغوارها ... وصور الحياة الواقعية التي يحيونها بكل ما فيها من واقع خيّر وواقع شرير وبكل ما فيها من محاسن وعيوب ... وصوّروا الشخصيات الإنسانية التي يتصلون بها كما يرونها في الواقع المحسوس بكل ما بينهما من

[1] يوسف خليف: شعر الصعاليك في العصر الجاهلي، ص280.

[2] أسس النقد الأدبي عند العرب، نهضة مصر، القاهرة، (د/ط)، (د/ت)، ص433.

تباين واختلاف»[1]، فكل ما عاشه الصعاليك بحلوه ومرّه قد صوروه حقيقةً في شعرهم، بأمانة عالية ودون زيادة أو نقصان، وكل مظهر من المظاهر إلاّ وجاء كما هو بمحاسنه وعيوبه، وما هذه الخاصية إلا الواقعية الفنية التي يتحدث عنها النقاد ويحبّدونها في العمل الفني.

يقول "الشنفرى" مصورًا لنا صراعه مع الجوع الذي كاد أن يقضي عليه بقوله[2] [الطويل]:

أديمُ مطالَ الجـــــوعِ حتَّى أميتـــــه وأضربُ عنه الذِّكر صفحًا فأذهـــــلُ

وأستفُّ تربَ الأرضِ كي لا يُرى لـــــه عليَّ من الطـولِ امـــــــرؤٌ متطـوِّلُ

أما "السّليك بن السلكة" فيقول[3] أيضا [الطويل]:

وما نلتُها حتى تَصعلكتُ حقبـــةً وكدتُ لأسبابِ المنية أعـــــــرِفُ

وحتّى رأيتُ الجوعَ بالصَّيفِ ضرَّني إذا قُمتُ تغشاني ظلالٌ فأســـدِفُ

فهذه الأبيات التي قالها الشعراء الصّعاليك ما هي إلاّ حقيقة الواقعية والصدق في شعرهم ذلك دون تزييف أو تنميق وهذا يعتَبرُ «صورة من صور الصّدق الفني »[4]، وقد يكون السبب في هذا طبيعة حياة الصعاليك -كما أسلفنا الذكر- والتي لا تتيح لهم الفرصة أمام التنميق والتجويد والإبحار في الخيال، فهم لم يحترفوا الشعر احترافا كالشعراء الآخرين، وإنّما كان شعرهم عبارة عن مذكرات يومية يصفون فيها محطاتهم وحياتهم الخاصة بكل صدق واعتزاز.

[1] الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص282.

[2] الشنفرى: الديوان، ص62.

[3] ديوان الصعاليك، إعداد وتقديم: طلال حرب، الدار العالمية، بيروت، ط01، 1993م، ص94.

[4] عبد الحليم حفني، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص378.

الخاتمة

الخاتمة:

بعد هذه الرحلة الطويلة في صميم الأدب الجاهلي وذاك التطواف بين أشعار الصعاليك الجاهليين نأمل أن نكون قد وُفِّقنا، ولو بالشيء اليسير في الهدف الذي صبونا إليه وقصدناه من وراء بحثنا هذا والذي عنوانه: "**القيم الأخلاقية في شعر الصعاليك الجاهليين**"، لأنه في نهاية كل بحث يأمل صاحبه دائما في أن تصنَّف جهوده ضمن الرحلات الناجحة، كما أن الباحث يهدف غالبا إلى أن يكون بحثه على الأقل من بين تلك الجولات المربحة، التي تعطيه نفسا إضافيا يدفعه نحو مواصلة رحلته البحثية المفيدة، وتكون نتائج بحثه أيضا نقطة انطلاق لمن يأتون بعده من المهتمين بالموضوع.

أما نجاحنا نحن هنا فينطلق أولا من محاولة إنصافنا لأدب الحقبة الجاهلية التي تستحق منا كل الاهتمام والكثير من الوقت للدراسة والبحث في بحرها الذي هو أوسع البحور وأعمقها وأثراها، فقد يُخيَّل للبعض عن هذا العصر أنه أستنزف طاقته الهائلة في صدامه مع حبر الدارسين والهائمين به هذا من جهة، ومن جهة أخرى إنصافنا كذلك لتلك الطائفة المهمشة من الشعراء (طبقة الشعراء الصعاليك) والتي نراها تستحق منا إعادة النظر في مقامها بين موضوعات الأدب الجاهلي وقضاياه المتميزة.

وعليه فبعد هذه الدراسة وتلك المحطات المتكررة التي وقفناها مع شعر الصعاليك والذي نقل لنا جانبا من بعض القيم الأخلاقية التي تحلوا بها، وصبغت شخصيتهم، خرجنا بمجوعة من النتائج المهمة حيث تمثلت فيما يلي:

1- الشعراء الصعاليك بالرغم من تمردهم وخروجهم على مجتمعاتهم القبلية بحثًا عن الحرية والكرامة ولقمة العيش، كل ذلك في ظل النظام القبلي الطاغي لم يتجرَّدوا من مختلف الصّفات الحميدة التي جعلت من بعضهم مثالا في الكرم والجود، والشجاعة، وبقية الصفات النبيلة الحسنة، ما جعلت أشعارهم تنزع نزعة أخلاقية بعيدة عن المادية المطلقة التي اتهمهم بها بعض الباحثين المجحفين، وما الأشعار التي أتينا بها في ثنايا البحث إلا برهانا ودليلا قاطعًا على تمسك هؤلاء الصعاليك بتلك القيم

الأخلاقية، حيث تعد من الخصال الحميدة التي امتاز بها العربي الأصيل في العصر الجاهلي و حثَّ عليها غيره وتغنَّى بها في أشعاره أيضا.

2- لم يكن تمرد الشعراء الصعاليك تمردا اجتماعيا على قيم ونظام المجتمعات القبلية فقط، بل كان تمردا فنيا أيضا على نظام وهيكل الشعر العربي القديم (القصيدة)، وذلك جلي وواضح للباحثين والمطلعين على خصائص شعرهم التي عارضت تلك الخصائص التي تميز القصيدة الجاهلية؛ من مقدمة طللية وتصريع، وغيرها من الخصائص المنهجية لنظام القصيدة القديم، هذا ما جعل قصائدهم تتميز بالقصصية التي نقلت لنا جميع مغامراتهم، وحياتهم الموحشة وتفاصيل مغامراتهم مع الحيوانات الضارية التي كانوا يواجهونها في حياتهم الجديدة، كما يمكن أن نسميه مجرد شذوذ طارئ على نمط القصيدة التقليدية في العصر الجاهلي.

3- بالنظر إلى الموضوعات التي جاء فيها شعر هؤلاء الصعاليك نفهم بأنه راوح بين بعض المبادئ والقيم الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية، فكان بذلك شعر الصعاليك نموذجا يحملُ بين طيَّاته جميع صفات النُّبل الأخلاقي والإنساني الراقي، والذي ميَّز شخصية العرب الأجواد في ذلك العصر.

4- تلوَّن شعر هؤلاء الصعاليك بلون حياتهم المضطربة في تلك الفترة التي عاشوها والتي لا تعرف الاستقرار والهدوء، فقد لمسنا حقيقة آثار الحياة الاجتماعية والاقتصادية في شعرهم، وكان بذلك شعرهم مرآة عاكسة لتلك الحياة وطبيعتها المتميِّزة والمتفرِّدة.

5- تأثَّر شعر الصعاليك بمجموعة من العوامل المحيطة به وذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ما جعلها تؤثّر في توجيه وتكوين شعرهم الذي اكتسى نمطا معينا شكلا ومضمونا.

6- الشعراء الجاهليون يتمتعون بعدة صفات وخلال كريمة نابعة من صميم البيئة العربية و أصالة المنطقة، حيث تتجسَّد في بعض من الشعراء مجموعة من هذه الصفات الكريمة، كإغاثة الملهوف

وإكرام الضيف، وحسن الجوار، والكرم والشجاعة، وغيرها من الصفات الخلقية التي تعتبر من أصالة طبعهم ورجولتهم الحقة، ومن تمام المروءة عندهم أيضا.

7- يمكن اعتبار شعر الصعاليك شعرا متميزا ومتفردا، وذلك لما فيه من جزالة الألفاظ وقوة المعاني وصدق العاطفة أيضا.

8-تطرقنا في بحثنا هذا إلى التعريف اللغوي للصّعلكة والذي يعني في اللغة الفقر؛ أي التجرد من المال أما اصطلاحا فكان المعنى يشير إلى طائفة من الشعراء خرجوا عن النظام القبلي في ذاك العصر وأقاموا لأنفسهم مجتمعا خاصا، حيث دفعهم لهذا التصعلك بعض القوانين والقيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت سائدة في ذاك المجتمع، ما يجعلها ظاهرة ملازمة لظروف الحياة آنذاك، أو قل هي ظاهرة وليدة المجتمع القبلي الجاهلي نابعة من جذوره.

9- القيم الأخلاقية التي تحلى بها الشعراء الصعاليك هي شكل من أشكال الوعي الإنساني في العصر الجاهلي، فتلك المبادئ والقيم هي التي كانت تحركهم ويستمدون منها مرجعيتهم في مختلف سلوكاتهم وتصرفاتهم التي يقومون بها، بكل عفوية ودون تكلف أو تصنّع.

10- نظرية الأخلاق عند الفلاسفة الغربيين تختلف باختلاف كل مذهب فكري، وحسب كل تيار أيضا، فسقراط مثلا يرى بأن الفضيلة هي المعرفة، ومعرفة المرء هي من تحمله على التحلي بالقيم الأخلاقية، كالشجاعة والعفة والعدل والكرم وغيرها من الصفات الحميدة، كما أن جهل المرء للأشياء وعواقبها هو من يدفعه إلى الأفعال الشريرة.

11- بنا أفلاطون نظريته الأخلاقية على العقل، حيث جعل الأخلاق لها قيمتها في ذاتها لا خارجة عنها كما ترى النظرية السفسطائية (الفعل الخلقي= اللذة)، لهذا يمكننا أن نقول بأن أفلاطون قد سار على خطى أستاذه سقراط تحت شعار" أعرف نفسك بنفسك"، وأن القانون الأخلاقي لا يمكن أن يُبنى على اللذة الفردية الزائلة.

12- يرى أرسطو بأن الأخلاق تنمو وتتطور بالفعل والممارسة في أرض الواقع، وأحسن طريق يسلكها الإنسان لتحقيق السعادة هو الاعتدال أو التوسط، فالوسط الأخلاقي عنده هو الكمال والفضيلة في نفس الوقت.

13- أما بالنسبة لأبيقور فإنه من الفلاسفة اللذيّين الذين يقرون بأن اللذة هي الخير الأسمى وهي أساس العمل الخلقي، في حين نجده يفرق بين اللذة الجسمية واللذة المعنوية ليخالف بذلك القورينائيين الذين يرون بأن اللذة الجسمية أساس العمل الخلقي، فهو يجعل اللذة المعنوية أساس العمل الخلقي لأنها لذائد تدوم مثل: راحة البال والطمأنينة وغيرها من اللذات المعنوية، وذلك عكس اللذات الجسمية التي تتميز بأنها سريعة الزوال حسب رأيه.

14- النظرة الأخلاقية عند الفلاسفة المسلمين استقت نظريتها من الفلسفة الأخلاقية اليونانية وفلاسفتها من أمثال أرسطو وأفلاطون، كما أنها لم تتجرد من أصلها الإسلامي من قرآن وسنة في تأسيس نظرتها الخاصة.

15- الدين الإسلامي (القرآن والسنة) يمثل أعظم وأشمل مرجع للقيم الأخلاقية، على خلاف المذاهب الفكرية والفلاسفة الغربيين الذين تبدو آراءهم الأخلاقية مضطربة وفي فوضى في بعض الأحيان، وذلك لتعدد واختلاف توجهاتهم ومذاهبهم الفلسفية.

16- يمكن لنا أن نستخلص خاصية مميزة حول الأخلاق أو مجموع القيم الأخلاقية التي يتميز بها كل إنسان داخل أي مجتمع من المجتمعات؛ حيث نلاحظ أنه بالرغم من تغير الزمان والمكان واختلاف الإيديولوجيات والأديان وحتى طرق العيش وأساليبها فإن ما يجمع بين هذه الشعوب – بالرغم من اختلافها– هو وجود قيم أخلاقية ومبادئ إنسانية تخص ذلك المجتمع، وتسوقه وتضبط حياته وتقدم للآخرين صورته، وعرفه وتقاليده، ومختلف معاملاته، التي تميزه عن غيره من بني جنسه

وأن الشيء الوحيد هو اختلاف طرق وصيغ التعبير فقط عن هذه القيم الأخلاقية، وكيفية ممارستها في الواقع المعاش الذي يختلف ويتغير حسب الزمان والمكان.

17- نستنتج من خلال هذا البحث أن هؤلاء الشعراء بالرغم من أنهم عاشوا حياة صعبة من كل النواحي إلا أنهم تمكنوا من فرض أنفسهم بشخصياتهم القوية، وتمكنوا من مجابهة صروف الدهر ومشاق الحياة، فقد أفرزت فئة الصعاليك الشجاع المقدام والكريم الجواد والصابر المثابر، كما أظهرت عند بعضهم حكمة في القول أيضا لا تقل عند حكمة شعراء العصر الجاهلي، وهذا يتجلى في بعض الأبيات التي جاءت في ثنايا البحث.

18- يمكن استنتاج نقطة مهمة حول الصفات الأخلاقية والخلال الكريمة للشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي؛ حيث نجد أن الكرم قد احتل مكانة عالية عندهم على غرار الشعراء الجاهليين فأفرطوا في الاهتمام به، والحث على التعجيل به، ومدحوا الكريم وذموا البخيل الشّحيح، كما اعتبروه من صفات الكمال الخلقي التي بدونها لا يمكن سيادة القبيلة عند العرب.

19- كان للقبيلة في العصر الجاهلي أثر كبير في تلقين بعض القيم والخصال وإنمائها في أصحابها تحت تلك المعطيات الاجتماعية والسياسية السائدة، من ظلم اجتماعي، وجور اقتصادي، وغيرها من مظاهر الحياة البدائية التي كانت تسير وفقها القبائل العربية.

وحسبنا من هذه الإطلالة أو البحث أنها قد أضاءت لنا ولو قليلا بعض الجوانب الغامضة والتي كانت تعترض موضوع الصعاليك في العصر الجاهلي، لأن الحقيقة تقول بأن هذا الموضوع بالرغم من شهرته الذائعة بين الناس إلا أنه مازال يكسوه الكثير من الغموض، والذي يمكن أن نرجعه إلى طبيعة العصر نفسه، لهذا نراه موضوعا يستحق الاهتمام أكثر وإعادة النظر فيه من جوانب جديدة، وليس موضوع الصعاليك فقط وإنما تراثنا القديم عموما بجميع قضاياه المثيرة و المتميزة.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم: رواية حفص عن عاصم.

أولا– المصادر:

1- ابن السّكيت: شرح ديوان عروة بن الورد العبسي، خزانة الكتب العربية، الجزائر، ط01، (د/ت).

2- أحمد الزين: ديوان الهذليين، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط02، 1995م.

3- الأصفهاني: الأغاني، تح: أحمد الشّنقيطي، مطبعة التقدم، مصر، ط01، (د/ت).

4- ديوان الشنفرى ويليه السليك بن السّلكة وعمر بن براق، اعتنى به: طلال حرب، الدار العالمية، بيروت، ط01، 1993م.

5- ديوان الشنفرى، تح: ايميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط02، 1996م.

6- ديوان الصعاليك، تح: يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت، ط01، (د/ت).

7- ديوان تأبط شرا، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط01، 2003م.

8- ديوان عروة بن الورد، تح: أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، (د/ت).

9- ديوانا عروة والسموأل، تح: كرم البستاني، دار بيروت، بيروت، (د/ط)، (د/ت).

10- عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط01، (د/ت).

11- يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، ط03، (د/ت).

ثانيا- المراجع:

1- الكتب العربية:

1- ابن حيان: الإحسان في تقريب صحيح ابن حيان، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، ط01، 1988م.

2- ابن خلدون: المقدمة، تح: عبد الله محمد الدرويش، دار الهداية، دمشق، ط01، 2004م.

3- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، سوريا، ط05، 1981م.

4- ابن عبد ربه: العقد الفريد، تح: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، 1983م.

5- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، (د/ط)، (د/ت).

6- ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تح: حسين تميم، دار مكتبة الحياة، لبنان، ط02، 1989م.

7- ابن وهب: الجامع، (باب العزلة)، تح: مصطفى حسن حسين محمد أبو الخير، دار ابن الجوزي، الرياض، ط01، 1995م.

8- أبو الحسن بن علي المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة المصرية، بيروت، ط01، 2005م.

9- أبو داوود: السنن، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية -صيدا- ، بيروت، (د/ط)، (د/ت).

10- إحسان سركيس: مدخل إلى الأدب الجاهلي، دار الطليعة، بيروت، ط01، 1979م.

11- أحمد أمين: الأخلاق، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط03، 1931م.

12- أحمد أمين: فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط10، 1969م.

13- أحمد حسين الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار النهضة، القاهرة، (د/ط)، (د/ت).

14- أحمد محمد الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، مطبعة النهضة، مصر، ط02، (د/ت).

15- الأعلم الشمنتري: شرح حماسة أبي تمام، تح: على المفضل حمّودان، دار الفكر، دمشق، ط01، 1992م.

16- الإمام مالك: الموطأ، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د/ط)، 1991م.

17- الإمام مسلم: الصحيح، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د/ط)، (د/ت).

18- البخاري: صحيح البخاري، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، ط01، 2002م.

19- التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، تح: رفيق العجم وعلي دحرج، مكتبة لبنان، لبنان، ط01، 1996م.

20- توفيق الطويل: مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط01، 1953م.

21- الجاحظ: البيان التبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط07، 1998م.

22- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، ط02، 1996م.

23- حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي. قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار، القاهرة، ط01، 2001م.

24- حسين الحاج حسن: أدب العرب في عصر الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط03، 1997م.

25- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، ط01، 1986م.

26- ديوان الأعشى، اعتنى به وشرحه: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط01، 2005م.

27- ديوان السموأل بن عادياء، تح: عيسى سابا، مكتبة صادر، بيروت، (د/ط)، (د/ت).

28- ديوان المتلمس الضّبعي، تح: حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية، (د/ط)، (د/ت).

29- ديوان امرؤ القيس، اعتنى به وشرحه: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط02، 2004م.

30- ديوان أميه بن أبي الصّلت، تح: بهجة عبد الغفور الحديثي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ط01، 2009م.

31- ديوان أوس بن حجر، تح: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ط03، 1979م.

32- ديوان حاتم الطائي، دار صادر، بيروت، (د/ط)، (د/ت).

33- ديوان دريد بن الصمة ، تح: عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، ط01، (د/ت).

34- ديوان زهير بن أبي سلمى، اعتنى به وشرحه: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، ط02، 2005م.

35- ديوان طرفة بن العبد، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط01، 2003م.

36- ديوان علي بن أبي طالب، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط03، 2005م.

37- ديوان عمر بن كلثوم، تح: ايميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط02، 1996م.

38- ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح وتقديم: طلال حرب، الدار العالمية، (د/ط)، (د/ت).

39- الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن واشتقاقها، تح: صفوان عدنان الداودي، دار العلم، بيروت، ط01، 1922م.

40- زين كامل الخويسكي وعبد الرزاق سليمان: في الشّعر الجاهلي دراسات نصوص: دار المعرفة الجامعية، ط01، (د/ت).

41- سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، ط03، 1974م.

42- شريف راغب علاونة: عمر بن براق سيرته وشعره، دار المناهج، عمان، ط01، 2005م.

43- الشنفرى والطغرائي: اللاميتان، تح: عبد المعين الملوحي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، (د/ط)، (د/ت).

44- شوقي ضيف: تاريخ الأدب الجاهلي - العصر الجاهلي-، دار المعارف، القاهرة، ط24، (د/ت).

45- صالح بن عبد الله بن حميد و عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن ملوح: نضرة النعيم في مكارم الأخلاق الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم)، دار الوسيلة، جدة، ط01، 1998م.

46- صلاح الدين أحمد الجماعي: الاغتراب النفسي والاجتماعي وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط01، 2008م.

47- الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية النشر، تونس، (د/ط)، 1984م.

48- عادل العوّا: العمدة في فلسفة القيم، طلاس، دمشق، ط01، 1986م.

49- عبد الرحمن بدوي: أسس النقد الأدبي عند العرب، نهضة مصر، القاهرة، (د/ط)، (د/ت).

50- عبد الرزاق الخشرم: الغربة في الشعر الجاهلي، منشورات كتاب العرب، دمشق، ط01، 1986م.

51- عبد الصبور شاهين: دستور الأخلاق في القرآن، دار البحوث العلمية، القاهرة، (د/ط)، (د/ت).

52- عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د/ط)، (د/ت).

53- عبد الله بن ضيف الله الرحيلي: الأخلاق الفاضلة قواعد ومنطلقات لاكتسابها، مطبعة سفير، (د/ط)، (د/ت).

54- عبد الواحد وافي: المدينة الفاضلة للفارابي، نهضة مصر، القاهرة، (د/ط)، (د/ت).

55- عدي بن زيد العبادي: الديوان، تح: محمد جبار المعيبد، شركة دار الجمهورية للنشر والطباعة، بغداد، (د/ط)، (د/ت).

56- عزة قرنى: أفلاطون في السفسطائيين والتربية (محاورات بروتاغوراس)، دار قباء، القاهرة، (د/ط)، 2001م.

57- علي إمام عبيد: فلسفة مسكويه الطبيعية والإلهية (دراسة نقدية)، الدار الإسلامية، مصر، ط01، 2010م.

58- عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط04، 1981م.

59- الفارابي: السعادة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط01، 1995م.

60- الفارابي: رسالة التنبيه على سبيل السعادة، تح: سحبان خليفات، الجامعة الأردنية، عمان، ط01، 1987م.

61- فؤاد أفرام البستاني: الشعر الجاهلي نشأته - فنونه- صفاته، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، (د/ط)، (د/ت).

62- فوزي أمين: الشعر الجاهلي دراسات ونصوص، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط01، (د/ت).

63- القالي: الأمالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، (د/ت).

64- كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، تر: عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ط05، (د/ت).

65- كمال أبو ذيب: الرؤى المقنعة نحو منهج بنوي في دراسة الشعر الجاهلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط01، (د/ت).

66- مانع بن محمد بن علي المانع: القيم بين الإسلام والغرب(دراسة تأصيلية مقارنة)، دار الفضيلة، الرياض، ط01، 2005م.

67- المبرد: الكامل، تح: محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط03، 1997م.

68- محمد أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعرفة، الإسكندرية، (د/ط)، (د/ت).

69- محمد خضر عبد المختار: الاغتراب والتطرف نحو العنف -دراسة نفسية اجتماعية-، دار غريب، القاهرة، ط01، (د/ت).

70- محمد سهيل طقوش: تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النفائس، بيروت، ط01، 2009م.

71- محمد عابد الجابر: العقل الأخلاقي العربي (دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط01، 2001م.

72- محمد فؤاد نعناع: الجود والبخل في الشعر الجاهلي، دار طلاس، دمشق، ط01، 1994م.

73- مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، 2004م.

74- المفضل الضبي: المفضليات، تح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط06، (د/ت).

75- الموسوعة العربية الميسرة، دار الجيل، بيروت، (د/ط)، 2001م، ص: 342.

76- الميداني: مجمع الأمثال، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، تح: مطبعة السنة المحمدية، ط01، (د/ت).

77- ناجي التكريتي: فلسفة الأخلاق بين أرسطو ومسكويه، دار دجلة، عمان، ط01، 2012م.

78- ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، مطبعة التضامن، بغداد، ط02، 1969م.

79- هاشم صالح مناع: الأدب الجاهلي، دار الفكر العربي، بيروت، ط01، 2005م.

80- الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، حسين سليم أسد الدّاراني، دار المأمون للتراث، بيروت، (د/ط)، (د/ت).

81- يحي الجبوري: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسس الرسالة، بيروت، ط05، 1986م.

82- يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، هنداوي للنشر، القاهرة، (د/ط)، 2012م.

2- الكتب المترجمة:

1- أرسطو طاليس: علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، تر: أحمد لطفي السيد، دار الكتب المصرية، (د/ط)، 1924م.

2- رالف بارتن بيري: آفاق القيمة (دراسة نقدية للحضارة الإنسانية)، تر: عبد المحسن عاطف سلام، المركز القومي للترجمة، (د/ط)، (د/ت).

3- رالف بارتون بري: إنسانية الإنسان، تر: سلمى الخضرا الجيوشي، مكتبة المعارف، بيروت، (د/ط)، (د/ت).

4- والتر ستيت: تاريخ الفلسفة اليونانية، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، (د/ط)، 1953م.

3- المجلات والدوريات:

1- حسين حمزة شهيد: الأخلاق في فكر أفلاطون الفلسفي، مجلة مركز دراسات الكوفة، ع10، كلية الآداب (قسم الفلسفة)، العراق، 2008م.

2- علي أبو زيد: ظاهرة العذل في شعر حاتم الطائي، مجلة جامعة دمشق، ع01، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة دمشق، سوريا، 2001/09/20م.

4- المعاجم:

1- ابن فارس: مقاييس اللغة، تج: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت،(د/ط)، (د/ت).

2- ابن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير، دار المعارف، القاهرة، ط01، (د/ت).

3- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د/ط)، 1982م.

4- الجوهري: الصّحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، دار العلم للملايين، القاهرة، ط04، 1990م.

5- الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السّمرائي، دار الهلال، القاهرة، (د/ط)، (د/ت).

6- الفيروز آبادي: القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط03، 1979م.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات:

العنوان الصفحة

مقدمة.....(أ- ط)

الفصل الأول: طبيعة الحياة في العصر الجاهلي..... (12-52)

تمهيد:.....12

أولا: الحياة الاجتماعية والسياسية.....(15-27)

ثانيا: الحياة الاقتصادية.....(28-34)

ثالثا: القيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي.....(35-52)

تمهيد:.....35

1- الجود والكرم.....37

2- الشجاعة.....41

3- إباء الضيم.....46

4- رعاية الجار.....49

الفصل الثاني: الأخلاق في الفكر الغربي والعربي الإسلامي.....(55-87)

تمهيد:.....55

أولا: تعريف القيم.....(56-58)

1- لغة.....56

2- اصطلاحا.....57

ثانيا: تعريف الأخلاق.....(59-64)

1- لغة.....59

2- اصطلاحا.....61

ثالثا: الأخلاق في الفكر الغربي.....(65-73)

1- الأخلاق عند سقراط.....66

2- الأخلاق عند أفلاطون.....68

3-الأخلاق عند أرسطو.....69

4- الأخلاق عند أبيقور.....71

رابعا: الأخلاق في الفكر العربي الإسلامي.....(74-87)

1- الأخلاق في القرآن الكريم.....75

2- الأخلاق في السنة النبوية.....78

3- الأخلاق عند الفارابي.....82

4- الأخلاق عند مسكويه.....85

الفصل الثالث: الصّعلكة والصّعاليك.....(91-130)

تمهيد.....91

أولا: تعريف الصعلكة.....(92-97)

1- لغة.....92

2- اصطلاحا.....94

ثانيا: أشهر الشعراء الصعاليك.....(97-108)

1- تأبط شرا.....97

2- عروة بن الورد.....100

3- الشنفرى.....101

4- السليك بن السلكة.....103

5- أبو الطمحان القيني.....104

6- قيس بن الحدادية.....105

7- عمر بن براق.....106

8- صخر الغي.....107

ثالثا: موضوعات شعر الصعاليك.....(108-125)

1- الفقر والجوع.....109

2- التشرد والضياع.....112

3- وصف الأسلحة.....115

4- وصف المغامرات.....117

5- التوعد والتهديد.....120

6- الافتخار بسرعة العدو.....122

رابعا: علاقة بعض القيم بظاهرة الصعلكة.....125

الفصل الرابع: القيم الأخلاقية في شعر الصعاليك.....(133-169)

تمهيد:.....133

أولا- الجود والكرم.....134

ثانيا- الشجاعة والإقدام.....153

ثالثا- العفة وعزة النفس.....164

الفصل الخامس: القيم الأخلاقية والخصائص الفنية في شعر الصعاليك..... (171-201)

تمهيد:.....171

أولا- الصبر على الصعاب.....172

ثانيا- نصرة الرفيق.....177

ثالثا- السعي من أجل الرزق.....182

رابعا: الخصائص الفنية في شعر الصعاليك.....(190-201)

1- شعر مقطوعات.....191

2- الوحدة الموضوعية.....192

3- غرابة الألفاظ.....194

4- غياب المقدمة الطللية.....196

5-القصصية أو أسلوب القص.....198

46- الواقعية في شعرهم.....200

خاتمة.....203

قائمة المصادر والمراجع.....210

فهرس الموضوعات.....(218-222)

ملخص البحث

ملخص البحث

الملخص:

لا شك في أن الأدب الجاهلي قد نال حصة الأسد في انجذاب الدارسين إليه، وخوض الدراسات والبحوث حول قضاياه ومواضيعه الثّرية الرَّحبة، التي لا ترد أحد من الباحثين الذين يريدون التغلغل في ثناياه العميقة، حيث وعلى مرِّ الأزمنة لم تنضب ينابيع هذا العصر، بل ومازالت تستقطب الكثير من الأبحاث المفيدة والقيمة، دون أن تسلب منه (أدب العصر الجاهلي) ولو جزءا بسيطا من لمعانه وبريقه الدائم الذي سيظل مشعًا إلى أبد الآبدين.

ونظرا لأهمية القيم الأخلاقية في حياة الأفراد والمجتمعات مهما كان الدين والمعتقد فإننا ارتأينا أن نطرق هذا الموضوع في هذا العصر بالذات، للتذكير بما في هذا العصر من قيم فاضلة، ومبادئ راقية وشاملة لجميع مناحي الحياة، تتمثل في شعر طائفة الشعراء الصعاليك الذين يحملون مجموعة من الصفات الحميدة التي تدافع عن سمعتهم الذائعة في النهب والسرقة وقطع الطريق فقط !، ومهما ذكرنا من صفات وخصال جيدة، ونزعات إنسانية نبيلة، عن هؤلاء الصعاليك فإننا لن نضعهم مكانهم الحقيقي في صفحة التاريخ العربي، خصوصا وأن هؤلاء الصعاليك لم ينصفوا في حياتهم داخل مجتمعاتهم ولا من طرف الدارسين والباحثين المحدثين.

وبهذا فقد اخترنا موضوع "**القيم الأخلاقية في شعر الصعاليك الجاهليين**" مجالا للدراسة، حيث قسم إلى مقدمة وخمسة فصول رئيسية متبوعين بخاتمة تلخص نتائج البحث.

فالفصل الأول كان فصلا تمهيديا ينصبُّ على التعريف بطبيعة الحياة في العصر الجاهلي، خاصة الحياة الاجتماعية ومظاهرها العامة، كما يحوي مبحثا لطبيعة الحياة الاقتصادية، ومبحث آخر يلخص بعض القيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي.

أما الفصل الثاني فنجده تحت عنوان "الأخلاق في الفكر الغربي والعربي الإسلامي"؛ حيث يتطرقُّ هذا الفصل إلى التعريف بالقيم، وكذا تعريف الأخلاق، وكيفية حضورها في الفكر الغربي والعربي الإسلامي، أي عند بعض المفكرين والفلاسفة الغربيين ممن تحدثوا عن هذه الأخلاق واهتموا بها

وبطبيعتها، كما يتناول حضور القيم الأخلاقية في القرآن والسنة النبوية، هذا بالإضافة إلى مبحث للتعريف بالأخلاق عند بعض المفكرين والفلاسفة المسلمين.

في حين نجد الفصل الثالث يتناول الشعراء الصعاليك؛ إذ يتكون من مبحث للتعريف بالصعلكة، لغة واصطلاحا، وآخر فيه أشهر الشعراء الصعاليك الجاهليين، ومبحث يتناول موضوعات شعر الصعاليك، بالإضافة إلى مبحث آخر يصف لنا طبيعة علاقة بعض القيم بظاهرة الصعلكة.

أما الفصل الرابع فهو جانب تطبيقي لمختلف القيم الأخلاقية المستخلصة والمستخرجة من شعر هؤلاء الصعاليك وهي: الجود والكرم والشجاعة والإقدام والعفة وعزة النفس، بالإضافة إلى فصل خامس آخر يضم مجموعة من القيم الأخلاقية وهي:الصبر على الصعاب ونصرة الرفيق والسّعي من أجل الرزق، بالإضافة إلى مبحث آخر ختمنا به هذا الفصل وهو تحديد واستجلاء للخصائص الفنية في شعر الصعاليك، ثم في الأخير جاءت الخاتمة تختم البحث بمجمل النتائج المتوصّل إليها والتي كانت زبدة الدراسة وهدفها.

الكلمات المفتاحية:

القيم الأخلاقية – الشعراء الصعاليك – الأخلاق – العصر الجاهلي.

Summary

There is no doubt that pre-Islamic literature has won the lion’s share in the attractiveness of scholars to it and engaging in studies and research on its issues and rich and vast topics that do not return any of the researchers who want to penetrate into its deep folds, as over time the springs of this era have not dried up, but are still attracting a lot of research Useful and valuable without taking away from it (pre-Islamic literature), even a small part of its brightness, and its lasting luster that will remain radiant forever and ever.

Given the importance of moral values in the lives of individuals and societies, regardless of religion and belief, we decided to address this topic in this particular era to remind us of the virtuous values in this age, and fine principles that are inclusive of all aspects of life, represented in the poetry of a group of the tramps poets named “Saalik” who carry a set of honorable qualities that defend their reputation for looting, theft and cutting off the road only! And whatever good qualities and human tendencies we have mentioned about these “Saalik”, we will not put them in their true place on the page of Arab history, especially since people did not do them justice in their lives within their societies nor on the part of scholars And modern researchers.

Thus, we chose the topic of "Moral Values in the Poetry of the Pre-Islamic Saalik" as an area of study, as it was divided into an introduction and five main chapters, followed by a conclusion summarizing the research results.

The first chapter was an introductory chapter focused on introducing the nature of life in the Pre-Islamic era, especially social life and its general aspects, as well as a discussion of the nature of economical life, and another discussion summarizing some of ethical values in the Pre-Islamic poetry.

As for the second chapter, we find it under the title "Ethics in Western and Arab Islamic thought." As this chapter deals with the definition of values, as well as the definition of ethics and how they are present in Western and Arab Islamic thought, that is, among some Western thinkers and philosophers who have talked about these morals and were interested in them and their nature, as well as the presence of moral values in the Qur'an and the Prophet's Sunnah, in addition to a study to define ethics in Some Muslim thinkers and philosophers.

While we find the third chapter dealing with the "Saalik" poets; It consists of a study to define the tramp, linguistically and terminologically, and another in which the most famous Pre-Islamic tramps (Saalik) poets, and a study dealing with the poetry of "Saalik", in addition to another topic that describes for us the nature of the relationship of these moral values to the phenomenon of the tramp.

As for the fourth chapter, it is an application aspect of the various moral values extracted from the poetry of these "Saalik", namely: generosity, courage, chastity, self-esteem. In addition to another chapter (fifth chapter) which includes a combination of ethical values, namely: patience over difficulties, victory for the companion and the pursuit of sustenance, we concluded this chapter with the research,

which is the identification and elucidation of the technical characteristics in the poetry of “Saalik”. Then, in the end came the conclusion that concludes the research with the outline of the findings, which were the butter of the study and its goal.

Keywords:

Moral values, The “Saalik” poets, Ethics, Pre-Islamic era.